ناهيد رشلان

بنات إيران

رواية واقعية

دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

علي مولا

ناهيد رشلان

بنات إيران

رواية واقعيّة

ترجمة
عمر الأيوبي

دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

بَنات إيران

بنات إيران

حقوق الطبعة العربية © دار الكتاب العربي 2008

ISBN: 978-9953-27-801-8

Authorized Translation from the English Language Edition:

Persian Girls

Copyright © 2006 by Nahid Rachlin

جميع الحقوق محفوظة، لا يجوز نشر اي جزء من هذا الكتاب،
أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو،
وباي طريقة، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية
أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك،
إلاّ بموافقة الناشر على ذلك كتابة ومقدما.

Dar Al Kitab Al Arabi دار الكتاب العربي

P.O.Box 11-5769 ص.ب.
Beirut 1107 2200 Lebanon بيروت، 2200 1107 لبنان
Tel (961 1) 800811-862905 هاتف
Fax (961 1) 805478 فاكس
E-mail daralkitab@idm.net.lb بريد إلكتروني
Our Web site dar-alkitab-alarabi.com موقعنا على الوب
academiainternational.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن فكر أصحابها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

ملاحظة المؤلّفة

هذا كتاب مذكّرات، وهي الأحداث التي ما زلت أذكرها وما قيل لي عندما كنت في سنّ تسمح لي بالاستيعاب. لم أعمد إلى إجراء مقابلات مع الأهل والأصدقاء للحصول على انطباعاتهم عن حوادث معيّنة في حياتنا. وقد غيّرت أسماء القليل من الأشخاص والمؤسّسات والأماكن للحفاظ على خصوصيتهم. كما أجريت تغييرات ثانوية واختصرت بعض الأحداث والتواريخ، عندما لم يكن ذلك يفسد جوهر ما حدث وحقيقته. ولرواية القصة بأكبر قدر ممكن من الاختصار، أغفلت ذكر بعض الأشخاص الذين أحبّهم ولطافتهم وأهميتهم في حياتي أو تغاضيت عنهم. لذا أتقدّم بالاعتذار منهم جميعاً.

إلى

باري، ومانيجة، وفارزانة، وفارزين،

ومريم، ومحترم

مع محبتي

القسم الأول

بنات إيران

"أنت مخلوقة كاملة يا عزيزتي، خلقك الله فأحسن تصويرك. وقدرك أن تكوني طفلتي. ما إن يولد طفل في هذا العالم حتى يكتب أحد الملائكة قَدَره على جبينه".

قلت، "لا أرى أية كتابة على جبيني".

"إنّها مكتوبة بنوع خاصّ من الحبر".

"هل يبقى ما يكتبه الملاك في مكانه إلى الأبد"؟

"إذا تضرّع المرء إلى الله فقد يأمر أحياناً الملاك بتغيير الكتابة. لكن لا أحد يدعو الله لتغيير قدره. وأنا أريدك أن تبقي معي إلى الأبد".

ذهبي من السماء ويمكنك أن تتسلّقيه وتذهبي إلى القمر. كنت أنتظر حدوث ذلك، وأتوقّعه في كل ليلة. وعندما لا يحدث شيء كانت تقول، "قد تحلمين بذلك على الأقل". وبعد ذلك أحلم به غير مرة. في الأحلام، كنت أرتقي السلّم حتى أصل إلى القمر وألمسه ثم أستيقظ.

في الصباح، بعد الصلاة، كانت تطعمني طعام الفطور في غرفة الجلوس حيث تتسلّل خيوط الضوء الملوّنة عبر ألواح الزجاج المطبّع في عارضة النافذة فوق الأبواب الفرنسية، وتشعّ على تصاميم السجّادة المتشابكة. كانت تسلق البيض التي تضعه الدجاجات التي تربيها في قنّ في فناء البيت. ويأتينا الخبز حتى باب البيت ساخناً.

كنت هدية إلى مريم قدّمتها شقيقتها الصغرى محترم. وكنت الوليدة السابعة لمحترم، والخامسة بين الأطفال الأحياء (مات اثنان). لم تحمل مريم عندما كانت متزوّجة. ثمّ مات عنها زوجها. فرجت محترم أن تتيح لها تبنّي أحد أطفالها. وعدت محترم شقيقَتها بأن تعطيها الطفل التالي. وكنت أنا تلك الطفلة.

كانت مريم تسكن في حيّ قديم من أحياء طهران حيث نشأت هي وأمي. لم يتأثّر هذا الحيّ بمحاولات الشاه تحديث إيران. فلم يتغيّر إلا القليل هناك منذ أن كانت مريم طفلة. كان معظم جيرانها من الطبقة العاملة، ومن المسلمين الشيعة الشديدي الالتزام. ومثل معظم البيوت في المنطقة، بُني منزل مريم منذ مئة سنة وفق الهندسة المعمارية الإسلامية القياسية. كان البيت يتوسط فناء محاطاً بجدرانٍ عاليةٍ من الطوب، لا يوجد فيها فتحات تطلّ على الطريق لكي لا تجد النساء حرجاً من أن يراهنّ الرجال المارين من دون غطاء. عوضاً عن ذلك، كان هناك أبواب فرنسية بعوارضٍ زجاجية مطبّعة تؤدي إلى الفناء وإلى غرفٍ أخرى. أما الفناء، ففيه ثلاثة سلالم، واحد منها يؤدي إلى السطح، والثاني إلى المطبخ، والثالث إلى القبو.

كانت مريم تتشارك الفناء مع أرملتين أخريين. توجد غرفنا على أحد الجوانب، وتمتدّ أمامها شرفة مزيّنة بستة أعمدة عليها نقوش لحيوانات وفاكهة. ويقع المطبخ المشترك في الزاوية، وفي وسط الفناء بركة مملوءة

بالماء البارد الرائق تستعمل للوضوء. وكان يظلّل الفناء أشجار الدُّلْب والإجاص والخوخ والتفاح. كان جذع شجرة الدُّلْب مجوّفاً، وقد غطّت مريم أرضية التجويف بالبلاستيك لكي أتمكن من اللعب داخله بألعابي.

في الخريف، كانت مريم والأرملتان تملأن مشاتل الزهور بالورد والنجميات، وزهور إبرة الراعي. فيما تتسلق زهور السمكة الزرقاء الجدران. وثمة تعريشة على أحد جدران الطوب تحمل شجرة عنبٍ معمّرة ذات جذع أعجر ملتوٍ كانت مريم تغدق عليها اهتماماً خاصاً عندما تعمل في الحديقة.

وكثيراً ما قالت لي مريم " إن الله رحيم، لقد استجاب لدعائي وأرسلك إليّ ".

لكن للأسف، لم يرأف الله بنا في ذلك اليوم، عندما تغيّرت حياتي وحياتها فجأة بشكل لا رجعة عنه.

حدث ذلك في سنة 1955. كنت في التاسعة من العمر. وكان قد تمّ التوقيع للتوّ على معاهدة صداقة بين إيران والولايات المتحدة في هذه السنة، ولم يعد يفصل النساء الإيرانيات عن نيل حقّ الانتخاب سوى ثماني سنوات فقط. فقد وضع الشاه الشاب، الذي خلف والده على العرش سنة 1941، تحديث إيران نصب عينيه. وكان قد تلقّى تعليمه الابتدائي في سويسرا وأراد أن يجعل من إيران سويسرا الشرق الأوسط.

كانت المدرسة على وشك البدء في تلك السنة، فأخذتني مريم لنشتري قماشاً لخياطة فساتين لي.

شققنا طريقنا في السوق عبر الأزقة المسقوفة بالقباب. كان نور الشمس يدخل من النوافذ المحفورة عالياً في الجدران. وكانت الحمير المثقلة بالبضائع تشق طريقها بجهدٍ عبر الحشود. توقّفنا بعد أن غادرنا السوق، عند دكانٍ اشترت لي منه مريم سندويشاً من المثلجات بطبقتين، معطّر بماء الورد ومحشو بقطع من القشطة المقسّاة الموضوعة بين ثلاث رقاقات من البسكويت الهش.

وفي ذلك المساء، أخذتني إلى بيت الخيّاطة للقياس. وفيما كنا نغادر، سألتها الخيّاطة "هل بلغت العمر المناسب. أتريدينني أن أخيط لها شادوراً"؟ يفرض الإسلام على النساء أن يبدأن بارتداء الشادور، أو الحجاب، عند بلوغ التاسعة تقريباً. والتاسعة أيضاً هو العمر الذي تستطيع فيه الفتاة في إيران أن تتزوّج بشكل قانوني.

احمرّ وجه مريم وهزّت رأسها. شعرتُ بموقفها الحرج فاندفع الدم إلى وجهي أيضاً.

قالت مريم عندما خرجنا " يجب أن أحضر لك شادوراً عاجلاً أم آجلاً". فقلت لها " إننا لا نلبسه في المدرسة".

لقد ترك الشاه للفتيات حرية ارتداء الشادور. فاختارت مريم أن ترتديه. أما مدير مدرستنا الذي كان يشارك الشاه في توجّهاته التقدميّة، فإنّه لم يُلزم الطالبات بالحجاب.

بدأ اليوم التالي كأي يوم آخر. استيقظت على صوت المؤذّن وهو يدعو الناس إلى الصلاة منادياً الله أكبر. بعد أن فرغت مريم من الصلاة، تناولنا فطورنا المعتاد المكوّن من خبز السنغاغ الذي لا يزال ساخناً بعد إخراجه من الفرن الحجري الذي خُبز فيه، ومربّى الإجاص والخوخ الذي صنعته مريم بنفسها، والشاي المنكّه بالنعناع. في طريقي إلى المدرسة، توقّفت عند منزل صديقتي بتول لنذهب معاً. كانت بتول صديقتي المقرّبة، وهي تسكن في الزقاق نفسه الذي أقيم فيه. في طريقنا إلى المدرسة مررنا بالقرب من الحمّامات العامة والمساجد، وهي المشاهد التي لا يكاد يخلو منها أي من الشوارع في حيّ خانات آباد.

كان يوماً خريفياً بارداً ومنعشاً. وكانت الفاكهة الحمراء على أشجار البرسمون تتألّق وسط أشجار الجمّيز كالجواهر في أشعّة الشمس. والمياه تخرّ في الأقنية الجانبية الممتدة على الشوارع. وظهرت جبال ألبروز المحيطة بطهران واضحة المعالم بالرغم من بُعدها. توقّفنا عند كشكٍ فاشترينا شرائح الشمندر الساخن وأكلناها في طريقنا.

كانت مدرسة طهراني للبنات تقع في شارعٍ ضيّقٍ في جادّة خانات آباد،

وهي تبعد عن منزلي نحو عشر مجموعات من الأبنية. وتتسم بالطابع المعماري الإسلامي نفسه الذي يميّز سائر البيوت المحيطة بها، ويحيط بها فناء واسع.

وقفت وصديقتي بتول وبعض الفتيات في أثناء الاستراحة من الصفوف تحت شجرة قيقب كبيرة في الفناء بانتظار بدء الصف التالي. وفيما نحن هناك، لاحظت رجلاً يقترب منا. كان نحيلاً وقصيراً تعلو وجهه ندوب شبيهة بآثار الجدري وشارب كثيف. كان يرتدي بدلةً وربطة عنق. وبدت عليه المهابة حتى من بعيد.

سأل وهو يقترب " ألا تعرفين والدك"؟

عرفتُه بسرعة، إنّه الرجل الذي التقيت به مرة واحدة فقط عندما قدم إلى بيت مريم برفقة أمي التي ولدتني في إحدى زياراتها. مكث هناك ساعة أو نحو ذلك، ثم غادر لينزل عند أخيه الذي يعيش في وسط طهران.

شعرت بالخوف من والدي، وهو خوف تعلّمته من مريم. لم يكن لمريم أيّ حقّ قانوني فيّ لأنّها تبنّتني بطريقة غير رسمية. وحتى لو كانت تمتلك تلك الحقوق، فإن باستطاعة والدي المطالبة بي. فللآباء في إيران السلطة الكاملة على أبنائهم بصرف النظر عن الظروف. ولم يكن هناك أي وسيلةٍ للمقاومة إذا أراد استرجاعي. والأسوأ من ذلك أنّ والدي كان قاضياً.

كم من مرّة قالت لي مريم، "توخّي الحذر، لا تذهبي مع شخصٍ غريب". ترى هل كان والدي الشخص الغريب الذي كانت تحذرني منه؟ ها هي أشدّ مخاوفنا تصبح حقيقة واقعة.

قال، "هيا بنا، سآخذك إلى الأهواز". وأمسك بيدي وقادني بقوةٍ نحو الباب الخارجي.

نادتني بتول وزميلاتي الأخريات "ناهيد، ناهيد". التفت نحوهنّ ورأيتهنّ متسمّرات في مكانهن من هول الصدمة دون أن يقدرن على فعل شيء سوى مناداتي باسمي.

"هل تعلم أمي بذلك"؟ سألته ما إن خرجنا إلى الشارع. كان قلبي يدقّ بشدّة.

فقال، "تقصدين خالتك. لقد بعثت إليها برسالة. وعندما يصلها الخبر، نكون قد أصبحنا على متن الطائرة".

رجوته، "أريد أمي."..

قال، "إننا ذاهبون إلى أمك. لقد تحدثت مع مدير المدرسة. ستذهبين إلى مدرسة أفضل بكثير. ستكون مدرسة خاصة في الأهواز".

حاولت تحرير نفسي، لكنّه كان يمسك بيدي بحزمٍ ويدفعني نحو جادّة خانات آباد. استوقف سيارة أجرة، وحملني ووضعني على المقعد الخلفي وصعد بجانبي مثبّتاً رجليّ بيده.

صرخت "اتركني، اتركني". ومن بعيد، شاهدت من خلال النافذة شادوراً أبيض منقّطاً. كانت مريم. فناديت، " أمي، أمي". لكنني أدركت عندما اقتربت السيارة منها أنها ليست هي.

قال والدي فيما سيارة الأجرة تشقّ طريقها خلال زحام طهران المحموم، "لا تفتعلي شجاراً، فذلك لن يجديك البتة".

وسرعان ما أصبحنا في المطار ثم على متن الطائرة. أحضرت لنا المضيفة صينيتي الطعام ووضعتهما أمامنا. تناولت شوكة وأخذت أقلّب قطع الأرز واليخنة في طبقي، وأبتلع بعض الطعام على مضض. ثمّ شعرت بموجاتٍ من الغثيان.

"أريد أن أذهب إلى الحمام".

"تفضلي"، قال والدي.

وقالت المضيفة، "الحمّام في الخلف".

حدّثت نفسي أنّ علي أن أتماسك حتى أصل إلى الحمام، لكن معدتي تقلّصت بحدة وبدأت بالتقيؤ في الممر. أعطتني المضيفة كيساً فتوجّهت إلى الحمام وأبقيته مشدوداً على فمي.

عندما رجعت، كانت المضيفة قد نظّفت الممر.

سألني والدي، " كيف تشعرين الآن؟ هل تحسّن حالك"؟

لم أجبه.

قال لي وهو يداعب ذراعي، "ستصبحين أفضل حالاً عندما نصل إلى البيت، بيتك الحقيقي. أمك وأخواتك وإخوانك بانتظارك هناك. وأنا سأعتني بك".

خلدت إلى النوم أخيراً، ولم أستيقظ إلا عندما وصلنا إلى مطار الأهواز. كنت أشعر بالدوار والتشويش عندما ركبنا سيارة الأجرة. ارتفع اللهب من برج عالٍ يحرق الغاز الفائض من حقول نفط الأهواز. فامتلأ الهواء برائحة نفط خفيفة.

مررنا بشوارعٍ ضيّقة، تصطفّ على جوانبها بيوت من الطين والقش وأشجار النخيل وجوز الهند. دخلنا جادّة بهلوي، المليئة بالمحلات الفخمة البرّاقة، والأبنية الحديثة والبيوت المؤلّفة من طبقتين. لم تكن النساء اللاتي يمشين هناك يرتدين الشادور، بل يرفلن بأحدث الأزياء العصرية والمستوردة. ذكّرتني هذه الجادّه الحديثة بالأقسام الشمالية من طهران التي قد تجرأت على الذهاب إليها مراتٍ قليلة.

قال والدي للسائق، "توقف هنا"، وأشار إلى منزلٍ في شارعٍ متفرّع من جادّة بهلوي يلي الساحة مباشرة.

توقفت سيارة الأجرة أمام منزلٍ حديث مؤلف من طبقتين، تحيط به شرفة وله مدخلان.

أعلن والدي قائلاً، "لقد وصلنا إلى البيت". كان هناك مجموعة من الصبية الذين يلعبون لعبة المربعات على الرصيف الإسمنتي. شعرت برغبةٍ ملحّة بالهرب، لكن والدي أمسك يدي بحزمٍ وقادني إلى المنزل، كأنّه أحس بتلك الرغبة.

كان هناك إمرأة تجلس في زاويةٍ ظليلة من الفناء، وتحمل في يدها كوباً مليئاً بالثلج والليموناضة. كانت محمرّة الشفتين ذات شعر مموّج. بدت مختلفة

جداً عن مريم التي لا تضع أي مستحضرات تجميل وتطيل شعرها بتموجاته الطبيعية.

قال لها والدي، "ها هي ناهيد يا محترم هانم".

محترم، أمي بالولادة.

أومأت برأسها بشكلٍ مبهم، وأتت إلى حيث نقف. عانقتني، لكنّ عناقها كان متردداً. فافتقدت ذراعي مريم اللتان كانتا تطوّقانني بقوّة ومحبة.

قالت محترم للخادم المقيم الذي خرج من إحدى الغرف في الزاوية، "علي، أرشدها إلى غرفتها".

قال لي والدي، "تفضلي، يمكنك أن ترتاحي قليلاً".

قادني علي عبر سلّم حجري فخم. تركني لحظة ثمّ عاد حاملاً ثوب نوم، وبرنساً للحمام، وخُفّاً، وثياباً داخلية. أرشدني إلى الحمام إذا كنت أريد الاغتسال. ثمّ خرج ثانية وأغلق الباب خلفه.

تمددت على السرير، ومرّرت يدي على طيات ثوبي الذي صنعته لي مريم. بدت رفّاصات السرير الناعمة غريبة عليّ، فقد اعتدت النوم على فرشة على الأرض في غرفتي أو تحت ناموسية على السطح.

قال علي بعد أن طرق الباب، "تفضلي إلى العشاء يا آنستي".

بقيت صامتةً. فطرق الباب ثانية، وعندما لم أجب، ذهب.

تلاشى كل شيء حولي تدريجياً، واستسلمت لنوم عميق، خالٍ من الأحلام.

استيقظت عند منتصف الليل. شعرت بالعطش الشديد، فمددت يدي لأخذ إبريق الماء الفخاري الذي تضعه مريم دائماً قرب سريري. لكنني لم أجد شيئاً. انتابني الخوف عندما أدركت أنّهم أبعدوني عن مريم. لا بد أنّها بكت عندما وصلتها رسالة والدي التي يخبرها فيها أنه سيأخذني. ولا بد أنها هدّأت من روعها وهي تفكّر في القدوم إلى الأهواز بأسرع ما يمكن لترجو والدي أن يعيدني إليها. متى ستصل إلى هنا؟ هل ستتمكن من استعادتي؟ دارت الأفكار المقلقة والمتشابكة في رأسي.

استيقظت في المرة التالية عند الفجر. لا بد أن مريم قد استيقظت الآن على صوت المؤذن. إنّها تتوضّأ من حنفية البركة. وتفرش سجادة الصلاة على أرضية غرفة الجلوس وتصلي. وفي أثناء صلاتها تتضرّع إلى الله لكي يرقّ قلب والدي ويسمح لي بالذهاب معها. ثمّ ستستعد للقدوم إلى الأهواز واستردادي. لا، لا بدّ أنها في طريقها إلى هنا الآن.

نهضت وأنا أتنفّس بصعوبة. شعرت بألم في يدي حيث أمسكني والدي بقوة في المدرسة واغرورقت عيناي بالدموع دون أن تسيل.

أحسست بثقل الغرفة التي لم آلفها. فهي مفروشة بسريرٍ خشبي، وخزانة ملابسٍ بيضاء وزهرية، وبساط زهري منسجم معها. والستائر بيضاء مطبّعة بزهور قرنفلية. كانت غرفةً جميلة ومريحة، لكنني أفتقد غرفتي التي يملؤها الضوء بمختلف ألوانه في النهار، والرفّ الذي أضع عليه مجلاتي القصصية والحيوانات الطينية الملوَّنة يدوياً، والبساط المزيّن بتصاميم الحيوانات والزهور، والوسائد والمساند المطرّزة الموضوعة قرب الحائط.

اقتربت من النافذة. كانت الساحة في الخارج تعجّ بالناس المتحلِّقين حول العربات المحمّلة بالبضائع ـ منتجات، وملابس، وأدوات منزلية. مرّ صف من النساء العربيات، اللاتي يحملن قدوراً على رؤوسهنّ. لقد بدا كل ذلك غريباً عليّ.

الفصل الثاني

كانت العلاقة بين مريم ومحترم أوثق من العلاقة مع أشقائهما، أربع شقيقات وشقيقين. وكانت مريم، التي تكبر محترم بخمس سنوات، تساعد أختها الصغيرة في ارتداء ثيابها في الصباح وتمشّط لها شعرها. وعندما تمرض محترم، كانت مريم تلازمها ليل نهار، تضع الكمادات الباردة على جبينها، وتساعدها في الاستحمام، وتحكي لها القصص إلى أن تتعافى. ومريم هي التي علّمت أختها الحياكة والتطريز والطهي.

بقيت الأختان قريبتين إحداهما من الأخرى، على الرغم من زواجهما الذي أخذهما في اتجاهين مختلفين، على طريقين خطهما لهما زوجاهما. بقيت مريم ملتزمة بتعاليم الإسلام، في حين أصبحت محترم "عصريّة".

كانت محترم تحبل باستمرار، فتزورها مريم خلال الحمل والولادة لمساعدتها في الظاهر، وعلى الأرجح لتستمتع بوجود الأطفال حولها. لكن كانت عزيز (جدتي) هي الموجودة عندما ولدت، لا مريم. فعندما حملت محترم بي، الطفل الموعود، كانت مريم ترعى أختهما الأكبر سناً، رقية، التي كانت مريضة جداً وتعاني من نزيفٍ داخلي. وفيما كانت مريم ترعى رقية لتستردّ عافيتها، اعتنت عزيز بمحترم. وهي التي أرسلت بطلب القابلة.

في تلك السنة، منذ بداية حمل محترم، كان والدي يسافر طوال الوقت لأداء عمله كقاضٍ جوّال. كان مقر عمله في أغلب الأحيان في قرى صغيرة تفتقر إلى المناخ الصحي، لذا لم يشأ اصطحاب عائلته معه. كانت زياراته إلى البيت قليلة وقصيرة، فعمله شديد التطلّب ومرهق. فترك أمر رعاية عائلته إلى خادمة مقيمة وإلى عزيز. وسهّل غيابه أن تنفّذ محترم وعدها لأختها. كانت

علي مولا

تعرف أن زوجها سيعارض الأمر بشدة عندما يكتشف غيابي، لكنها أملت ألا يصل به الأمر إلى حد استرجاعي.

كانت الرحلة من الأهواز إلى طهران تستغرق أربع عشر ساعة. فانتظرت عزيز إلى أن أصبح عمري ستة أشهر لكي تقوم بهذه الرحلة حتى يسهل عليها السفر معي كل هذه المسافة. فمن الواجب حماية هذه الهدية المقدمة من أختٍ إلى أختها، وإيصالها بصحةٍ جيدة.

كان والدي لا يزال غائباً يوم أخذتني عزيز. لكن محترم أصيبت بنوبة فجائية من الخوف والقلق. هل أخطأت باعتقادها أن زوجها سيتفهّم بأنّها تساعد أختها التي ليس لديها أطفال بمنحها أحد أبنائها الكثيرين؟ اضطرّت عزيز إلى تهدئتها قائلةً، "لا تقلقي، أعرف أنه رجل طيب، ويحب مريم. سأحدّثه بنفسي إذا لزم الأمر".

قالت محترم، "أتمنى أن تكوني محقة، فلا أريد أن أخيّب ظنّ أختي". حمَّمتني محترم وألبستني ثوباً قطنياً زهرياً قبل أن تضعني بين يدي جدتي التي ستأخذني. ثمّ اعتصرت حليباً من ثديها ووضعته في قنينة وأعطته إلى جدتي لتأخذه معها.

لم أنم خلال هذه الرحلة الطويلة والمتعبة، على متن القطار القديم. بعد أن أنهيت قنينة حليب أمي، اشترت لي عزيز حليب ماعز من إحدى المحطات التي توقف فيها القطار. سألت العوائل التي شاركت جدتي المقصورة عني، فأقرّوا فكرة وهبي من أخت متزوجة خصبة إلى أخت أرملة من دون أطفال. فالأخوّة، والروابط العائلية، وغريزة المرأة الطبيعية للحصول على طفلٍ يُشعرها بأنوثتها، كل ذلك مفاهيم مقبولة لدى الجميع. استمعوا كلهم إلى عزيز وهي تخبرهم عن محاولات مريم الفاشلة للحمل طوال سنوات. وهي الآن أرملة، بعد أن توفي زوجها الذي يكبرها بكثير قبل ثلاث سنوات. أصابته نوبة قلبية وهو يعمل في مكتبه. فقد كان عمله كصاحب عدة مخابز في طهران ومديراً لها مرهقاً.

ساعدت النسوة جدتي بحملي، لكي تتمكن من النوم قليلاً. وعندما وصلنا إلى طهران استأجرت عزيز عربة يجرّها حصان لتقلّنا إلى بيت مريم.

محترم تحمل الطفلة ناهيد

حدث ذلك في تشرين الثاني/نوفمبر. كانت درجة الحرارة في طهران التي تحيط بها جبال ألبروز أقل بعشرين درجةٍ على الأقل مما هي عليه في الأهواز. ارتدت عزيز كنزة سميكة حاكتها بنفسها، وغطتني بجزءٍ من شادورها. تقدّمت العربة ببطءٍ وسط الزحام الشديد في طهران، المدينة المكتظة بحوالي مليوني ساكن (أكثر من عشرة ملايين الآن).

أوقفت جدتي السائق عند بداية زقاق مرصوف بالحجارة. نزلت من العربة، واقتربت من أحد المنازل وهي تحملني بين ذراعيها. حثت الخطى عندما رأت مريم تجلس القرفصاء عند باب بيتها. قفزت مريم من مكانها على الفور عند اقترابنا، فوضعتني جدتي بين ذراعيها.

قالت مريم وهي تحملني، "هذا أسعد يوم في حياتي".

حضّرت لي مريم غرفةً يفصلها عن غرفتها باب فرنسي. وقد وضعت فيها مهداً خشبياً، وألعاباً على الرف وحول السرير، وملأت الخزانة الموضوعة في زاوية الغرفة بالملابس. وأخذ الأصدقاء، والأقارب، والجيران يأتون إلى بيت مريم كل يوم وهم يحملون الهدايا لتهنئتها بحصولها على الطفل الذي طالما تاقت إليه. وبعد عدة أشهر، عادت عزيز إلى كاشان، حيث تعيش مع ابنها وزوجته. وأصبحنا الآن لوحدنا، أنا ومريم.

أخذتُ أنادي مريم "أمي" عندما بدأت بالكلام، كما ينادي الأطفال الآخرون أمهاتهم. أما أمي التي ولدتني فكانت "خالتي محترم". عندما بلغت الخامسة من عمري، في أثناء إحدى زيارات عزيز التي تتكرر غير مرة في السنة، أخبرتني هي ومريم أن الأخيره تبنتي من محترم. فلم يكن لهذا الخبر أي وقع عليّ في ذلك الوقت.

كانت عزيز تحضر لي في كل زيارة لعبةً مختلفة ومتميزة بألوانها وأزيائها، فتارة تحضر لعبةً غجرية، وطوراً تركية، وتارة أخرى صينية.

وطالما ردّدت، "لك مكان مميز في قلبي يا ناهيد هانم، لإنّك تسعدين مريم". كانت عزيز صغيرة الجسم، رقيقة الوجه، ذات عينين بنيتين لوزيتين، وشعر بني داكن متموّج مرفوع إلى الخلف ومثبت بمشابك شعر ذهبية. كانت مسلمة ملتزمة ومؤمنة بالمعتقدات الخرافية مثل مريم.

قالت لي، "يجب ألا تستفزّي الحيوانات، فبعضها تسكنه شياطين صغيرة. وحاذري من الجن أيضاً. لقد خلق الله الإنسان من طين والجن من نار. إذا لاحظت يوماً الجن حائماً، يجب أن ترمي الماء عليه فيعود إلى تحت الأرض". وكانت تقول إن البوم فأل سيئ، وإنها إذا جاءت إلى المنزل فيجب علينا الاحتراس مما قد يحصل بعد ذلك.

وكل طعام "حارّ" أو "بارد". فاللبن، والخضر، والفاكهة الحمضية من المأكولات الباردة، والمقالي والنقولات "حارة". ويجب الموازنة بين الاثنين، وكانت مريم تجاريها في ذلك. فإذا مرض أحدنا، كانتا تحاولان تصحيح هذا التوازن.

عندما لم تتمكن مريم من الحمل، أخذتها عزيز إلى قارئة بخت، وعشّاب، وأخيراً استشارت طبيباً نسائياً، الملاذ الأخير إذ إن ذهاب المرأة إلى طبيب ذكر من الخطايا (كان هناك نقص في الطبيبات). أجرى الطبيب النسائي لمريم فحوصات وقال إنها لا تشكو من شيء. وأضاف، "إنّنا لا نعرف كل شي". ربما كان زوجها السبب، لكن في المجتمع الذكوري المسيطر، لا يُسأل الرجل البتة.

كانت عزيز تضعني أحياناً في السرير ليلاً. وتستلقي بجانبي وتخبرني قصصاً من ألف ليلة وليلة، بحبكاتها المعقدة والمتشابكة. كانت تجعل القصص تبدو كأنها حقيقية، سواء أكانت عن حصان طائر، أم طائر يستطيع حمل الفيلة، أم الأبواب التي تفتح عند سماع صوت ما.

كانت مريم تنظم حياتها، مثل غيرها من سكان الحيّ، حول طقوس الدين، فتتبع قواعده الأساسية: الصلاة ثلاث مرات في اليوم، وارتداء الحجاب (تغطية الشعر والجسم عند وجود الرجال)، والصيام شهراً واحداً، والحج، وإيتاء الزكاة. كانت أصوات المؤذنين تصدح ثلاث مرات في اليوم. فتصلي النسوة في منازلهن لا في المساجد، حيث يذهب الرجال لتأدية الصلاة. وتذهب النسوة إلى المساجد في مناسبات خاصة فقط، مثل الدعاء إلى الله لتحقيق أمانيهن، أو الاستماع إلى عظات يلقيها رجال الدين. وفيما يتعلّق بالزكاة، كانت مريم تعطي الفقراء بسخاء بحيث نادراً ما يبقى معها شيء من المال في نهاية الشهر. وكان مصدر دخل مريم الإيجارات التي تجمعها من المستأجرين في الجانب الآخر من الفناء، ومن أرباح المخابز الخمسة التي ورثتها عن زوجها الراحل.

اعتادت مريم والأخريات من حولها أن تكرّر دائماً العبارة نفسها، "الحياة الآخرة هي المهمة".

ذات يوم، عندما كنت في السابعة من عمري، عدت من المدرسة لأجد مريم وحميدة وعزة سادات، الأرملتين المستأجرتين عندها، يجلسن على

الأرض في غرفة المعيشة وقد فرشن أمامهن قماشاً أبيضاً، وأخذن يقصصنه بطريقة معينة.

شرحت لي مريم الأمر قائلةً، "إننا نصنع الأكفان، من المستحسن الاستعداد للحياة الآخرة. ليس هناك ما تخافي منه إذا كنت أعمالك صالحة على هذه الأرض. الموت ليس النهاية. فستبعثين إلى الحياة يوم القيامة. وما إن تدفنين في القبر، حتى تأتي الملائكة إليك لتسألك. فإذا بيّنت إجاباتك أنّك كنت صالحة في حياتك، ترفعك الملائكة وتحملك إلى الجنة. وإذا تبيّن سوء مسلكك، ترسلين إلى الجحيم حيث تنتظرك النار الموقدة".

لم تكن أصوات حركة المرور تصل إلى زقاقنا الواقع في متاهة من الأزقة الضيقة جداً التي لا تستطيع السيارات المرور فيها. فسمعت كلماتها بكل وضوح، على الرغم من أنّها تحدّثت بصوت خفيض. نادراً ما كانت تُشعرني بأنها تعظني أو تحاول تصحيح مساري.

ذهبت إلى غرفتي، وحاولت أن أشغل نفسي بأموري اليومية - إنجاز فروضي المدرسية بشكلٍ جيدٍ، والتفكير في المبيت عند بتول في نهاية الأسبوع. كان بوسعي من خلال الباب المفتوح على الفناء أن أسمع دمدمة العديد من الأصوات - زقزقة العصافير، وحركة الأسماك في البركة (كانت مريم تضعها في الداخل في حوضٍ صغير عندما يصبح الجو بارداً)، وهديل الحمام الحزين، وخرير الماء في الخزان الخارجي الذي ينتقل منه الماء إلى الخزّانات في المنازل. وكذا صوت قطة الزقاق ذات الشعر الأصفر والبرتقالي، والوجه المفلطح وهي تتحرك من الخارج وتموء فيما تتجه إلى طبق الطعام الذي نضعه لها على الأرض، ثم إلى حافة البركة حيث تجلس محدقةً بشوق في السمك الذهبي الذي يسبح في الماء. وصوت الببغاء الموضوع في قفص نحاسي كبير وهو يقول، "سلام، حالات تشيتورا (مرحباً، كيف حالك)".

انضممت إلى مريم وحميدة وعزة سادات للغداء في الفناء في وقت لاحق من ذلك اليوم. فقد حضّر الثلاثة العشاء معاً، كما يفعلن في الغالب. كنّ يشعرن بالراحة في هذه العشرة، ويتشاركن المطبخ، والفناء ببركته المستطيلة، ويستعملن حنفية البركة للوضوء قبل الصلاة.

جلسنا على السُّفرة الممدودة على بساط على الأرض. كان يوماً ربيعياً لطيفاً. وكان الهواء عابقاً برائحة الزهور، المختلطة برائحة التوابل - الزعفران والكركم - المستعملة في الطعام.

كن يشترين مكوّنات الطعام بشكل رئيسي من الباعة الذين يجوبون الزقاق ويحملون بضاعتهم على صوانٍ خشبية مستديرة فوق رؤوسهم. كانوا ينادون على بضاعتهم، "ارووا عطشكم بأفضل عصير رمان أحمر كالياقوت"، "تذوقوا التين الأحمر الكبير والطازج"، "انظروا إلى أشهى التوابل الطازجة التي يمكن أن تتخيّلوها".

كن يحضّرن كل شيء بأنفسهن. يقشرن القمح، ويطحنّه بمطحنة مكوّنة من حجرين مستديرين ثقيلين. ثمّ يصنعن المعجنات والحلويات من هذا الطحين. وكنّ يصنعن أيضاً أنواعاً مختلفةً من المخللات، والخل. ويطلبن أنواعاً معينة من اللحم لصنع "الكورش" والكباب من جزار في خانات أباد معروف بدقة اتباعه أصول الذبح الحلال للحيوانات. ويحببن التعاون في صنع الطعام، الذي يخرج بشكل مختلف في كل مرة.

في أثناء تناول الطعام، صبّت الثلاثة اهتمامهن عليّ، فابنتا حميدة متزوجتان ومستقلّتان، وعزة سادات لا تستطيع أن تحمل، مثل مريم. قلن إنهن يتمنين أن أرزق بالعديد من الأطفال عندما أكبر، إذ إنّ ثروة المرأة أطفالها.

كنت سعيدةً بصحبة خالتي والمرأتين الأخريين. ولكن فيما كان ذلك النهار يقترب من نهايته سمعت نعيب بومة تقف على الإفريز، فانقبض قلبي عندما تذكرت الأكفان التي كن يحَضّرنها في وقت سابق من النهار.

لم يكن هناك خطوط هاتفية في حيّ مريم، لذا كان الناس يأتون للزيارة فجأة. الطرق على الباب بمطرقة برونزية على شكل رأس أسد تعني قدوم زوّار، بما في ذلك خالاتي وأولادهن، الذين كانوا يأتون للغداء أو لشرب الشاي تناول المعجنات. فينبض البيت بالحياة بأحاديث النساء، والقصص المتبادلة، بينما

يتراكض الأولاد في الفناء ويلاحقون الفراشات، أو يلعبون الغميضة. كان أولاد خالاتي يبيتون عندنا في أغلب الأحيان، كما كنت أفعل ذلك أحياناً. كنا نصعد إلى السطح ونُطيّر الطائرات الورقية بمساعدة الصبيان. فتمتلئ السماء في المساء بالطائرات الورقية المتعددة الأشكال التي يُطيّرها أولاد الجيران، وتتشابك بعضها ببعض.

كانت خالاتي ونساء الحي يأتين شهرياً للاستماع إلى مواعظ رجال الدين الذين تدعوهم مريم إلى بيتها. [illegible] المناسبات كانت مريم تغطي جدران غرفة الجلوس بالقماش الأبيض وتضع كرسياً بذراعين ليجلس عليها رجال الدين. وكان رجال الدين يتعاقبون [illegible] الحديث وتتمحور مواعظهم حول استشهاد الأئمة. كانت النساء يجلسن على البساط، ويتكئن على الوسائد. وكن يبكين لمعاناة الأئمة التي كان يسردها رجال الدين بتفاصيلها الدقيقة وبنبرات مؤثّرة. وعندما يرحل رجال الدين بعد أن تدفع لهم مريم، تخلع النسوة الشادورات. وتقدّم مريم الشاي لهن من سماور كبير موضوع في زاوية الغرفة يعلوه إبريق الشاي، وكن يتبادلن الحديث في أثناء شرب الشاي.

كانت النساء، مثل رجال الدين، يتحدثن عن الأحداث التي جرت منذ ألف وخمسمئة عام كأنها تجري الآن. فيتحدثن عن النبي محمد وعلي ويزيد، وعمر، وعن اختلافات بينهم، وعدلهم وكرمهم. وكن يذكرن علي، صهر النبي، الذي يعتقدن بأنّه الأحق بخلافته (وذلك موضع اختلافهم مع السنّة الذين لم يعتقدوا بوجوب ذلك). ويستنكرن ما قام به عمر، الذي خلف محمداً بدلاً من علي.

لم أكن أفتقد وجود والدي البتة. ونادراً ما كانت الفتيات الأخريات يتحدثن عن آبائهن، بل لم يكن هناك علاقة حقيقية معهم. فالآباء مجرد صور بعيدة في حياة الفتيات الإيرانيات، إلا عندما يتعلق الأمر بالقوانين والعقاب.

كانت شوارع طهران مليئة بالمغامرات والأسرار بالنسبة لي ولأبناء خالاتي. كنا نركض فيها، وتضرب أحذيتنا حجارة الطرقات. كنت أشعر بمقدار

غير محدود من الحرية، دون أن أعي القيود التي تخنق آمال الشابات وطموحاتهن من حولي. كنا نتسلل إلى أسواق الأحياء الصغيرة المليئة بروائح الفاكهة، والأعشاب والتوابل، ونشتري أكياساً من بذور اليقطين والبطيخ المحمّص. ونرقب البقال وهو يزيِّن الخضر، وملمّع النحاس وهو يبرد قدْراً نحاسية، والشرر يتطاير في الهواء من آلته. وفي جادّة خانات آباد كنا نذهب إلى مكتبة تبيع الملصقات الملونة، فنشتري ملصقات الملائكة والورود ونأخذها إلى البيت. وعندما نعود إلى البيت تحملنا خالاتنا وتُقبلننا، وتعطيننا الألعاب المصنوعة يدوياً - دمى مصنوعة من الخرق، ودواليب الهواء، وحيوانات مصنوعة من الطينية. فلا ندرك قسوة حياتهن.

لم أدرك المصاعب التي تكابدها النساء إلا في الحمامات العامة. ففي غرفة البخار الكبيرة، تتحدّث النساء اللواتي يأتزرن بمآزر حمراء، عن ظلم النظام الذي يعطي النساء سلطة أدنى بكثير مما يعطي الرجال. وأن ادعاء الشاه بالمساواة بين النساء والرجال ما هو إلا هراء. ألا يرث الأبناء ضعف ما ترثه البنات من آبائهن المتوفين؟ ألا يُسمح للرجال بالزواج من أكثر من إمرأة؟ ألا يحصل الآباء تلقائياً على حق حضانة أطفالهم عند الطلاق؟ أوليس تطليق المرأة من أهون الأمور على الرجل، في حين إذا أرادت المرأة الطلاق فعليها أن تتخلى عن كل شيء، كحقوقها المالية وأطفالها؟ كم كان محزناً أنّ الشاه طلّق زوجته فوزية، لأنها لم تمنحه ابناً. وها هو قد تزوج ثانيةً من ثريا التي ستواجه المصير نفسه دون شك إذا لم تنجب له صبياً. لم يغير الشاه أي شيء للنساء، سوى ترك الحرية لهن في ارتداء الشادور، لكن ما نفع هذه الحرية إذا كان الأزواج هم الذين يملون على زوجاتهم أن يرتدين الشادور أو لا يرتدينه؟

قالت مريم وهي تمسح الصابون عن جبينها، "بوسع الشاه أن يتعلم شيئاً من النبي محمد، الذي كان يؤمن بالمساواة مع النساء".

انضمت امرأة أخرى إلى الحديث، "أجل، فقد تزوج النبي امرأة تكبره بخمسة عشر سنة، وكان مخلصاً لها، ولم يطلقها على الرغم من أنّ بنتاً، لا ابناً، هي الوحيدة التي بقيت له على قيد الحياة".

قالت خالتي رقية، شقيقة مريم الوسطى، "لم يتزوّج امرأة أخرى إلا بعد وفاة خديجة".

وافقت مريم قائلة، "كان متواضعاً، وعاش عيشة بسيطة، خلافاً للشاه. كان يعطي كل ما يفيض عنه. وغالباً ما بقي بيته، بحيطانه الطينية، وسقفه المصنوع من سعف النخيل، مظلماً لعدم وجود الزيت لإضاءة المصباح. وكان رحيماً. أتذكرون ما قيل عنه؟ أنه عندما رأى إمرأةً عمياء تتعثر في الطريق في مكة قادها إلى منزلها بلطف وصار يأخذ الطعام إليها يومياً فيما بعد".

قالت خالتي خديجة، التي سُميت باسم زوجة النبي، بما يقرب من الهمس، " أتذكرين كيف تزوج الآغا علَيّ؟ لا يمكنني أن أقول إنني كنت حزينةً عند انقلاب شاحنته ومقتله. لقد استجاب الله لدعائي".

كانت الخالة خديجة امرأة تبدو حيوية الآن، لكنني سمعت مريم تخبر المستأجرتين عندها بأنها لبثت حزينة سنوات.

وأضافت الخالة خديجة بمرارةٍ، "ألم أمنحه ثلاثة أولاد؟ ماذا كان يريد مني غير ذلك"؟

هزت الخالة رقية رأسها من جانب إلى آخر قائلة، " أختي الحبيبة، كل ما يحدث على هذه الأرض تافه". كانت الكبرى بين أخواتها وتعيش منطوية.

وقالت مريم، "تعرفون كيف صبرت على فتح الله، وكل ما لقيته كان الانتقاد لأنني لم أنجب له طفلاً. كنت متأكدة من أنه سيتزوج علَيّ، لكنه توفي". وبدأت تدلك ظهر خديجة التي بدت متأثرةً وحزينةً من ذكرى الزوجة الثانية التي تزوجها عليها زوجها.

ساعدت الألفة الجميلة ودعم الأخوات بعضهن بعضاً على تخفيف الألم بشكل تدريجي، ثمّ تمكنّ أخيراً من الاسترخاء، والمزاح، والضحك. وفُتحت مواضيع أكثر بهجة.

قالت خالتي رقية، " لقد تقدم رجل لطيف من عائلة محترمة بطلب يد نرجس"، كانت تتحدث عن ابنتها التي تبلغ الرابعة عشر من العمر. كانت قلقةً

من أن لا يتقدم أحد للزواج من نرجس لأنها تعاني من وجود بقع صلعاء في رأسها.

قالت خالتي خديجة، " أرأيت، عندما تُغلق كل الأبواب في وجهك، يفتح الله لك نافذة".

فعلّقت مريم قائلة، "نحن جزء من مقاصد الله المعقّدة التي تتجلّى بطرق لا نفهمها دائماً".

الفصل الثالث

خلال سنوات إقامتي مع مريم، كانت أمي بالولادة مجرد طيفٍ بالنسبة إلي. كنت أراها مرة واحدة في السنة عندما تأتي إلى طهران لزيارة أقاربها. كانت تنزل دائماً عند مريم، دون تعيرني اهتماماً خاصاً. لم تكن بيننا أي رابطة.

في إحدى السنوات، عندما كنت في السابعة من العمر، أحضرت محترم معها طفلة جعداء الشعر، تبلغ الثانية من العمر تقريباً. كانت كثيرة الحركة حتى بين ذراعي محترم، تحدق في الجميع وتبتسم لهم. كانت هذه الطفلة أختي الصغرى منى التي لم ألتقِ بها من قبل.

لبثوا عندنا نحو أسبوع، وكانت خالتيّ الأخريين تأتيان مع أطفالهما لزيارتنا يومياً. بدت محترم مميّزة بين أخواتها لأنها أصبحت عصرية، وتضع مساحيق التجميل، ولا تغطي شعرها في حضور الرجال، ولا تصلي. مع ذلك لم تتوقف أخواتها عن حبها. وعذرنها، وألقين اللوم في أساليبها الحديثة على والدي. قلن إن الرجال يمتلكون كامل السلطة ومن الخطر معارضة إرادتهم.

قالت مريم لمحترم، " لقد كنت طفلة جميلة ومفعمة بالحياة".

وقالت رقية، "لا عجب أن انتظرك مانوشهر خان حتى بلغت العمر المناسب للزواج".

"وقد أنعم الله عليك بالعديد من الأطفال"، قالت خديجة التي لديها ثلاثة أبناء.

أولت محترم اهتماماً خاصاً لمريم، أختها المفضلة، وقالت لها "كنت

أجمل واحدة فينا. أتذكرين كيف أرسل رضا شاه إحدى النساء لتطلب منك أن تصبحي زوجته".

كان لرضا شاه، والد محمد رضا شاه، مجموعة صغيرة من الحريم وقد طلب من النساء في أوساطه أن يبحثن له في الحمامات العامة والطرقات عن أجمل إمرأة، وأن يحضرنها لتصبح من حريمه.

وتابعت محترم قائلة، "لم تكن أمي ترغب في أن تصبحي من الحريم".

قالت مريم، "لم ترد أي منا أن تتزوج، فقد كنا سعيدات بالبقاء معاً في المنزل".

كان جدي، حسين خان، تاجر تبغ مقتدر وقد وفّر لعائلته حياة مريحة. فعاشوا في بيت كبير في خانات آباد، في هذا الحيّ بالتحديد، وكانوا يملكون دارة في جبال آلبروز. كان يسافر من أجل عمله، لكنه وضع أسساً ومبادىء تقليدية لعائلته. كان يعتقد بأن التعليم يقتصر على الذكور فحسب. فوصل أبناؤه إلى المرحلة الثانوية. وقد شجع بناته على الزواج عندما يأتي الرجل المناسب.

أتمت مريم الصف السادس وكانت ملمّة بالقراءة والكتابة. وتلقت محترم دروساً خصوصية بعد أن تزوجت ـ وتلك فكرة والدي. أمّا خالاتي الأخريات فكُنَّ أميّات تماماً. تزوجت كل الشقيقات في سن السادسة عشرة، كما هي حال معظم بنات الحيّ. وتزوجت محترم في التاسعة، السن القانوني للزواج في ذلك الوقت. كان والدي الوحيد المتعلم بين أزواج الأخوات. لم يتخرّج من المدرسة فقط، بل تابع دراسته إلى أن أصبح محامياً. كان كل أزواج خالاتي يمتلكون المحلات: زوج مريم المخابز، أما الآخران، فأحدهما كان يبيع المنتجات الزراعية، والآخر السجاد.

سافر والدي كثيراً وتعرّف إلى مناهج تفكير أخرى، لكنه التزم بتقاليد الزواج المدبّر ولم يزعجه فارق العمر بينه وبين عروسه، أو أن عروسه مجرد طفلة. كان ابن عم لمحترم من الدرجة الثانية. وقد شاهدها وهي تكبر وقرر الزواج منها ذات يوم. كان في الرابعة والثلاثين عندما تزوجا. وبعد الزواج أعدّ

غرفة منفصلة لعروسة الطفلة حتى تصبح في عمر يمكّنها من القيام بواجباتها الزوجية.

ما إن تزوّجت الفتيات حتى بدأن ينجبن الأطفال. كل الأخوات، باستثناء مريم.

بكت محترم عند نهاية الزيارة. لم تتحمّل فراق أخواتها، وبخاصة مريم. وعدت مريم أن تذهب إلى الأهواز لزيارتها، لكنها لم تفعل ذلك قط. فقد جعل والدي ذلك مستحيلاً دون أن يتلفظ ببنت شفة.

لم تظهر محترم لي حباً أكثر مما تظهر لأبناء خالاتي وهي تقبّلنا مودعة. ولم تقم بأي محاولة لتغرس فيّ أنّها أمي الحقيقة. ولم أشعر بأي شيء خاص تجاهها.

بعد أن خرجت محترم وتوارت مريم في الفناء، سألت إحدى بنات خالتي، "من تحبين أكثر؟ مريم أو محترم"؟ وقد صُعقت عندما قالت إنها تحب محترم أكثر لأن لديها العديد من الأولاد.

أزعجني شيء ما في هذه الزيارة. بقيت تلك الليلة مستيقظة وقتاً طويلاً. وتساءلت لأول مرة لماذا تخلّت عني بسهولة. ولماذا لم تهب مريم أحد أولادها الآخرين؟ هل فيّ ما يسيء؟ لماذا تخلّت عني بسهولة؟ كانت تحمل منى بين ذراعيها بمحبة شديدة.

كنت أمرّ كل بضعة أيام على المكتبة في جادّة خانات آبا لأشتري مجلة "غيسا" (القصة). كان كل عدد منها يحتوي على بعض القصص "الحقيقية" وقصة خيالية، وكل مؤلفيها غير معروفين وبعضهم مجهول. كنت أقرأ في البيت كل قصة بتمعّن. فربما حملت لي هذه الكلمات، أو القصص، الإجابات التي أبحث عنها.

وبسبب كل قراءاتي كنت الأولى في الصف الثالث في مدرسة طهراني. وفي نهاية أحد الأيام الدراسية جمعت المديرة كل التلامذة في الفناء وأعلنت عن التلميذات الأوائل في الصفوف. ثمّ توّجتنا واحدة تلو الأخرى بتيجان مصنوعة من الورق الأزرق والذهبي. لم أكن أرغب في خلع التاج بسرعة، لذا عدت إلى البيت من الطريق الخلفية الفارغة والهادئة التي تؤدي إلى زقاقنا.

وعندما وصلت إلى البيت وجدت مريم في الفناء تسقي شجيرات الورود من علبة معدنية. فوقفت قبالتها. استدارت نحوي ولاحظت التاج. فقلت "أنا الأولى في صفي".

وضعت المرشّة من يدها واحتضنتني وقبّلتني وقالت، "أنت فتاة رائعة بكل معنى الكلمة".

لماذا تخلّت محترم عني إذاً؟ سألت نفسي، وأنا لا أزال أبحث عن تفسير.

كانت مريم وحميدة تقطّعان الخضر وتتحدثان. وحاولت جاهدة من الرواق أن ألتقط كل كلمة تقولانها.

قالت حميدة لمريم، "لقد تركت بانو هانم ابنتها ذات العام الواحد على باب ذلك المنزل في نهاية الزقاق. الطفلة المسكينة عمياء".

"لا، لماذا فعلت ذلك"؟ سألت مريم، "وماذا جرى للطفلة"؟

أجابت حميدة قائلةً، "تقدّم الجزار الذي في دكان أصغري لخطبتها. وأبلغت أمه بانو بأن ابنها لا يرغب في تلك الطفلة العمياء ويريدها أن تضعها عند أحد أقاربها. لم تجد بانو من يأخذ الطفلة. لكنها عادت وغيَّرت رأيها، فرجعت مسرعة وأخذت الطفلة".

انتابتني رعشة مما تقولانه.

دخلت حميدة بعد قليل إلى غرفتها وجاءت مريم إلى الشرفة ودخلت غرفة الجلوس. فلحقت بها.

سألتُ مريم، "أمي، هل هناك خطأ فيّ جعل محترم تتخلّى عني"؟

"أنت مخلوقة كاملة يا عزيزتي، خلقك الله فأحسن تصويرك. وقدرك أن تكوني طفلتي. ما إن يولد طفل في هذا العالم حتى يكتب أحد الملائكة قَدَره على جبينه".

قلت، "لا أرى أي كتابة على جبيني".

"إنّها مكتوبة بنوع خاصّ من الحبر".

"هل يبقى ما يكتبه الملاك في مكانه إلى الأبد"؟

"إذا تضرّع المرء إلى الله فقد يأمر أحياناً الملاك بتغيير الكتابة. لكن لا أحد يدعو الله لتغيير قدره. وأنا أريدك أن تبقي معي إلى الأبد".

الفصل الرابع

فجأةً، طرق علي، الخادم، باب غرفتي لأنزل لتناول الفطور. لمَ أجبه، فذهب ثم عاد ودعاني ثانية. نهضت أخيراً، وذهبت إلى الحمام واغتسلت. وتوجَّهت مترددة إلى غرفة الطعام لتناول الفطور مع عائلتي الجديدة.

على الرغم من أن الوقت ما زال باكراً، فإنّ شمس الصباح الساطعة كانت تشع في غرفة الطعام. كان إخوتي هناك، يجلسون إلى طاولة خشبية طويلة ويتحدث بعضهم إلى بعض. لقد قابلتهم جميعاً من قبل مرة أو مرتين خلال زيارات محترم لمريم، لذا لم يكن هناك حاجة إلى التعارف. جلستُ على الكرسي الشاغر قرب والدي.

فقال، "ها هي ناهيد قد عادت إلينا".

نظر الجميع إليّ بصمت. كان شقيقاي شابين الآن، يبلغ سايرس الثامنة عشرة، ويكبر برويز بسنتين، وهو في الثانوية العامة. كانا شابين جذابين وواثقين من نفسيهما. وتليهما باري، في الثالثة عشرة، أي أصغر من برويز بثلاث سنوات، وهي جميلة جداً. ومانيجة التي تصغر باري بسنتين، وهي جميلة أيضاً لكنها تبدو شاحبة. كانوا كلهم يرتدون ثياباً مستوردة كتلك التي رأيتها في محلات الثياب في شمال طهران. كانت باري ترتدي قميصاً وتنورة ذات حمّالات كتفية، ومانيجة فستاناً أبيضَ مطبّعاً ذا كشاكش على الأكمام، ومحترم فستاناً مقلّماً بالأبيض والأسود. أما والدي وشقيقاي فكانوا يرتدون بدلات رسمية وأربطة عنق. فجأةً، بدا فستاني الذي خاطته الخيّاطة غير متقن، وشعرت بأنني لا أنتمي إلى هؤلاء الناس.

طويل. قال والدي عندئذٍ، "أخواتك تعلمن هنا أيضاً. يمتدّ التعليم هنا إلى الصف السادس".

احتشدت الفتيات الأخريات في الشارع بزيّهن الرمادي، بعضهن يمشين، وبعضن ينزلن من السيارات. ألقين التحية بعضهن على بعض وتوارين في الداخل.

عندما وصلنا إلى المدخل قال لي والدي، "أنا متأكد أن المكان سيعجبك. أنت لم تتأخري إلا أسبوعاً واحداً فقط عن الدروس هنا".

وقفت على الباب، غير راغبة في الدخول. فأمسك بيدي وقادني إلى الداخل إلى ساحة فسيحة. كانت الساحة مفتوحة عند الجانب الآخر، باستثناء سياج منخفض. وتنتصب مجموعات من أشجار النخيل في أماكن مختلفة. وكانت غرف الدراسة والمكاتب داخل مبنى رمادي حديث مكوّن من طبقتين. قادني والدي إلى مكتب المديرة في الطبقة الثانية.

فتحت لنا الباب إمرأة ترتدي بذلة كحلية. كان شعرها الأسود معقوصاً إلى الخلف ويعلو وجهها القليل من مساحيق التجميل.

خاطبت والدي مستعملة كلمة "قاض" وقالت، "سيد غازي، إنّني مسرورة جداً لأنك تعتبر مدرستنا ملائمة لابنتك". ونظرت إليّ قائلة، "أهلاً بك. تبدين بصحة جيدة. لقد صنع والداك خيراً بإرسالك إلى طهران لكي تتعافي".

احمرّ وجهي. ما الذي كانت تتحدث عنه؟

قال والدي للمرأة، "سنذهب الآن. أردتك أن تتعرفي إليها".

أجابته مبتسمة، "سنعتني بها جيداً".

عندما عدنا إلى الساحة ثانية قال لي والدي، "اذهبي وانضمي إلى الفتيات الأخريات. واعرفي مكان صفك". ثم ابتعد وتركني وحيدة في الساحة.

وقفت الفتيات اللواتي يرتدين الزي المدرسي في مجموعات في أماكن ظليلة أو تحت المظلات.

قال والدي محاولاً لفت انتباهي، وقد بدت البهجة على وجهه الصارم، "كل أولادي الآن هنا معنا".

تمتمت محترم وهي تنظر إلى الأرض، " لكن عزيزتي مريم".

ردّ والدي بحدة قائلاً، "لا تذكري ذلك".

ابتسمت لي باري كأنها تحاول أن تريحني، وكان ذلك بمثابة الاعتراف الأول من أحد الأشقاء بوجودي.

دخل علي ووضع كوباً من الشاي أمامي.

خاطبني والدي قائلاً، "تناولي شيئاً من الطعام".

بدأت أتناول الجبنة، والخبز، والمربى، والتمر.

قالت باري،" تذوقي 'الخامة' أيضاً، إنها لذيذة". فمددت يدي، ووضعت ملعقة كاملة في صحني من القشطة شبه الصلبة.

كان الخبز سميكاً وبارداً، ولم يكن الشاي منكّهاً بالنعناع كذلك الذي تصنعه مريم. وفيما كنت ألعب بطعامي، أخذ أشقائي يتحدثون بعضهم مع بعض، وأولت محترم انتباهها لمانيجة، وسألتها عما تحتاج إليه في ذلك اليوم المدرسي. نظرت إليّ باري وابتسمت ثانية.

فجأةً، بدأت محترم تتذمّر، دون أن توجّه الحديث إلى شخص معين، "لدي الكثير من العمل اليوم، تسوّق وطهي. علينا أن نشتري فرناً جديداً، ومروحة جديدة للصالون. وكل الأولاد يريدون شيئاً أو آخر". وأضافت، "وتحتاج ناهيد إلى زي مدرسي ترتديه للمدرسة".

لم يكن هناك دفء في كلامها. وشعرت بأنها تتذمّر بسببي، رجّحت كفة الميزان، وأصبح لديها الكثير من الأولاد الذين تهتمّ بهم. فالآخرون كانوا دائماً موجودين في النهاية.

نهض والدي وأسدل ستائر النوافذ لحجب الضوء الساطع. عندما جلس ثانية، كانت تبدو عليه ملامح الجدية، كأنه على وشك إلقاء محاضرة. فعمّ الصمت المكان. ثمّ قال بعد أن مرت لحظات من الصمت المتوتر، " يجب أن آخذ ناهيد إلى المدرسة في يومها الأول".

أنهى الجميع طعامهم وتركوا غرفة الطعام الواحد تلو الآخر. وتلا ذلك الفوضى الصباحية - الأولاد يجوبون المنزل الكبير، وهم يبحثون عن هذا الشيء أو ذاك - حذاء في غير مكانه، قبّة زي مدرسي. أما أنا، فدخلت غرفتي وانتظرت بهدوء.

أخيراً دخلت محترم وأعطتني زياً رمادياً وقبّة بيضاء.

قالت، "ارتدي هذا إلى أن نحضر لك واحداً. أنه لمانيجة من السنة الماضية".

قلت وأنا أغلي تمرداً، "لا أريد أن أرتديه. لم نكن نرتدي الزي الرسمي في مدرستي في طهران". فابتعدت محترم دون أن تردّ بأيّ كلمة.

بعد لحظات، ظهر والدي عند المدخل. وقال، " أسرعي وارتدي الزي، يجب أن نذهب".

ارتديت الزي على مضض. فكان كبيراً جداً عليّ.

عندما أصبحنا في الخارج قال، "سنحضر لك زياً خاصاً بك قريباً"، وأضاف ونحن نسير، " تحتاجين إلى إشرافي".

لم أقل شيئاً، فقد كان يتملكني الخوف والقلق من سلطته عليّ.

قال، "أريدك أن تبدئي بمنادة والدتك 'أمي'. إنها أمك الحقيقية، وطالما كانت كذلك".

قلت، "لا أريد البقاء هنا".

فأجاب بحزم، "يجب أن تتوقفي عن هذا الكلام".

انعطفنا من جادّة بهلوي إلى شارع آخر أصغر تحفّ به بيوت حديثة بمعظمها، ولا يقع في وسطها فناء. كانت أشجار النخيل، وبعضها يحمل ثمار البلح في الأعذاق المتدلية في كل مكان. لم أر قنوات للمياه. كانت الحرارة أعلى مما هي عليه البارحة في طهران وشعرت بالحرّ وأنا أمشي. أحسست كأنني هبطت إلى عالم مختلف وغريب.

أخيراً لاحت المدرسة، وهي عبارة عن مبنى حديث يقع في شارع

شعرت بالخجل الشديد وأنا أرتدي الزي المدرسي الكبير عليّ. كانت الفتيات يعرفن بعضهن بعضاً جيداً، ولم أحاول التحدّث إلى أي منهن من شدة الخجل.

لا بد أن صديقاتي في مدرسة طهراني يتحدثن الآن بعضهن مع بعض، ويدلين بملاحظات عن فتيات يحببنهن أو لا يحببنهن، وعن المعلمات اللطيفات وغير اللطيفات. وربما كنّ قلقات عليّ، ويتساءلن عما جرى لي، أو كيف خطفني ذلك الرجل. وربما عرفن الآن ماذا حصل. فقد تحدث والدي إلى المديرة هناك ولعلها أخبرت التلميذات بالأمر.

من المرجّح أن بتول ذهبت إلى منزلنا وسألت مريم عما جرى. اشتقت إلى صديقاتي ومريم. هل مريم في طريقها إلى هنا؟ هل ستكون في انتظاري عندما أعود إلى المنزل؟ من الصعب عليّ أن أصدّق أنّني كنت في طهران منذ أربع وعشرين ساعة فقط.

توجه رجل نحو الجرس الضخم المتدلي من سقف الرواق وطرقه بقضيب نحاسي. بدأت الفتيات بالاصطفاف. سألتُ فتاة عن مكان الصف الرابع. تفحصتني بدقة ثمّ أشارت إلى أحد الأرتال. فذهبت ووقفت في آخر الصف.

دق الجرس ثانية وبدأ الجميع ينشدون النشيد الوطني، وهو الروتين المتّبع في كل المدارس، ولكنني انضميت إلى الإنشاد بصعوبة في هذا المكان الجديد.

يا شاهنا، يا شاهنا، فلتعش العمر المديدا

إيران، يا أرض الجواهر

ترابك مصدر الفن والفضيلة

ليتني أضحّي بحياتي من أجل وطني

فحبك قد أصبح شاغلي

ليت أفكاري لا تبتعد عنك

صخور جبالك اللآلئ والجواهر

وتراب سهولك أفضل من التبر الخالص...

بعد أن أنهينا النشيد توجهنا إلى الصفوف وجلست بالقرب من النافذة، لأتمكن من النظر إلى الخارج.

دخل الأستاذ، وهو رجل في متوسط العمر. بدأ يكتب كلمات على اللوح ويسألنا عن معانيها. لم يبدُ عليه أنه لاحظ وجودي، ولم يسألني عن اسمي او لماذا أنا هنا. كان يتغنى فقط بانتصارات إيران على الدول الأخرى. وكان ينظر بين الفينة والأخرى إلى صورة الشاه المعلقة على مكان بارز على الجدار، كأنه يخشى أن يسمع الشاه ما يقوله.

أخرجت من حقيبتي دفتراً صغيراً وبدأت أرسم عليه. ثمّ غيّرت جلستي ونظرت إلى الخارج من النافذة. كان هناك شحرور يقفز على سعف إحدى أشجار النخيل، يتوقف للحظات ثمّ يبدأ من جديد. وأسرعت سحلية بالزحف حول جذع نخلة أخرى. وسمعت ضجة قطار، فبدأت أتخيّل بأنني على متنه، عائدة إلى طهران.

عدت بعد المدرسة إلى المنزل سيراً على القدمين، في شارع خلفي لأتجنب الفتيات اللاتي كن يمشين معاً في جادّة بهلوي.

اقتربت من المنزل، ووجدت البابين الخشبيين مفتوحين. دخلت من الباب المؤدي إلى الفناء، على أمل أن أجد مريم هناك، تجلس مع محترم، وتحدثها عن استردادي. لكنني لم أجد أحداً.

صعدت الدرج إلى الطبقة الثانية، نظرت حولي، ولم أجد أحداً هناك أيضاً. دخلت إلى غرفتي وجلست على السرير وأنا في حالة من الحيرة. ماذا سيحصل؟

بعد لحظات دخل والدي وقال، "ستلتقط صور لنا جميعاً. يمكننا أن نرسل واحدة إلى خالتك".

انضمت إلينا محترم. وضعت بعض الملابس على السرير وقالت، "تبدين متعرّقة، اذهبي واغتسلي أولاً ثمّ ارتدي هذه الثياب".

أخذت الملابس ونزلت إلى الحمام. كانت أرضه ومنطقة الاستحمام مكسوة بالبلاط الأبيض. كانت مريم في الفترات التي تفصلنا عن الذهاب إلى الحمامات العامة تساعدني على الاستحمام في حوض تضعه لي على أرض المطبخ المكسوة ببلاط أخضر. وتستعمل قطعة من القش المحاك لتفرك بها جسمي بعد أن تغطها في الصابون. وكانت تغسل شعري بصابونة أخرى. ثمّ تشطف جسمي بماء دافئ تسكبه من إبريق وتلفني بمنشفة كبيرة ناعمة، وتبقيني دافئة. لكن كل شيء في هذا المنزل كان بارداً. خرجت من تحت الدش ونشّفت نفسي بالمنشفة، ثم لبست الثياب التي أعطتني إياها محترم. ناسبتني الثياب جيداً، لكنها لم تكن ثيابي.

كان أشقائي ووالدي ومحترم يقفون على الشرفة، وهم يرتدون ملابسهم استعداداً للصورة, وقف شاب خلف منصب الكاميرا، عابثاً بفيلم الكاميرا. أمسكت باري بيدي وطلبت مني أن أقف بجانبها. وغيّرنا أماكننا عدة مرات وفقاً لاقتراحات المصور. جاهدت لأبتسم لكنني لم أستطع. تبادل والدي الكلام مع المصور بعد أن فرغ من مهمته، ثم حمل منصب الكاميرا وذهب. وتفرّق الأولاد كل إلى غرفته.

دعاني والدي في وقت لاحق من تلك الليلة إلى غرفة الطعام لتناول العشاء. كان هناك ضيوف على العشاء، وهم أصدقاء لوالدي. جلست معهم إلى الطاولة، في حين أحضرت محترم وعلي الطعام - سمك أبيض وكورش الضأن، والأرز المنكّه بالزعفران. كان الضيوف رجلين وزوجتيهما وأولادهما. فتاتان مع الزوجين الأولين، وفتاة واحدة مع الزوجين الثانيين.

تحدّث والدي مع الرجلين عن توسّع الأهواز، وازدهار صناعة النفط، عماد الاقتصاد. وقالوا إن الأهواز بحقول نفطها الضخمة وأنابيبها، مركز رئيسي للتوريد والتوزيع.

قال أحدهما وهو يهز رأسه، "لكن معظم المال يذهب إلى جيوب الفنيين الأميركيين والبريطانيين".

وقال الرجل الآخر بصراحة، وهو يلوّح بيديه في الهواء، "أجل، إنهم يأتون إلى هنا من أجل العمل الذي توفّره حقول النفط. المصانع، والمنشآت، وتوزيع النفط إلى سفن الشحن المرسلة إلى خورمشهر ومصفاة النفط في عبادان. لماذا لا يستطيع رجالنا القيام بهذا العمل"؟

فقال والدي، "أنت تعلم يا عزيزي الآغا، بأننا لا نملك عدداً كافياً من الفنيين الأكفاء".

أشار الأول قائلاً، "يمكن أن يصرف كل المال المتأتي من النفط على أشياء نافعة كالعناية الطبية".

تحدّثت محترم مع النساء عن الحرارة والغبار، والذباب، والأسعار المرتفعة لكل شيء، وكيف أنها تفتقد أهلها في طهران. كانت المرأتين الأخريان مثل محترم، تضعان مساحيق التجميل، وترتديان الثياب المستوردة. لم تركّز النساء في أحاديثهن على الأمور الدينية كما كانت تفعل مريم ونساء الحيّ، ولم يتحدثن أيضاً بالمواضيع التي كان والدي والرجلان الآخران يتحدثون عنها. صحيح أنهن لم يتحجبن أمام الرجال، لكنهن لم يشاركنهم في الحديث، وكأنهن في عالم مختلف. أما الفتيات الثلاثة، اثنتان منهما أكبر مني بقليل، والثالثة أصغر مني بقليل، فكن يرتدين تنانير مكسّرة وأحذية جلدية مصقولة لماعة وجوارب بيضاء. كنت أنا، ووالديَّ، وشقيقاتي لا نزال نرتدي الثياب التي تصوّرنا فيها. كان والدي والرجلان الآخران يرتدون البدلات وربطات العنق على الرغم من حرارة الطقس. ولم تساعد مروحة السقف، التي تعمل بأقصى طاقتها، في تلطيف الجو.

بقيت الفتيات الثلاث وأمهاتهن يحدقن بي، ربما في محاولة منهن إلى معرفة لماذا لم أكن جزءاً من العائلة حتى الآن. فقالت محترم، "كانت ناهيد تعاني من المرض والهزال، ورأينا أن طقس طهران الأكثر اعتدالاً سيكون مناسباً لها أكثر".

كان هذا التفسير الذي أعطاه والدي للمديرة. وشعرت بالخزي من

اضطرار والدي ومحترم إلى تبرير غيابي عنهم طوال هذه المدة للجميع.

قالت محترم أخيراً، " لقد كانت شقيقتي بأمس الحاجة إلى طفل".

فقالت إحدى المرأتين، "لا بد أنك سعيدة جداً باستعادة طفلتك".

قالت محترم بصوت يخلو من العاطفة، "أجل، لقد اشتقت إليها كثيراً".

كنت أعرف أنها تكذب.

توجه والديَّ إلى الشرفة ليتكلما معاً، بعد ذهاب الضيوف. وفيما كنت أستعد للنوم، سمعت محترم تقول، " إنها طفلة أختي، ومن الظلم أن نأخذها منها".

"لقد أعطيتها لشقيقتك لفترة قصيرة فقط، هذا كل ما في الأمر. الأمر لمصلحة ناهيد. يجب أن تفهم شقيقتك ذلك".

تلا ذلك صمت مطبق ثمّ وقع أقدام تذهب في اتجاهين مختلفين.

الفصل الخامس

"ناهيد، ناهيد". كانت مريم تجلس على الكراسي المصنوعة من الأغصان المجدولة على شرفة محترم. مر يومان فقط منذ أُخذتُ من المدرسة، لكنهما بديا دهراً. كانت ترتدي فستاناً كحلياً حريرياً عليه زهور زرقاء، وهو أحد فساتينها المميزة. وقد خلعت الشادور لعدم وجود رجال حولها، وشعرها منسدل على كتفيها.

قالت بصوت مختنق، "ناهيد، ناهيد، لقد أخذك مني". ثم نهضت وضمتني إليها. شممت رائحة بشرتها المعطّرة بماء الورد وشعرت بحبها العظيم لي.

أتت محترم من المطبخ وجلست معنا. وبدا عليها التوتر والعصبية.

قالت لها مريم متوسلة، والدموع تغرورق في عينيها، "أرجوك أن تتحدثي مع مانوشهر خان. وأن تجعليه يفهم. ليس من الصواب أن يأخذها مني".

فقالت لها محترم بعد تردّد قصير، "لو أنه يستمع إليّ فقط. لا تقلقي، إنها لا تزال طفلتك، لن أسرق قلبها منك".

آلمتني كلمات محترم، لكنها أراحتني في الوقت نفسه. لم تكن محترم تقدّرني، لكنها تريد أيضاً أن تسترجعني مريم.

وتابعت محترم قائلة، "لا تظني يا عزيزتي بأنني لست شاكرة لك لكونك أختاً طيّبة معي طوال حياتي".

بدأت مريم بالنحيب وهي تقول، "لديك كل شيء، زوج يوفّر لك الراحة،

وقد باركك الله بالبنين. ماذا لدي أنا؟ لا زوج، ولا قدرة لي على إنجاب الأولاد. إن رحمي ملعون".

عانقتها وطوّقتها بذراعي وأنا أحاول كبح دموعي.

فقالت محترم، "لك الله يا حبيبتي. لكن أحد عملاء مانوشهر يبحث عن زوجة. إنه ليس صغيراً في السن، لكنه لطيف وغني جداً. وهو يعيش في خورمشهر. وقد طلب مني مانوشهر أن أخبرك عنه".

قالت مريم، "لقد دفنت رجلاً عجوزاً، ولا أريد المزيد من الصداع".

"يمكنه أن يمنحك أطفالاً".

"لم يعطني زوج الأول أي طفل. كيف يستطيع الآخر ذلك"؟

"سيكون لديك من يهتم بك".

هزّت مريم رأسها وأدنتني إليها.

وددت أن تتركني محترم بمفردي مع مريم. فقد كان من الصعب عليّ أن أظهر حبي لمريم وأنا أشعر بالاستياء من محترم.

أجفلت مريم وفجأة تناولت شادورها وغطت نفسها. كان والدي قادماً باتجاهنا. وكان بوسعي أن أرى وجه مريم يكفهرّ وهو يقترب منا.

قال لمريم، "أهلاً بك. أنت في منزلك".

واصلت مريم النظر إلى الأرض ولم تقل شيئاً وابتعد دون أن يتبادلا أي حديث آخر.

دعا علي محترم إلى المطبخ. وعندما ابتعدت نظرت إلى مريم وقلت، "أعيديني معك".

فقالت، "لقد جئت لهذه الغاية، أريد أن آخذك معي. البيت موحش من دونك".

بقيت مريم ثلاثة أيام أخرى. وكلما عدت من المدرسة كنت أسألها هل سأعود معها. وفي يومها الأخير قالت، "لقد سألت محترم والدك، وتوسلتُ

إليه، لكنه رفض. اجمعي كل أغراضك، سنستغل فرصة عدم وجود أحد ونذهب".

وضعت القليل من أغراضي في حقيبتي المدرسية وتوجهنا إلى الخارج. وما إن أصبحنا في الفناء حتى فُتح الباب الخارجي ودخل والدي من الشارع. ألقى التحية على مريم، وعندما شاهد الحقيبة الصغيرة في يدها، قال، "سأوصلك إلى المحطة".

جمدت مريم ولم تنبس ببنت شفة. وصمتّ أنا أيضاً. شعرت بتيار مظلم يربطني بها، كأننا علقنا في الكابوس نفسه.

قال والدي بحزم، " لن تأخذيها معك".

أخيراً قالت مريم بصوتها الحيي، "إنها طفلتي، كيف تأخذها مني".

"إذا كنت تحبينها فيجب أن تعرفي بأنّ من الأفضل لها أن تبقى هنا. فهي تحتاج إلى أب يرعاها".

دخلت مريم الفناء. فتوسلت مريم أختها ثانية كي أعود معها. لكن محترم لم تقل شيئاً هذه المرة.

قلت لمريم، "إبقي هنا معي".

نظرت مريم إلى أختها. لكن محترم لم تشجعها خوفاً من مشادّة أخرى بين مريم ووالدي. بدت متوعكة وحزينة.

قال والدي لمريم، "تعالي معي. السيارة في الخارج، وسيوصلك السائق إلى المحطة".

قلت لمريم، " سأخرج معك لأودّعك". كنت آمل أن يغيّر والدي رأيه في آخر لحظة ويسمح لي بالذهاب معها.

قال والدي، "لا تتحرّكي من مكانك"، ثمّ التفت إلى مريم وقال، "هيا بنا مريم هانم".

قبّلتني والدموع تنهمر على وجنتيها. وبدأت أنا بالبكاء أيضاً. لكن والدي لم يتأثر.

أسرعت إلى الشرفة التي تحيط بالطبقة الثانية عندما ذهبا، وراقبت سيارة الليموزين الزرقاء وهي تشق طريقها بتعرج بين الزحام وتتوارى.

في وقت لاحق من بعد ظهر ذلك اليوم، جاء والدي إلى غرفتي وأخذني من يدي إلى محترم. كانت على الشرفة مع علي، يسحقان الثلج لاستكمال ما صنعه البرّاد.

قال والدي، " قولي 'أحبك يا أمي' ".

لم أقل شيئاً.

"اسمعيني"، قال والدي وتقلّصت عضلات وجهه وعلا صوته فوق صوت قطع الثلج التي كان علي يضعها في دلو، فيما وقفت محترم تحدق في الفراغ.

قلت، "أريد أن أعود إلى أمي".

فقال، "هذا بيتك. هيا، قولي 'أحبك يا أمي'، وسيصبح كل شيء على ما يرام". ثم أمسك بيدي، "هيا، قوليها".

سحبت يدي وركضت إلى غرفتي.

سمعت والدي يقول لمحترم، "إنها هنا لتبقى".

"لا يمكننا أن نعذّب مريم هكذا".

"يمكنك أن تطلبي منها أن تأتي وتمكث معنا قليلاً".

"لن تشعر بالراحة هنا".

زارتنا مريم ثانية بعد عدة أشهر، ورافقتها جدتي هذه المرة. كانت عزيز تجلس وحدها على الشرفة وهي تحمل مسبحتها ذات التسعة والتسعين خرزة عنبرية والشرّابة الصفراء، وتردد، "الله، الله". بدت مختلفة جداً عن السنة الماضية، عندما زارتني ومريم في طهران. كأنها شاخت فجأة، ابيضّ كل شعرها تقريباً وظهرت التجاعيد العميقة على وجهها. نهضت وتعانقنا بقوة.

ثم قالت، "مريم في غرفتك، اذهبي لرؤيتها".

وجدت مريم تجلس على فراش في ركن غرفتي، وتحدق في الفراغ. كان شعرها غير ممشط وأشعث. نهضت وأخذتني بين ذراعيها، وشدت علي. وعندما جلست معها شعرت بذلك التيار الداكن ثانية.

"هلا تأخذينني إلى النهر وتغرقينني".

غمرني شعور بالحزن وإحساس بالعجز. توسلت إليها وأنا أمسك بيدها، "أرجوك لا تقولي ذلك، أرجوك، أرجوك".

أخبرتني عزيز لاحقاً عن حالة مريم، "وجدتها تجلس على حافة خزان المياه وتحدّق فيه. كان عليّ أن أذكرها بأن قتل النفس خطيئة. أردت أن آخذها إلى المستشفى لكنها توسلت إليّ ألا أفعل. فأحضرت طبيباً وأعطاها حقنة، شعرت بالتحسن قليلاً لكن ما لبثت حالها أن ازدادت سوءاً. أعطاها الطبيب حبوباً أيضاً، لكنها ترفض تناولها". قالت عزيز بأنها وضعت أعشاباً برية في طعام مريم، وعلّقت بفستانها خرزاً فيروزياً، وأحرقت الإسفند في الغرفة، لكن لم يجد أي من ذلك نفعاً.

توسّلت عزيز هذه المرة والدي لكي يسمح لي بالعودة معهما والعيش مع مريم ثانية، لأكون طفلتها، لكن والدي رفض ذلك رفضاً قاطعاً.

قال لها، "أنت بمثابة والدتي. وتجلبين البهجة لمنزلنا. يجب أن تعتبري أنت وابنتك العزيزة مريم أن هذا البيت بيتكما ويمكنكما البقاء هنا قدر ما تشاءان. لكنك لا تستطيعين أخذ ابنتي ثانية".

كان من الواضح أنني هنا لأبقى. وبدأ الأمل يخبو في نفسي شيئاً فشيئاً.

كلما فكرت في البيت الذي خسرته، شعرت بشيء ثقيل يضغط على صدري. فأسعل حتى يحمرّ وجهي وتغرورق الدموع في عيني. كان ذلك يحدث طوال الوقت في الليل والنهار.

أخذني والدي أخيراً إلى الطبيب، رجل قليل الكلام في منتصف العمر ذو صوت سلطوي. سألني الطبيب بضعة أسئلة وفحص أذنيّ وحنجرتي.

قال الطبيب لوالدي بعد أن فرغ من فحصي، "إنها لا تشكو من شيء. كل ذلك من الأعصاب".

عندما خرجنا قال لي والدي، "لقد سمعت الطبيب، ليس هناك سبب حقيقي لسعالك. إذا حاولت الاسترخاء والنظر إلى أمك على أنها أمك الحقيقة، فستتحسن حالك". أخذني إلى مقهى قريب من عيادة الطبيب وطلب "فالوت"، وهو المثلجات الممزوجة بقطع الفاكهة. قال، "بإمكانك أن تملئي الفراغ الذي تركته منى في قلب أمك وقلبي، لو أنك تحاولين ذلك فقط".

تذكرت مريم وشقيقاتها عندما تحدثن بصوت حزين جداً عن طفلة محترم ذات الشعر الأجعد التي أحضرتها معها في إحدى زياراتها. أصيبت منى بالملاريا، والحمّى، واصفرّ لون بشرتها وماتت. تجدّد حزني عندما فكرت بموتها. لكن سرعان ما شعرت بثقل في قلبي، لقد كان والدي يحمّلني ما بدا مسؤولية مستحيلة، أن أملأ الفراغ الذي تركته منى في حياتهما، وبخاصة في حياة محترم. لقد خسرت محترم ابنة وربما خسرت مريم ابنة بسبب ذلك. كان الأمر أسوأ من موتي. كنت أنا ومريم ملتصقتين معاً والآن سأكبر هنا في الأهواز، في بيت والدي بعيداً عنها. هل يمكن أن تنسى إحدانا الأخرى؟ قال لي والدي في اليوم الأول أيضاً عندما مشى معي إلى المدرسة بأنني بلغت التاسعة من العمر وأحتاج إلى إشراف. ربما لم أبلغ بالحقيقة كاملة. ثمة أشياء لم يطلعني عليها أحد.

شرح والدي ما جرى لمحترم في البيت، "قال الطبيب إن كل ذلك بسبب الأعصاب".

فقالت محترم بذهن مشوش، "توقّعت ذلك".

تردّدت كثيراً على عيادة الطبيب في الأشهر التالية. فثمة جراثيم في الأهواز ليس لدي مناعة ضدها. أصبت بالتهاب في عيني أدى إلى تورم جفني، والتهاب في أذنيّ أضعف سمعي مدة من الزمن، وظهر دمل كبير في ظهري مصحوباً بحمى. وكانت محترم تطلب من والدي دائماً أن يأخذني إلى هذه المواعيد.

حاول والدي أيضاً أن يجعلني آكل أكثر. كان يقول لي وهو يواصل

وضع الطعام في طبقي، "إنّك تجوّعين نفسك". لقد خسرت الكثير من الوزن منذ وصولي إلى الأهواز، كنت حزينة جداً وقلقة بحيث فقدت الشهية، كما أنني افتقدت طبخ مريم. كانت محترم تشرف على علي وهو يعدّ الطعام - سمك أبيض عادة، مدخّن أو طازج، وكورش مقدم مع الشبث والفاصوليا الليمية، وأرز، وبعض الأطباق التي كانت مريم تصنع مثلها. لكنها لم تكن بنفس المذاق اللذيذ. فالطعام الذي كانت تعده مريم وحميدة وعزة سادات أشهى لأنهن يستعملن الخليط الصحيح من التوابل.

كان والدي شديد الاهتمام بي، لكنني لم أستطع التقرّب إليه. كان لديه سلطة قوية عليّ. فقد غيّر بمفرده مسار حياتي. كان صارماً، وعلى الرغم من اهتمامه بي ينتابه الغضب الشديد ويوجّه لي الانتقاد لأنني أخطئ في كل شيء.

كنت جالسة في غرفتي ذات يوم عندما دخل والدي فجأة. أخذني من يدي، وقادني إلى محترم التي كانت تجلس على الشرفة تتصفح إحدى مجلات الأزياء. كانت تحتوي على آخر صيحات الموضة في أوروبا وأميركا على الرغم من كونها باللغة الفارسية.

قال والدي، محاولاً معي ثانية، "قولي لها 'أحبك يا أمي'".

شغلت نفسي بالأصوات القادمة من الخارج - صوت حركة المرور الممزوج بأصوات الباعة المتجولين الذين يروّجون بضائعهم في الساحة.

رفعت مريم نظرها عن المجلة وحدّقت بي.

سحبت يدي من يد والدي. وفيما كنت أهمّ بالذهاب، صفعني على وجهي قائلاً، "فتاة عنيدة".

ركضت إلى غرفتي وأغلقت الباب. أردت أن أصرخ، "أكرهك"، لكن حنجرتي خذلتني. نظرت إلى نفسي لاحقاً في المرآة الصغير المستطيلة المعلقة على الحائط. كانت آثار يده لا تزال واضحة على وجهي.

كان بيتي الجديد فوضوياً، مليئاً بخليط متضارب ومشوّش من العادات والقيم الاسلامية/الإيرانية التقليدية وتلك الغربية. لم يكن أحد منا يصلي، أو يرتدي الحجاب، أو يصوم. لكن والديَّ يؤمنون بعدم وجوب اختلاط الفتيات الفتيان إلى أن يتزوجوا وفقاً للشرع، وأن الزواج يجب أن يرتّبه الوالدان، وأن الفتيات غير المتزوجات يجب ألا يلفتن نظر الشبان بوضع مساحيق التجميل أو ارتداء الألوان الصارخة، وأن التعليم للذكور فقط. إذ يجب أن تتزوج الفتيات عندما يأتي الرجل المناسب. كان التوتّر الناتج عن رغبة مكبوتة يملأ المنزل، رغبة من أي نوع، في مزيد من الملابس، وفي أنواع أخرى من الملابس، وفي قول أشياء معينة، وفي التواجد مع شخص معين.

عكس مزيج القيم في المنزل صورة المزيج المتفشي بين أهل الأهواز. فسكان الأهواز خليط من الحديث والتقليدي، إذ يتكوّنون من بضعة آلاف من الأميركيين والبريطانيين، ونحو سبعين ألفاً من الإيرانيين، وبضع مئات من العرب، معظمهم من المهاجرين من العراق. كان هناك عداء كبير بين سكان المدينة ذوي الآراء المتناقضة. فهناك إيرانيون محافظون وإيرانيون شبه غربيين، مثل والديَّ. وهناك الأميركيون والبريطانيون الذين يعملون في شركات النفط، ناهيك عن المهاجرين من العرب السنّة (وسط الإيرانيين الشيعة). لم يكن الاختلاط بين هؤلاء سهلاً. وفيما يقف الناس بالصف أمام إحدى دور السينما التي تعرض أفلاماً أميركية، كان المسجد في الجهة المقابلة من الشارع يبث عظة تحذر الناس فيه من الملذات الدنيوية كمشاهدة الأفلام. كانت الرومانسية ممنوعة، ومع ذلك فإنّ الأغاني الرومانسية تصدح دائماً من أجهزة الراديو.

الشاه نفسه سمح ببعض الأشياء دون الأخرى، إذ كان عالقاً بين الضغوط الأميركية ومعارضة رجال الدين للتغريب. وكان لتحالفه مع الولايات المتحدة جذور عميقة فيما حدث سنة 1953. فقد كان مصدّق، رئيس الوزراء في ذلك الوقت، منزعجاً من الأرباح العالية التي يجنيها البريطانيون المتحكّمون بصناعة النفط. فحاول القيام ببعض الاصلاحات. وقاومه البريطانيون. لم تتمكّن بريطانيا من حل المسألة بمفردها، فلجأت إلى الولايات المتحدة لتسويتها. بدا لوكالة الاستخبارات المركزية الأميركية (السي آي إيه) أنّ مصدّق شيوعي وربما

أمي وأبي

يقود إيران باتجاه المحور السوفياتي فيما ترتفع المخاوف من الحرب الباردة. تلا ذلك صراع داخلي بين الشاه ورئيس الوزراء، بلغ ذروته في هروب الشاه من إيران. وبمساعدة من وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية، استرجع الشاه عرشه وقبض على رئيس الوزراء (عملية أجاكس). وتوصل الشاه بعد ذلك إلى اتفاق مع شركات النفط العالمية يقضي "بإعادة ضخ البترول الإيراني إلى الأسواق العالمية بكميات كبيرة". لكن صار الأميركيون الآن يتحكّمون بصناعة النفط، عوضاً عن البريطانيين، بسبب دورهم الكبير في مساعدة الشاه في استعادة عرشه. بل إنّ أميركا ساعدت في تشكيل السافاك، شرطة الشاه السرية القوية.

ولتذكير الناس بسلطة الشاه، عرضت صوره في كل الأماكن العامة، في المدارس، والحدائق العامة، والساحات، والمكاتب. وشجّع الحرفيون على حياكة صوره على السجادات الصغيرة و أقمشة التنجيد، وكان وجهه بالطبع منقوشاً على النقود المعدنية وفواتير التومن.

كان المزيج نفسه من الناس والقيم موجوداً في طهران، لكنها مدينة كبيرة كبيرة جداً بحيث لم يبدُ لي التوتر بهذه الحدة.

الفصل السادس

مرت أسابيع ولم أتسلّم أي رسالة من مريم، على الرغم من أنني كنت أكتب لها أسبوعياً، وأحياناً يومياً. كانت الأخبار الوحيدة التي عرفتها عنها القليل مما سمعته من الحوارات بين والدي ومحترم. كان اكتئاب مريم يتسلل في نقاشهما كخيوط مظلمة.

كنت مستلقية على سريري أبكي عندما طرقت باري الباب ودخلت. قالت لي وهي تطوّقني بذراعها، "تعالي معي، أريدك أن تري غرفتي". جفّفت عيني وتبعتها. كانت غرفتها تقع بين غرفتي وغرفة مانيجة في الممر الذي يضمّ غرف أخويّ ووالديّ.

قالت، "ما زلت أذكر عندما أخذتك عزيز. كنت في الخامسة من العمر تقريباً، لكن الذكرى ما زالت محفورة في ذاكرتي لأنني افتقدتك كثيراً. مسكينة خالتي مريم لأنها خسرتك، لكنني سعيدة باستعادتك".

فتحت باري ألبوم صور ذا غلاف جلدي أحمر. قالت، "هؤلاء نجوم السينما الأميركية"، وأشارت إلى كل صورة وعرّفت بالنجوم. "إليزابيث تايلور، بول نيومان، مارلين مونرو، كيم نوفاك، إيفا غاردنر، مونتغمري كلفت". ثمّ أشارت إلى ملصق معلّق على الحائط وقالت، "هذه جودي غارلاند، إنّها المفضلة عندي".

كانت باري ترتدي فستاناً أبيض عليه ورود صفراء وحمراء، وشعرها مشدود إلى الوراء بعقدة بيضاء. دُهشت عندما لاحظت أنها نسخة شابّة عن الممثلة التي في الملصق، الوجه نفسه المليء بالتعابير والنابض بالحياة.

قالت بحماسة، "أريد أن أكون ممثلة، إذا سمحوا لي بذلك".

وبدأت تخبرني عن بعض الأفلام الأميركية التي شاهدتها. كان عنوان أحدها، "مكان تحت الشمس"؛ كانت صور إليزابيث تايلور ومونتغمري كلفت الموجودة في ألبومها مأخوذة من ذلك الفيلم. قالت، "إنه يروي قصة مثلّث حبّ مشؤوم. رجل وامرأة من طبقتين اجتماعيتين مختلفتين يقعان في الحب. وتدفع امرأة بسيطة مغرمة به الثمن".

باري

لم أذهب إلى السينما البتة. كانت القصص التي ترويها باري مختلفة جداً عن المسرحيات الحزينة التي أخذتني مريم إليها - وهي إعادة تمثيل

درامية للمعركة التي أدّت إلى مقتل حفيد النبي، الحسين. كانت آخر مسرحية شاهدتها في باحة مدرسة للصبيان، غير بعيدة عن بيتنا. واضطررت في تلك المناسبة إلى ارتداء الشادور، إذ لا يُسمح بالدخول بخلاف ذلك. وتطبّق القاعدة نفسها على المساجد، حتى بالنسبة للفتيات الصغيرات في الثامنة من العمر، وهو سنّي في ذلك الوقت. كان الإنتاج متقناً، جمال حقيقية ومحاكاة جيدة لمشهد ساحة المعركة. وقد أشعلوا النار في دمية تمثّل عمر، مصنوعة من المناديل الورقية. ولعنوا يزيداً، واتهموه بأنه مدمن خمر خالف قواعد الإسلام.

روى الممثلون خلال الحوار قصة النبي محمد. ولد محمد نحو سنة 570 بعد الميلاد (لا يعرف أحد التاريخ المحدد). ربّاه جدّه وعمه، لأنه فقد والديه في سنّ صغيرة. كان يذهب كثيراً للتأمل في كهف في الصحراء، يبعد ثلاثة أميال عن مكة. كان نائماً في جبل حراء عندما نزل عليه من السماء الملاك جبريل ليوحي له بالرسالة. كانت تتكوّن من كلمة واحدة، "اقرأ". فسأل محمد، "ماذا أقرأ"؟ قال جبريل، ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق﴾. وهكذا، ملئ محمد بالجلالة الإلهية. دوّن ما أوحي له به وأصبح القرآن الكريم. كان القرآن وحياً مباشراً من الله. عندما أبلغ محمد زوجته خديجة بذلك قالت له، "أنت لا تكذب البتة". وأصبحت خديجة أول من اعتنق الإسلام. دعا محمد إلى الإسلام فاعتنقه الناس بسبب رحمته وسلوكه وقوة الفضيلة الإلهية.

أعادني صوت باري إلى الحاضر. "سأطلب من محترم أن تأخذنا لمشاهدة فيلم أميركي. لن يدعنا والدنا نذهب وحدنا".

●

في بعد ظهر أحد الأيام أخذتني باري من المدرسة وذهبنا إلى نهر قارون الذي يمر وسط الأهواز. خلعنا أحذيتنا ومشينا حفاة على الرمل الرطب. وفيما كنا نمشي كانت تتناهى إلى مسامعنا أصوات الفتيان العرب الذين يملكون قوارب التجذيف ويؤجرونها وقد اختلطت أصواتهم بصوت هدير المياه. مررنا ببيوت الطين والقش التي يسكنها الصيادون الفقراء، وبصفوف من أشجار

النخيل الباسقة التي تكاد تلامس السماء. كانت المياه ملوّثة بالأسود من آثار النفط، لكن السماء صافية زرقاء. وقد تناثرت الأصداف على الرمل. فالتقطنا بعضها الملوّن بالبرتقالي والزهري، وغسلناه، وانتظرنا حتى تجف، ثمّ وضعناها في حقيبتينا المدرسيتين.

غادرنا ضفة النهر وتوجهنا إلى الدكان الذي يبيع صور الممثلين والممثلات في جادّة بهلوي لكي تشتري باري مزيداً من الصور لألبومها.

" ليس هناك الكثير من المعالم في هذه المدينة، النهر فقط، والحديقة العامة، والمحلات والمطاعم في جادّة بهلوي. وهناك نادٍ ليلي أيضاً، لكنه للرجال فقط. وفيه يشربون ويشاهدون الراقصات الشرقيات. يرتاد والدي ذلك المكان، وكذلك سايرس وبرويز في بعض الأحيان. فبوسع أخوينا أن يسهرا خارج المنزل حتى ساعة متأخّرة، ويفعلا ما يريدان".

"إنّهم غائبون عن المنزل دائماً".

"أشعر بالامتنان لوجود دار واحدة للسينما تعرض الأفلام الأميركية مع ترجمتها. فدار السينما الأخرى تعرض أفلاماً إيرانية تحاكي الأفلام الأميركية بشكل رديء. كم أتمنى أن نذهب إلى السينما دون مرافقة أمي الدائمة".

"هناك الكثير من الأشياء التي يمكن أن نفعلها في طهران. لكنني بصراحة لم أغادر حيّنا إلا نادراً. إنني تعيسة يا باري، أنا مشتاقة جداً لمريم".

طوّقت خصري بذراعها وقالت، "يمكنك الاعتماد عليّ دائماً. أعرف كم من المحزن أن يفرّق بينك وبين مريم على هذا النحو". توقّفت بالقرب من أحد الدكاكين وقالت، "دعيني أشتري لك شيئاً. أريد أن أشتري لك شيئاً". دخلنا الدكان. كان يبيع مجموعة متنوعة من الإكسسوارات. سألتني ماذا أريد. أشرت إلى مشط مصنوع من صدفة السلحفاة فاشترته لي.

أخذتني بعد ذلك إلى مقهى "كافيه دو بارك" في منتزه مللي. جلسنا إلى طاولة تحت ظل شجرة وقدّمت لي الليموناضة والمعجنات.

في طريق عودتنا مشينا في الطرقات الخلفية الأبرد التي تصطف على جانبيها البيوت المبنية من الطوب والحدائق المليئة بأشجار النخيل. وعندما وصلنا إلى البيت كان الظلام قد حلّ.

عند دخولنا قال والدنا، "باري، ناهيد، الا تعلمان أنكما يجب أن تكونا في البيت قبل حلول الظلام؟ هذه هي المرة الأخيرة التي تتأخّران في العودة إلى البيت".

كان والدي قد استقال من منصبه كقاض مؤخّراً وأصبح يمارس عملاً خاصاً كمحام. صار يقوم ببعض أعماله في المنزل الآن، في مكتبه، أو في أحد الصالونين، وكلا الغرفتين قريبتان من غرف النوم. كان يخرج من مكتبه دورياً للإشراف، وسؤال محترم عن شؤون المنزل، ويفرض علينا الانضباط. ويأمر وينتقد.

كان يقول مثلاً، "محترم هانم، متى ستتعلمين إدارة شؤون المنزل جيداً؟ لنأخذ الطريقة التي تتبعينها في التسوّق. إما لا يكون لدينا ما يكفي من الفاكهة وإما أن تكون فائضة على الحاجة؛ الشرفة مليئة بزَرْق الحمام، ألا يمكنك على الأقل أن تطلبي من علي تنظيفها؟ أو أن تحضري فاطمة للمساعدة؟ أنت امرأة ناضجة الآن، لم تعودي الفتاة الصغيرة التي تزوجتها". وبعد ذلك تصبح نبرته أكثر لطافة فيضيف، "أتذكرين ليلة زفافنا، عندما اضطررت لرفعك عن الأرض ووضعك في العربة التي أقلتنا إلى الفندق"؟

"علي، علي، توقّف عن التحديق في الحمام وأدّ عملك". غالباً ما كان علي يجلس في غرفته في الطبقة الأولى ويرمي البذور على الأرض للحمام.

"ناهيد، حان الوقت لكي تكتسبي بعض الوزن".

"مانيجة، لا تتعلّقي بأمك طوال الوقت".

"كم مرة يجب أن أنبّهك يا باري بأن لا ترتدي هذا الفستان الأحمر؟ اذهبي واخلعيه حالاً".

لم يكن ينتقد أخوينا البتة، على الأقل ليس أمامنا نحن الفتيات.

لم يكن والدي يتواجد في البيت في فترات المساء، وكان ذلك يريحنا، ربما باستثناء محترم التي كانت تتذمر قائلة، "هو يخرج إلى النادي الليلي مع أصدقائه ويشربون العرق ويتفرجون على الراقصات الشرقيات وأنا عليّ أن أبقى في البيت".

فيما كنت أنا وباري نمضي مزيداً من الوقت معاً، اتخذت مانيجة، التي كانت تعاملني ببرود منذ وصولي، موقفاً عدائياً تماماً مني. كانت الشقيقة الوحيدة التي تنادي محترم ماما؛ فيما الآخرون ينادونها أمي، وأنا لا أناديها بشيء. كنت إذا اضطررت إلى التحدّث إليها أقف أمامها إلى أن تنظر إليّ فأخبرها بما أريده عندئذٍ. لم أخاطبها بشكل مباشر قط.

قالت مانيجة متباهية بفستانها الجديد بعد ظهر أحد الأيام فيما كنت أمرّ بقربها على الشرفة، "أحضرت لي ماما هذا". كان الفستان من الكتان الأبيض المطبّع بالكرز الزهري والأصفر. فجأة شدتني من شعري بقوة جعلت الدموع تطفر من عيني. وقالت، "لم تتألمي حقاً. لم أكد ألمس شعرك. لا تتعبي نفسك بالذهاب إلى ماما لتشتكيني، فلن تستمع لك. لم يكن أحد راغب فيك، لذا تخلوا عنك". تحدّثت على مهل وعيناها تفيضان كراهية.

قلت لها، "أنت طفلة مدلّلة! أنا اكرهك".

ردّت قائلة، "أنا أكرهك أيضاً". ثم صاحت، " ماما، ماما، هل سمعت ما قالته"؟

أسرعت محترم إلى الشرفة، وقالت على الفور، "اعتذري لأختك".

قلت، "إنها هي التي بدأت المشاجرة".

قالت مانيجة، "كاذبة".

قالت لها باري بعد أن خرجت من غرفتها وانضمّت إلينا، "بل أنت الكاذبة".

تدخلت محترم قائلة، " توقفي يا باري، أنت تسيئين معاملة مانيجة منذ أن أتت ناهيد إلى هنا".

صاح والدي من مكتبه، "اصمتوا جميعاً".

ذهبت محترم إلى غرفتها وكذلك فعلنا نحن، فغرفنا هي ملجؤنا من التصادم الدائم على الشرفة. طالما تساءلت عما يتحدث به والدي ومحترم على انفراد في غرفتهما. هل يتبادلان نفس الحديث الذي يتبادلانه في العلن أم يقول أحدهما للآخر أشياء لا يخبرانا بها؟ بديا كالحصن بالنسبة إلي. لأن محترم كانت تنحاز دائماً إلى جانب والدي، لكن ماذا عنهما عندما يختلي أحدهما بالآخر؟ لا شكّ في أنّ محترم غامضة. مسارعتها إلى مساعدة مانيجة عندما طلبت شيئاً. في حين أنّ على باري أن تكرّر طلبها أكثر من مرة قبل أن تعيرها محترم أي اهتمام. أما أنا فإنها تتجاهلني تماماً.

كانت تمتدح مانيجة أمام أي شخص قائلة، "إنها تبدو كالملاك. أليست تزداد جمالاً كل يوم"؟

لكنّها كانت تقول عن باري، "تبدو بصحة جيدة".

وعندي أنّ باري أجمل من مانيجة. صحيح أن مانيجة تبدو جميلة بشعرها البني الأجعد الكثيف، وعينيها العسليتين الفاتحتين، وتقاسيم وجهها المتناسقة، لكن وجه باري يعكس حيوية تفتقر إليها مانيجة. أما عن رأي محترم بمظهري، فلم يكن لدي أدنى فكرة. في لم تبح برأيها قطّ. لكنّني أعرف رأي والدي، "لو أنها ليست شديدة النحافة".

لم يكن والدي يفضّل أياً منا على الأخرى.

كان والدي ومحترم يقدّران ابنيهما ويشجعانهما في كل اهتماماتهما. سايرس يريد أن يصبح مهندساً وبرويز طبيباً. وكان والدي ومحترم يشجعان رغباتهما في السفر إلى أميركا ومتابعة دراستهما هناك.

اعتقد والدي أن ابنيه سيتجاوزان ما قام به هو بنفسه، فقد ورثا ذكاءه وإرادته ولديهما ميزة الدعم المالي الإضافية. كان والدي قد أدخل نفسه بنفسه إلى المدرسة. فقد فقد والده في سنّ مبكّرة. كان والده رئيس بلدية بلدة

صغيرة، وأساءت أمه إدارة المال الذي ورثاه. فعمل والدي للمساعدة في إعالة العائلة وكان يذهب إلى المدرسة في الوقت عينه.

لم نكن أنا وباري نكره أخوينا على الرغم من أنهما يحتلان مرتبة عالية جداً في تراتبية العائلة. لم تكن هناك منافسة بيننا كالتي كانت بين الأخوات. بل إنّنا كنا نشعر في الواقع أنهما أضافا شيئاً لحياتنا بتعريفنا على أشياء معينة.

كان برويز يضع الأسطوانات أحياناً، ويمسك كل منا بدورها، ويقودنا في رقصة التانغو، أو فوكس تروت، ورقصة أبطأ يقول إنها رقصة شعبية في أميركا. وكان يلعب معنا كرة الطاولة على طاولة وضعها والدنا على الشرفة ليلعب هو وسايرس بالتحديد. وكان يمازحني قائلاً إنه وجدني هو وسايرس في بطيخة على ضفة نهر قارون وجاءا بي إلى المنزل لوالدينا. وقد امتدحني لأنني أكثر من القراءة.

أما سايرس فكان أكثر تحفظاً من برويز، ومع ذلك كان يحضر لنا أشياء أميركية من محل قريب من شركة تنقيب عن النفط، حيث كان يعمل عدة ساعات في الأسبوع ليتعلم بعض المهارات استعداداً لكلية الهندسة. كانت تلك الأشياء منتجات منزلية عادية مثل الجلو أو النسكافيه، لكن كنت أنا وباري نشعر بأننا نحصل على قطعة من أميركا، كما نشعر عندما نشاهد الأفلام الأميركية.

الفصل السابع

"مريم أفضل مني بكثير". لست أدري كم م[illegible]ن الوقت قبل أن تقول محترم ذلك لوالدي.

كنت أشاهد مريم مرة أو اثنتين في السنة عندما تأتي لزيارات قصيرة. ما زلت اعتبرها أمي ولكن لم يكن لها الآن أي قرار في مسار حياتي. فكل شيء يعود الآن لأبي. كان الفراق بعد كل زيارة تجربة لا تطاق لكلينا. وكنّا نعتبر مغادرتي المفاجأة اختطاف.

أصبحت باري عزائي الوحيد. كانت سعيدة بي، فالأخت الصغيرة التي فقدتها ذات يوم قد عادت. أخبرتني كم كان يسعدها أن تشاركني بعض الأشياء وأن يكون لها صديقة في البيت، إذ إنّها تشعر بتجاهل محترم لها وبالغضب لأنّها تحابي مانيجة.

لا شك في أن اهتمام محترم الشديد بمانيجة على حسابي وحساب باري كان غريباً ودائماً. ذات ليلة وافقت محترم، بناء على اقترح باري، أن تأخذنا نحن الشقيقات الثلاث لمشاهدة فيلم "العملاق" في سينما جافاني. كانت سينما صحارى تبعد مربعاً واحداً عن منزلنا في جادة بهلوي، لكن سينما جافاني أبعد. فثارت حماستنا أنا وباري لمشاهدة الفيلم وتحدثنا عن ذلك طيلة اليوم.

قالت مانيجة فيما كنا نستعد للمغادرة، "ماما، لا أشعر أنني على ما يرام".

سألتها محترم "بماذا تشعرين يا حبيبتي"؟

"أشعر بصداع".

تحسست مريم جبين مانيجة براحة يدها وقالت، "حرارتك ليست مرتفعة لكن يجب أن ترتاحي. يمكن أن نرجئ الفيلم لليلة أخرى".

قالت باري، "سأذهب أنا وناهيد بمفردنا".

"تعرفين أن والدك لا يسمح بذلك. يجب أن آخذكما أنا".

قالت باري، "تمرض مانيجة عندما تريد أن تجري الأمور على طريقتها".

احمرّ وجه مانيجة ووضعت لسانها بين أسنانها وضغطت عليه.

زجرت محترم باري قائلة، "لا تتحدثي إلى أختك هكذا".

اضطررنا إلى تفويت الفيلم ذلك المساء.

أخذت أنا وباري نتخلف عن دروس بعد الظهر ونذهب سراً إلى سينما جافاني. كان والدي يعطينا مصروفنا بالتدرّج حسب أعمارنا وجنسنا، مع فارق كبير بين مصروف باري وبرويز. كنا نحن الشقيقات نتلقى ما يكفي لنذهب إلى السينما، أو إلى مقهى أحياناً، أو أن نشتري بعض الحاجيات التي نرغب فيها. وكانت باري تدفع عني إذا نفد مني المال.

قليل من الأشخاص يرتادون السينما بعد الظهر في العادة، وكنا نشعر بمأمن من أنه لن يرانا أحد ممن نعرف ويخبر والدينا. كانت مشاهدة الشخصيات الأميركية على الشاشة تسحرنا وتنقلنا إلى نمط حياة آخر. أخذتني باري ذات مرة لمشاهدة فيلم "ولادة نجمة"، حيث لعبت جودي غارلاند دور ممثلة تزدهر حياتها المهنية فيما تتدهور الحياة المهنية لزوجها. كانت باري تشعر بحماسة شديدة للقصة.

قالت باري في أثناء عودتنا إلى البيت، "تستطيع هؤلاء النسوة أن يخترن مهنتهن، وأن يتزوجن من يحببن. أما نحن فليس لدينا أي خيار. الحرية ليست جائزة يعرضها الشاه أمامنا". كانت باري ترتدي الفستان الأحمر الساطع الذي طلب منها والدي ألا ترتديه. شبكت ذراعي بذراعها، راغبة في حمايتها وفي أن تحميني.

عندما رجعنا إلى البيت، كانت محترم ووالدي ومانيجة يجلسون على الشرفة ويتناولون الشاي والمعجنات. أعلنت باري، "أريد أن أصبح ممثلة".

أجابها والدي بحدة، "كفي عن هذا الهراء. ألم أقل لك إن الممثلة ليست سوى عاهرة"؟

سرعان ما اتضح أنّني وباري نعيش في عالمنا الخاص في المنزل. وعلى غرارها، قاومتُ كل الأدوار التي يمليها علينا والدانا والمدرسة والمجتمع بأكمله. كان حلم مانيجة قريباً مما ينتظر منها. فيما يريد شقيقاي الذهاب إلى أميركا للدراسة ثم العودة لوضع ما يتعلمانه في خدمة بلدهما.

أخذت حياتي السابقة مع مريم - كانت تستحوذ علي ذات يوم - تبتعد أكثر فأكثر كلما ازداد قربي من باري وتبنّيت أفكارها واهتماماتها. فقد رأت باري أنّ التزام مريم الديني، "طريقة للتعامل مع كل ما ينقصها في حياتها".

لا شكّ في أنّ ما كانت تقوله مريم والأخريات المحيطات بها، "الحياة الآخرة هي المهمة" هو مجرّد لازمة تقريباً. فكيف يؤمنّ بالله وهو غير عادل؟ كيف يثق أنه سيأخذهم إلى حياة أخرى أفضل؟ فجأة أصبحت هذه الأفكار التي خطرت ببالي بغموض في الماضي أفكاراً راسخة.

كنت في الثانية عشرة وباري في السادسة عشرة، عندما كان شقيقاي يريدان السفر إلى أميركا للالتحاق بالجامعة في صيف 1958. انتظر سايرس تخرّج برويز ليذهبا معاً. بديا كأنهما يمتلكان العالم بعزيمتهما وإحساسهما بالتفوق. كانا يتحدثان معاً بثقة ويعقدان "مؤتمرات" في مكتب والدي. وأحياناً يجلسان معاً يدخّنان سجائر ونستون بإتزان، يحملانها بثقة، وينفثان دخانها بمبالغة.

قال والدي لشقيقي ذات صباح، "كان عليّ أن أدفع مقابل تعليمي، وأن أعمل ساعات طوالاً وأدرس في الوقت نفسه. أنتما محظوظان لأنّ والدكما يستطيع إعالتكما".

قال برويز، "إننا نقدّر كل ما فعلته لأجلنا".

وقال سايرس، "لقد أعطيتنا الكثير".

"سنعود ونضع علمنا في خدمة البلد"، تابع برويز.

وهز سايرس رأسه موافقاً.

فاجاب والدي، "بالطبع هذا ما آمل أن تفعلاه. وبعد ذلك ستتزوجان فتاتين إيرانيتين لطيفتين وسأبحث أنا وأمكما عنهما، وتمنحاننا أحفاداً رائعين".

قال برويز، "نأمل ذلك".

انتقلوا بعد ذلك إلى موضوعات أخرى، أغلبها سياسية. وامتلأ صوت والدي بالتوتر. فانتقد الشاه داخل منزلنا لأنّه منح السافاك الكثير من السلطة. كان بإمكانهم في أيّ وقت، أن يعتبروا أي شخصٍ مذنباً، ويعتقلوه، بل ويعدموه لأنّه تكلّم ضدّ الشاه.

وافق شقيقاي على أنّ من السخافة إعلان عدم قانونية الأحزاب والجمعيات الأخرى، مثل حزب تودة اليساري، والحزب الدستوري، ودعاة الإقليمية، والقومية، وكثيرين غيرهم، في أوقات مختلفة.

استقال والدي من منصبه كقاضٍ لأن الأمر أصبح شديد الخطورة كما قال. فقد حاول أعضاء السافاك أن يُملوا القرارات عليه. واستقال من شركة الأقمشة التي رئسها بعض الوقت، لأنه لم يكن مرتاحاً لظروف العمل، والمزايا الصحية المزرية، والرواتب المنخفضة، ولأنه لم يستطع تحسين ظروف العمال. اشتكى من أنه كان صورة رئيس. فالرئيس الفعليّ هو المسؤول عن المالية، وكان مرتبطاً بالحكومة وعلى والدي أن يتلقى الأوامر منه.

دهشت لأنّ والدي شديد التعاطف مع الآخرين في حياته العامة، بالنظر إلى صرامته معنا نحن الفتيات ومع محترم.

قال برويز، "إن دفة هذا البلد يديرها الشاه وحاشيته، أو لنقل الشاه وأميركا".

سأله والدي، "برويز، هل تتوخّ الحذر في محاضراتك"؟ كان برويز يحاضر في برنامج تثقيف الراشدين في مدرسته الثانوية عن مسائل عامة مثل تدابير حفظ العامة والسيطرة على الأمراض.

"لا تقلق يا والدي، فإنّني ألتزم جانب الحذر".

نهض والدي ليغادر، وكذلك فعل سايرس. أما أنا وبرويز فتريّثنا قليلاً.

قلت، "أتمنى أن أذهب إلى أميركا أيضاً، ذات يوم".

"أرجو ذلك يا ناهيد. أنت أختي المجتهدة".

ثم نهض ليغادر بعد أن ناداه والدي.

كان صيف هذه السنة أشد حرارة من أي صيف آخر، فقد بلغت درجة الحرارة 43 درجة مئوية. وهبت الرياح الرطبة من شط العرب، النهر الواقع على الحدود العراقية، وهو قناة سبخة ملوّثة بالنفط. توفي الشحاذون المتشردون على الطرقات من ضربات الشمس. وذاب الأسفلت وأخذ يلتصق بأحذيتنا. وجلب الهواء الرطب البعوض، فكان علي يرش طارد البعوض باستمرار في كل غرفة.

في أيام الصيف الطويلة الحارة عندما كانت كل لحظة تبدو دهراً، كانت باري الوحيدة التي تجعل الوقت يتحرّك. كنت أنا وباري نغطّس أقدامنا في بركة الفناء للابتراد. لم تكن البركة عميقة لكنها مليئة بالضفادع. وكانت السحالي تخرج من خلف أشجار النخيل، تنظر حولها، ثم تعود إلى مكانها الظليل. كنا نبلل ثيابنا بالماء ونجلس تحت المروحة التي تعمل بأقصى سرعة في غرفة باري. وكنا أحياناً نصعد إلى السطح ونشاهد ما تعرضه سينما صحارى المكشوفة في الشارع المقابل. وعلى الرغم من أنها كانت تعرض أفلاماً عادية، فإنّنا كنّا نحب مشاهدة الصور على الشاشة، بل نلتقط بعض الحوار أيضاً. كنّا نشرب كوباً تلو الآخر من "الدوغ" لنروي عطشنا الدائم،

وننغمس في التخيّلات الوردية حول ما يمكن أن نفعله في حياتنا، وكان الأمل يملأنا بأنّنا قادرون على مقاومة ضغوط والدينا.

في إحدى الأمسيات، في منتصف آب/أغسطس، اصطحب والدي العائلة إلى مطعم "أكبري للكباب" في جادة بهلوي، وكان ذلك بمثابة عشاء وداعي لشقيقينا. وقد اختار والدي هذا المطعم التقليدي القديم لأنّهما لن يتناولا هذا النوع من الطعام لفترة طويلة على الأرجح. كان برويز سيلتحق بجامعة في سانت لويس، وسايرس بكلية الهندسة في إنديانا. قال شقيقاي ثانية إنّهما يعتزمان العودة إلى الوطن بعد أن ينهيا تعليمهما. وقد اتفقا مع والدي على أنّ من المعيب ألا يكون لدينا ما يكفي من الخبراء الإيرانيين وأن يتولى الأجانب هذه الوظائف. وقد أدى سعر صرف التومان غير المؤاتي مقابل الدولار إلى رفع تكلفة تعليم شقيقي في أميركا كثيراً، لكنّ والدي كان مستعداً لهذه التضحية لأنّ ذلك سيعود بالخير عليهما. فقد كانت الجامعات الأميركية تعتبر أفضل بكثير من الجامعات الإيرانية.

قبّلنا شقيقانا في اليوم التالي بعد الفطور مودّعين، وغادرا إلى المطار برفقة والدي. وما إن خرجا من البيت حتى خيّم الصمت علينا جميعاً. كأن أحد أطرافنا بُتر ونحن نراقب النزيف دون أن ندري ماذا نفعل.

وجدت رزمة على سريري، وضعها علي، كما يضع بريدي عادة. كانت تلك المطرّزة الجدارية التي تُصوّر الجنة، والتي كانت معلّقة في غرفتي القديمة. علّقتها بمساعدة علي على حائط غرفتي الجديدة. لقد طرّزت مريم هذه الجدارية لتخرجها في مهرها. ثمة جدول متعرج في وسط قطعة القماش المربعة الخضراء المورقة، وأشجار مليئة بالأزهار الغريبة في أركانها الأربعة، وطيور تطير من المركز إلى الحواف، وحوريات يحملن أطباق الفاكهة إلى الرجال والنساء المتكئين على الأرائك تحت الأشجار، والملائكة محتشدون في الهواء، جاهزون للخدمة. كلما نظرت إليها، وجدت شيئاً جديداً - أرنباً يسترق النظر من خلف شجيرة، وغزالاً شبه مختبىء خلف صخرة. لكن أكثر ما أحبه فيها الآن تلك الطيور المحلّقة في السماء.

الفصل الثامن

التحقت في فصل الخريف بالصف السابع وانضممت إلى باري ومانيجة في المدرسة نفسها. كنا أنا وباري نذهب إلى المدرسة ونعود منها سيراً على الأقدام، واختارت مانيجة أن يوصلها السائق بسيارة العائلة. كان التلامذة في "ثانوية النظام والوفاء" ينحدرون من خلفية عائلية مماثلة لخلفية والدينا، أي من الطبقة المتوسطة إلى الميسورة، كما كان الحال في المدرسة الابتدائية. لم يكن ارتفاع الدخل، كما هو حال عائلتنا، يجعل العائلة تميل إلى المفاهيم الغربية. فقد كانت القيم والمواقف المتضاربة نفسها تسيطر على معظم العائلات، الميسورة والفقيرة.

كنت أنا وباري نعي تماماً مقدار اختلافنا، لا عن مانيجة فحسب بل أيضاً عن معظم فتيات المدرسة اللواتي تقبّلن أدوارهن المرسومة لهن. وكانت معظم الفتيات مخطوبات بالفعل ليتزوّجن عندما يبلغن السن القانونية، التي ارتفعت إلى السادسة عشرة.

كانت الفتيات المخطوبات يشكلن عصبة قائمة بذاتها. ومعظم خطّابهن أكبر منهن سنّاً. ويرجع ذلك يعود في جزء منه إلى وجوب أن يكون الأزواج قد "أسسوا" أنفسهم ليتمكنوا من إعالة الأسرة. فالزواج ممن لم "يؤسس" نفسه يجبر الفتاة على العيش في منزل والديه أو أشقائه إلى أن يتمكن من جمع المال الكافي لشراء بيت خاص بهما.

كانت جالا يزدان، الفتاة السمراء ذات الشعر البني الداكن الأجعد، مخطوبة لعقيد يبلغ عمره ضعفي عمرها. ومينو تاجار وشاهلا صادق بور، وهما ابنتا خالتان، مخطوبتين لأخوين طبيبين، وكلاهما يفوق عمرهما ضعفي

عمر عروسيهما. وكانت الفتيات يشرن إلى خطابهن بألقابهم، عقيد، طبيب، مهندس. وكنَّ يتهامسن وهن يقفن تحت الأشجار أو في الأماكن الظليلة الأخرى. وكنَّ في العلن يتصرّفن بلياقة وتهذيب. فيخاطبن الأخريات "بتعارف"، باستعمال عبارات التملق التي تنتقص من النفس. "لا أستحق أن تتكبّدي العناء". و"عيناك هما الجميلتان". و"أرجو المعذرة، أنا أقل من ذرة غبار". كان "التعارف"، الذي ننتقده أنا وباري فيما بيننا، نظام السلوك التقليدي الذي يخدم غايتين. فهو يظهر حسن الأخلاق والأدب، وفي الوقت نفسه يترك مسافة بينك وبين الآخرين، بحيث تحمي خصوصيتك في مجتمع مليء بالمحرّمات.

لم تكن البنات يركضن البتة، أو يضحكن بصوت مرتفع، أو ينظرن إلى الفتيان الذين يقفون عند الأبواب أو يستندون إلى الحائط. كان الفتيان ينتظرون مرورهن، ليضعوا رسائل في أيديهن تدعوهن إلى لقاءات سرية. كانت الفتيات المخطوبات يمشين ببطء، ويتكلمن بصوت ناعم، فالحركة السريعة تنتقص من الأنوثة وتخالف الذوق السليم. وكان عليهن أن يحذرن من التصرّف بطريقة غير لائقة خوفاً من أن يبعدن الرجال عنهن. وكان على غير المخطوبات أن يبذلن ما بوسعهن ليجتذبن الرجال المناسبين. ولهذه الغاية، كانت الفتيات الميسورات يجرين جراحات تجميلية لتصغير أنوفهن أو ليزلن رؤوسها المستدقة. بل كانت بعضهن يجرين عمليات لتكبير الثديين.

كانت الشائعات تفيد بأنّه إذا "زلّت" إحدى الفتيات وفقدت عذريتها، كانت تلجأ إلى جرّاح مختص لكي يخيط غشاء بكورتها فلا تكتشف فعلتها ليلة زفافها.

وكانت الفتيات "العصريات" أيضا، يخشين سلطة الرجال، بدرجة لا تقل عن مريم والنساء الأخريات في الحي القديم. فقد قالت إحدى الفتيات، "الرجال غامضون يصعب فهمهم. لا يمكن أن تتنبئي بما قد يفعلونه لك. فهم يجاملونك أيما مجاملة وعندما ينالون مأربهم يتخلون عنك".

إنّني الآن في سنّ تبرعم النهدين وعندي دراية بالرجال.

سألت باري ذات يوم، عندما كنا عائدتين إلى البيت سيراً على الأقدام،

"عندما تبلغين وتصبحين في سنّ الحيض، هل تحملين إذا سمحت للرجل بأن ....؟

قالت باري، "أن يجامعك ويدخل بك"؟

وفيما كنا نواصل السير، بدأ ولدان يلحقان بنا ويقتربان منا إلى حد ملامسة أذرعنا، ويهمسان بكلماتِ التحبب. كان هذان الشابان من اثنين من كثير من الشبقين الفاسقين، الذين يلاحقون الفتيات في الشوارع. وعندما دخلنا جادة بهلوي اختلطا بجموع الناس في الطريق وتواريا.

همست باري، "هناك رجل واحد يعجبني فقط".

"من هو"؟

"مجيد، إنه لطيف، وليس كهؤلاء الفاسقين؟ إنه مختلف عن معظم الرجال، فهو ليس مستبداً. قابلته عندما قدمت تجربة الأداء في مسرحية يريدون تمثيلها في المدرسة. جاء عدة مرات لمناقشة المسرحية مع السيدة باتروفي. تملؤني الرغبة عند رؤيته، وأشعر بحرقة الشوق".

فكرت في مريم وهي تتحدث إلى النساء الأخريات عن الجنس كشيء تؤديه المرأة لإرضاء زوجها. فمن الخطايا أن تستمتع المرأة بالجنس أو ترغب فيه. لقد كانت السيدة فاطمة، ابنة النبي محمد، قدوة النساء في حي مريم. كان يعتقدن بأنها كانت عذراء عندما ولدت. فقد ذهبت للاستحمام وخرجت من المياه حبلى. ودام الحمل ستة أشهر، توهج رحمها خلال هذه الأشهر بضوء ساطع. وجاءت الملائكة لمساعدتها في الولادة.

سألتُ باري، "ألا تخشين من هذا الشعور"؟

"ألا ترين كيف يتحرّق الرجال والنساء رغبة في بعضهم بعضاً في الأفلام الأميركية"؟

" بلى.."..

"لقد أعطوني الدور الذي أريده يا ناهيد، دور الفتاة لورا".

"كم أنا سعيدة من أجلك يا باري".

"إن مسرحية "ذا غلاس ميناجيري" مسرحية جادة كتبها أميركي. لم تكن الآنسة جاهانباني، المديرة، راغبة في عرض المسرحية في المدرسة. لكن مجيد والآنسة باتروفي أقنعاها".

قلت، "ذلك أمر مثير".

"لكن الدور تغيّر كثيراً عما كان عليه أصلاً. فقد أصرّت الآنسة جاهانباني على بعض التغييرات، غير أنّ زبدة الموضوع لا تزال على حالها". استدارت باري ونظرت إلي. "لا تخبري والدي أنني سأمثل فيها".

"ألن يعرف بالأمر؟ ستخبره مانيجة وربما ينشر الخبر في الصحف".

"لا تنتبه مانيجة لمثل هذه الأمور في المدرسة. وربما لا تعلم بأمر المسرحية من أساسه، وأشك أن ينشر عنها في الصحف".

خرجنا ذلك المساء إلى الشرفة وألقينا نظرة على الشارع. كان عدد من الشبان يتحدثون تحت مصابيح الشارع أو الأشجار. واصطف بعضهم أمام سينما صحارى. لقد رأيناهم سابقاً في المدينة، وهم يحاولون تضخيم تميّزهم الفردي من خلال ملابسهم. أحدهم يرتدي قميصاً أسود دائماً ليظهر انتماءه إلى الحزب الوطني المحافظ، آخر يضع منديلاً أحمر في جيب سترته ليشير إلى أنه يدعم حزب تودة، أو الشيوعيين، وهو حزب خارج عن القانون، ويلقى القبض على أعضائه إذا أمسك بهم. وهو يخاطر جداً بوضع المنديل.

كانت باري تشير إلى الشبان بقولها، "الشاب الوسيم المغرور"، و"الشاب الذي يحاول تقليد مارلون براندو"، و"صاحب العينين الصغيرتين والرأس ذي الشكل المضحك".

غاصت في مزاج كئيب وقالت، "أعرف أن أبي وأمي سيحاولان تزويجي بالقوة من رجل كبير، لكنني لن أستسلم".

في وقت لاحق من تلك الليلة، تدربت باري أمامي على دور لورا الذي ستلعبه في المسرحية. تأمّلت كيف تحرّك يدها أو توقفها، وما مقدار تعقيد تعابير وجهها أو بساطتها في أي لحظة. لم تكن قصة الفتاة التي تأمل أمها وعائلتها أن تجد لها زوجاً مناسباً غير مألوفة لدينا. فالأمنية الوحيدة لكل

الآباء تقريباً أن يدبّروا لبناتهم الرجل المناسب بأسرع وقت، ليجنّبوهن خطر العنوسة، وسوء المزاج، مثل بعض المعلّمات والممرضات. ولم يكن الفتيات يلتحقن بالتعليم العالي إلا إذا لم يجدن أزواجاً. وكان يرثى لحال الفتيات غير المتزوجات ويُتجنّبن. وبعد أن يتوفى آباؤهن يضطررن إلى العيش مع من يرغب في استقبالهن من أفراد العائلة.

أدهشتني قدرة باري على تقمّص الفتاة الأميركية الخجولة وملأتني بالإعجاب.

بقيت باري في المدرسة لتتمرن على دورها، فانتظرت عودتها بشوق بعد أن دخل المنزل في رتابته البطيئة المزعجة. وكنت أخشى أن يلاحظ والدي تأخّرها في المدرسة لأنه يخرج من مكتبه بين الحين والآخر ليلقي نظرة على ما يفعله الجميع. كانت محترم تتابع أعمالها المنزلية غاضبة، ومانيجة تحوم حولها، وعلي يراقب الحمام أو يطعمها في أوقات فراغه بين واجباته.

كنت أكتب أو أقرأ بعد أن أنهي فروضي المدرسية. أكتب مشاهد صغيرة أو قصصاً، عدا عن واجباتي لصف الإنشاء، وتخيّلت أنّني سأكتب ذات يوم مسرحية تمثل فيها باري. وما إن عادت باري حتى عادت إلى المنزل حيويته.

كانت باري يوم افتتاح مسرحية "ذا غلاس ميناجيري" في حالة من النشوة.

سألتها، "ما أكثر ما يثيرك في التمثيل"؟

"أن أصل إلى مرحلة أتوحّد فيها مع الشخصية التي أؤدّيها".

"أحب كتابة القصص لأصيغ حياة الشخصية وأعطيها معنى".

استطاعت باري أن تبقي دورها في المسرحية سراً عن والدي. لكن والدي جاء إلى غرفتها، حيث كنت أجلس معها، وقال: "لا أوافق على اشتراكك

في مسرحية المدرسة. يمكن أن نقع في مشاكل". ورمى على الأرض قصاصة من صحيفة "اطلاعات" اليومية التي يشترك فيها.

التقطتها باري وقرأناها.

اعتُقل إيراج مقاصدي، المنتج، وبرويز أحمدي، المخرج، وكل الممثلات، ومن بينهن سيمين باغولي، لاشتراكهم في مسرحية ابسن "العدو العام" التي عرضت على مسرح دادي باد في عبادان...

قلت، "أتساءل كيف عرف والدي بأمر اشتراكك في مسرحية المدرسة".

"لا بد أن السيدة جاهانباني أخبرته. تعرفين أن والدي يسألها عنا معظم الوقت. لكن 'ذا غلاس ميناجيري' لا تحتوي على أي شيء يمكن أن يعتبر مناهضاً للحكومة".

ذهبت باري إلى والدي، فبكت وتوسلت إلى أن سمح لها في النهاية بلعب هذا الدور هذه المرة فقط. لكنه لم يأت لمشاهدة المسرحية. وكذلك محترم، التي تماشي والدي في رغباته. ولم تهتم مانيجة بالأمر. كنت الوحيدة من عائلتنا التي ذهبت لمشاهدتها.

صُمّم المسرح ليبدو كأنه شقة رثة في مبنى في سانت لويس: كنبتان ممزقتان تبدو حشيتهما من تحت قماش التنجيد الزهري الشاحب، وبساط بالٍ على الأرضية، وطاولة مغطاة بمفرش مائدة بلاستيكي ذي نقش مربع، وأربعة كراسٍ. لم يكن الجمهور كبيراً، وقد تكوّن من الأساتذة، بعضهم من مدارس أخرى، وبعض الأهل والتلاميذ. جلستُ في الصف الأول. كان ضوء المسرح خافتاً ولكن تركّز ضوء كشّاف على وجه باري. لم أستطع أن أبعد عيني عنها. فقد أصبحت لورا. جلست إلى الطاولة وهي ترتدي فستاناً طويلاً يصل إلى تحت الركبة، ذا أكمام منتفخة وكشاكش عند الرقبة، وأخذت تلعب بحيوانات زجاجية صغيرة. كانت الأم، أماندا، ترتدي فستاناً حريرياً طويلاً وحذاء خفيفاً، وتضغط على ابنها ليجد "طالباً محترماً" لأخته فيما شغلت لورا نفسها بالحيوانات لتتجنّبهما.

لعب اثنان من أصدقاء باري، زيبا وفرشتا، دور الذكرين، طوم، الشقيق

الشاعر الدائم القلق، وجيم، الطالب المحترم. ارتدى طوم بدلة وربطة عنق، وارتدى جيم بدلة وربطة عنق فراشية.

علا التصفيق الصاخب، والطويل عند انتهاء المسرحية. كان الناس يتحدثون عن براعة باري. فأحسستُ بالفخر. وكما شرحت لي باري، اقتطعوا المشاهد الأصلية التي تبدو لا أخلاقية للجمهور الإيراني أو غيّروها. لم يُظهروا أن لورا معجبة بـ جيم، أو أنه كان يناديها "الوردة الزرقاء". لم يجمعوهما معاً على المسرح البتة. وغيّروا أن جيم أخبر لورا مباشرة بأنه خاطب. وبدلاً من ذلك استخرجت الأم منه هذه الحقيقة.

اتجهت إلى الكواليس بعد توقّف التصفيق مباشرة. قلت لباري وهي تبدّل ثيابها، "كنت رائعة يا باري".

دخلت فتاة كانت ترشد الناس إلى مقاعدهم وهي تحمل باقة من الورد وأعطتها إلى باري. قالت، "هذه لك"، ومشت مبتعدة.

قالت لي باري وهي تحمل الباقة فيما كنا عائدين إلى البيت سيراً على الأقدام، "لا بد أنها من مجيد. هل لاحظت الرجل الذي كان يجلس جانباً ويرتدي قميصاً ذا نقش مربّع أزرق وبنياً"؟

"أجل، كان يبدو متحمساً جداً وهو يشاهد المسرحية".

"إنه مجيد. قبل بضعة أيام، كان ينتظرني في الخارج بعد التمرين أمام سيارته البويك الكرزية اللون، وذراعاه متشابكتين. كأننا كنا على موعد. كان الشارع فارغاً في ذلك الوقت فتجرأت وصعدت إلى سيارته. قاد السيارة في الشوارع الخلفية وتحدثنا كأننا نعرف أحدنا الآخر جيداً. إنه يدرّس في ثانوية للفتيان ولكنه يهتم بمختلف الأشياء. يحب الأفلام والمسرحيات ويؤمن بحق المرأة في الحصول على المساواة". أطرقت باري قليلاً، ثم أضافت، "لقد سمحت له بتقبيلي".

كان قلبي يخفق بشدّة بين أضلعي. لقد دخلت باري مجالاً محرّماً، لا يدينه الناس في وسط مريم فحسب، بل في المجتمع الإيراني الأكثر عصرية كذلك.

"سيرسل أمه إلى بيتنا ليخطبني".

"لكن هل تريدين أن تتزوجي يا باري"؟

"أعرف أني سأضطر إلى ذلك. ويمكن أن يكون مجيداً. قبل بضعة أيام فقط قال لي والدي إنني يجب أن أفكر جدياً في الزواج. قال إن شخصاً مناسباً قد طلبني، لكنه لم يفصح عنه".

كان عازف الفلوت الأعمى الذي اعتاد الجلوس على جسر قارون، جالساً الآن متكئاً إلى حائط في الطريق، يغني ويعزف على الفلوت،

في تلك الليلة المقمرة في الزقاق

سلبتِ قلبي

أتى بك الربيع إلى المدينة وأنت تحملين باقة من البنفسج البري

وعندما عبرت الباب راجعة

ارتسمت ابتسامة مشرقة على شفتيك

المشعة بالحياة على شفتيك

وحكت عيناك ذكريات حبنا

قالت باري كأنها تخاطبني وتخاطب نفسها في الوقت عينه، "لماذا يجب أن نرضى بتبادل الرسائل والنظرات عن بُعد"؟

عندما وصلنا إلى البيت استعملنا الباب المؤدي إلى الطبقة الثانية مباشرة ثم إلى غرفتها لكي لا نضطر إلى المرور من الفناء أو الشرفات المحيطة بغرفة نوم والدينا. وضعت باري الورود في زهرية فامتلأت الغرفة بعطرها.

الفصل التاسع

قالت باري ونحن نسير في جادة بهلوي، "سيبدو هذا جميلاً عليك". كانت تشير إلى فستان معروض في واجهة أحد المحلات.

قلت، "سأجرّبه".

لم يكن الفستان على مقاسي ولم يكن لديهم مقاسات أخرى، فاشترينا فستانًا آخر، زهرياً داكناً عليه دوائر بيضاء، وتوجّهنا إلى البيت عبر طريق هادئ موازٍ لجادة بهلوي.

بينما كنا نمر في حقل مليء بشجيرات الياسمين والسمّاق، أسرع صبي صغير نحونا وأعطى باري وردة. كان هناك مغلّف صغير مربوط بساق الوردة. ثم اسرع الصبي مبتعداً وتوارى في شارع آخر. كان الطريق فارغًا وهادئًا وفتحت باري المغلّف. راقبتها تقرأ الرسالة. استغرقت في قراءتها لدرجة أنني فقدتها لحظة. ثم عادت إليّ، ووجهها مُشع. "هاك، سأدعك تقرئينها".

عزيزتي باري، لا أستطيع إبعادك عن تفكيري وقلبي. أعرف كلاً منا للآخر. رجعت والدتي بعد زيارة والديك دون أي وعود. هل عرفت بذلك؟

سألت باري، "هل كنت تعرفين"؟

قالت باري، وقد بدا التشوّش عليها فجأة، "لا، لم يخبراني البتة عن زيارة والدته، كنت قد فقدت الأمل معتقدة بأنه قد غيّر رأيه. يجب أن أتحدث إليهما".

عندما عدنا إلى البيت، وضعت باري الوردة في بقعة مُشمِسة على الشرفة لتجفّفها، وتضعها فيما في الدُّرج بين ثيابها كما فعلت بالباقة.

عندما دخلنا غرفتها قالت، "ارتد فستانك، أريد أن أراه عليك ثانية. تبدين ناضجة، سيلاحقك قريبًا العديد من الفتيان وستقعين في الحب أيضًا، إذا سمحت لنفسك بذلك".

قطعت إحداناً عهداً للأخرى بألا نتزوج إلا بعد حب، وقررنا أنّ الزواج المدبّر كارثة. انظروا إلى والدي ومحترم، علاقتهما أشبه بعلاقة الأب بابنته منها بعلاقة زوج بزوجته. وانظروا إلى كل الفتيات في المدرسة، مخطوبات إلى رجال لا يكنّ يعرفنهم وعليهن أن يشاركنهم حياتهم. لم نشأ أن نكون حلقتان في سلسلة التقاليد الطويلة التي ترجع إلى أسلافنا. كان علينا أنا وباري أن نكسر هذا النمط.

صرخ والدي بباري على الشرفة قائلاً، "من أين أتيتِ بهذه الأفكار الغبية، الحب؟ هل هي الأفلام الأميركية"؟

ردّتِ عليه باري، "هناك العديد من العائلات في شمال طهران توافق على أن تخرج بناتها في مواعيد ويتعرّفن على الرجل قبل الزواج".

قال والدي، "الأهواز ليست طهران. ولا يوجد أحد شديد الغباء في طهران بحيث يترك مثل هذه القرارات للفتيات".

تدخّلت محترم قائلة، "الرومانسية لا تملأ المعدة. لم تتزوجين أستاذًا لا يستطيع إعالتك وإعالة أولادك"؟

أصرّت باري قائلة، "أريد أن أتزوج بعد حب".

صرخ والدي، "أنت مغرورة لا تعرفين مصلحتك". وفي نوبة غضب أمسك بذراع باري وجرّها عبر الشرفة، ورمى بها في غرفتها وأغلق الباب، ثم توجّه بسرعة إلى مكتبه.

أسرعت إلى باري.

قالت باري وصوتها يرتعش، "الألم يعتصر قلبي من الطريقة التي يتحدثون بها. أتألم عندما أتنفّس. يجب أن تكون أمي إلى جانبي، يجب أن تفهم بناتها، لكنّها بدلاً من ذلك تنحاز إلى والدي دائمًا".

قلت، "والدنا يعرف الكثير عن تاريخ العالم والسياسة. يتكلم الفرنسية، مكتبه مليء بكل هذه الكتب المجلّدة والمعاجم. ولكن عندما يتعلّق الأمر بنا وبأمنا، فإنه يصبح دكتاتوراً".

فكرت بالمطرّزتين المبروزتين اللتين صنعتهما محترم قبل بضعة أيام وعلّقتهما في الصالون حيث يستقبلان الضيوف. كلاهما تصوّر بركة يعوم فيها البط. وتظهر الشمس في الزاوية العليا اليمنى، والبركة تتلألأ تحت ضوئها البرّاق.

"هل رأيتِ المطرّزتين اللتين صنعتهما محترم"؟

أجابت باري، "إنّها تعبّر عن نفسها بهذه الطريقة فقط".

"هل تعتقدين أنها شعرت يوماً تجاه والدي ما تشعرينه تجاه مجيد"؟

غرقت باري في أفكارها، "كيف يمكنها ذلك؟ كانت مجرد طفلة عندما أجبرت على الزواج". وسكتت برهة ثم قالت، " لكن ربما انتابها هذا الشعور تجاه رجل آخر".

شهقتُ قائلة، "ماذا؟ من"؟

"ما زلت أذكر منذ سنين، عندما كان والدي يسافر كثيراً، كان هناك رجل وسيم، يملك محلاً للمجوهرات في جادة بهلوي. كانت أمي تذهب إلى هناك طيلة الوقت. رأيتها ذات مرة عندما كانت تخرج، كان وجهها متوهّجاً كأنه مشتعل، مثلما أشعر عندما أرى مجيد".

عندما خرجت من غرفة باري صادفت محترم تقف أمام مرآة طويلة قرب الستائر البيضاء في غرفتها، تتأمّل مظهرها. كانت تموّج شعرها دائماً بشكل يظهر حسنها، وتضع أحمر الشفاه. ارتسم على وجهها تعبير ناعم، حزين، وبدت مختلفة جداً عن المرأة التي حاولت إقناع باري بالمنطق.

عذّبني الحديث الذي دار بيني وبين وباري. جافاني النوم تلك الليلة، فجلست في سريري أحلّل كيف يمكن أن تكون قد نشأت العلاقة بين محترم والصائغ.

في البداية، كانا يتبادلان النظرات فقط عندما يمرّ أحدهما قرب الآخر في الطريق، ثم بدأت تزور محل المجوهرات بذريعة أو بأخرى. أخيراً، رجاها أن تقابله في مكان ما. قاومت الفكرة في البداية. وذات يوم خرجت إلى الشرفة، فرأته يقف في الساحة، وينظر إلى أعلى كأنه يأمل بخروجها. لبثت محترم على الشرفة، عيناها معلقتان بعيني الرجل، إلى أن بدأ أحد أطفالها بالبكاء ومناداتها من الداخل.

أخيراً، عندما كان والدي مسافراً في رحلة عمل، خضعت للإغراء وقابلت الرجل، ربما في زاوية هادئة في المنتزه. شعرت بالدوار من مجرّد الرغبة في الجلوس إلى جانبه، ربما تملّكها الرعب لحظة وبدأت بالابتعاد عنه. لكنه تبعها قائلاً، "كيف تتركينني هكذا؟ ألا ترين أنني ألاحقك في كل مكان لأفوز بنظرة إليك، وأستمع إلى صوتك"؟

أشار إلى شاليه خشبي أزرق، وقال، "أتذهبين معي إلى هناك؟ أعرف حارس المنتزه يمكن أن نمكث هناك من دون أن يقاطعنا أحد". كان الشاليه يتوسط حديقة لأشجار النخيل، بعيداً عن سائر المنتزه. وجدا الباب مفتوحاً فدخلا. كان هناك بساط يغطي الأرضية، وجرة فخارية على رف المدفئة، لكن بدا المكان فارغاً بخلاف ذلك. أغلق الباب من الداخل وأخذها بين ذراعيه. قال لها، "لا تقلقي لا يوجد أحد هنا". ترى هل اعتاد إحضار النساء إلى هنا؟ خطر ببالها هذا السؤال لكن الرغبة القوية جعلتها تقاوم هذا الشك. تهامست سعف النخيل مع النسيم في الخارج. وتسللت أشعة الشمس عبر النافذة وتراقصت على الحائط أمامهما. كانت ترتدي تنورة وصندلاً زرقاوين وبلوزة بيضاء عليها صف من الزهور الحمراء، والصفراء، والزرقاء، طرزتها لها أمها عند فتحة العنق.

بدأ بعد ذلك يعرّيها بنفسه. سمحت له بذلك وهي مسمّرة في مكانها. كانت ترتجف، فمن المبهج أن تكون مع شخص في نفس عمرها.

شعرت بجانبيتها وبلمسات الرجل وسمعته يهمس في أذنها، "أنت جميلة".

بعد ذلك، تكرّرت مقابلاتهما كلما سافر والدي للعمل، كأنها مشدودة إليه بمغنطيس.

ذات يوم ذهبت إلى الشاليه فلم يكن الرجل هناك. وجدته لاحقًا في المحل لكنه تجنّب النظر إليها. لم يعد يقف في الساحة، ويحدق في الشرفة ليحظى بنظرة إليها.

كتبتُ كل ذلك في دفتري وخبأته تحت الفراش لكي لا يراه والدي، فقد كان يتردّد على الغرفة ليرى ماذا أقرأ أو أكتب.

قرأت ما كتبت في اليوم التالي لباري، وكدنا أن نقتنع بأن ذلك حقيقي، ولا بد أن يكون حقيقياً.

استمر الجدال أشهراً بين باري ووالدينا عن مجيد، الذي أرسل أمه لزيارتنا عدة مرات.

قالت باري، "لن أتزوج أحداً غيره". لكن والدي استمرّ بالرفض.

حبست باري نفسها في غرفتها مدة أسبوع. شحبت بشرتها وأصيبت بنزيف أنفي. كنت أنا أو علي نحضر الطعام لها. وكنت أتناول وجباتي معها، محاولة التخفيف عنها، وأخبرها أنه ربما كان من الأفضل لها أن لا تتزوج الآن، لكن لم يسلها شيء. ذكرتني بأن والدينا سيجبرانها على الزواج من شخص آخر. وفي بعض الأحيان كانت تمتنع عن التجاوب، وتنشد النوم أو البقاء لوحدها مع أفكارها.

كان والدي يصرخ من خلف الباب قائلاً، "ما الذي تفعلينه، ما هذا الإضراب السخيف"؟ وأبلغتها محترم بأنها تعذّب نفسها بلا سبب. "هناك خطّاب لك أفضل بكثير".

تساءلت إذا ما كانت محترم ووالدي شريرين. لكن جدتي التي أحبها كثيرا، فعلت الأمر نفسه مع بناتها، فأجبرتهن على الزواج من رجال اختارتهم هي وجدي. بل إنّ والديَّ كانا ضحية نظام القمع الذي يملي على

الناس كيف يشعرون ويعيشون حياتهم. هذا هو الوقت الذي يجب على باري أن تقاوم فيه الزواج من أي شخص غير مجيد، وتكسر السلسلة، كما وعدت إحدانا الأخرى.

●

أرسلت السيدة باتروفي معي رسالة إلى باري، تطلب منها أن تذهب لتجربة أداء دور في المسرحية الموسيقية الأميركية "سيدتي الجميلة". ارتفعت معنويات باري على الفور. وراهنت على أن لا يمانع والدي إذا عرف بمشاركتها في المسرحية، على أمل أن يكون في انشغالها بشيء تحبه شفاء لجرحها.

لكن والدي رفض. بكت باري أمامي قائلة، "لقد منعني والدي من الاشتراك في المسرحية، الآن بعد أن حصلت على دور بالفعل قال إنه لا يريدني أن أقف على المسرح وأمثّل دور امرأة يشتهيها رجل".

"باري، ليس هذا كل ما تدور حوله 'سيدتي الجميلة'".

"أخبرته الشيء نفسه لكنه رفض الإصغاء. أخبر الآنسة جاهانباني بأنه لا يريدني أن أمثّل في مسرحيات أخرى وتلك خلاصة الأمر".

للمساعدة في تهدئة باري، ذهبنا إلى فيلم يُعرض في مسرح الثانوية الأميركية على الجانب الآخر من النهر، في الحيّ الذي يسكنه الأميركيون. لم يكن لدينا أي صديق أميركي بالرغم من وجود كثير من الأميركيين في الأهواز. وقد أدركت سبب ذلك، اختلاف القيم أبقاهم على مسافة من الإيرانيين. فمعظم الإيرانيين، حتى الذين يميلون إلى العادات الغربية، ما زالت تحكمهم التقاليد والقيم الثقافية والدينية، جزئياً على الأقل، مثلما تحكم الأميركيين قيمهم. كان الإيرانيون يشيرون إليهم بلفظة "الأميركيين"، وأعتقد أن الأميركيين يشيرون إلينا بلفظة "الإيرانيين".

كان عنوان الفيلم "طاولات منفصلة"، وقد عرض مع ترجمة فارسية. وعند خروجنا لاحظنا على لوح الإعلانات في الممر لافتة مفادها أن ثمة استوديو يبحث عن أشخاص لدبلجة الأفلام من اللغات الأخرى إلى الفارسية.

كتبت باري المعلومات. وقالت، "سأجرب هذا الأمر، وآمل أن لا يعرف به والدي".

وافق الاستديو على عمل باري في دبلجة فيلم "الأرز المرّ"، من الإيطالية إلى الفارسية. فتخلّفت باري عن العديد من دروس بعد الظهر وكانت تذهب إلى الاستوديو. وتمكّنت من إبقاء عملها الجزئي طيّ الكتمان مدة من الزمن.

قالت لي باري ذات يوم، "والدي ليس الوحيد الذي يعتقد بأن الممثلات عاهرات. يبدو أن من يعملون في الاستوديو يشاركونه الرأي. فقد طلب مني أحدهم أن أخلع ملابسي. فأسرعت بالخروج".

الفصل العاشر

بعد ظهر ذات يوم، كنت في طريقي إلى البيت عبر مسار مختلف، لاحظت مكتبة في شارع ضيق في جادّة بهلوي. كان يوجد على جانبي الشارع الهادىء القليل من البيوت الخربة وبعض البيوت المغلقة. وكان هناك بعض الفتيان، بدون فتيات، ومن بينهم الفتى الذي رأيته مرة يضع المنديل الأحمر في جيب سترته. لم يكن يحمله في ذلك اليوم.

لم يكن المحل ضخماً لكنه مليء بالكتب. وجدت على إحدى الطاولات كتباً لشعراء إيرانيين مهمين، مثل سعدي، وحافظ وعمر الخيام. كان هؤلاء الشعراء القدماء يخاطبون جميع كل طبقات الشعب في إيران، وكل يفسر القصائد على طريقته. فغالباً ما استُعمل شعر حافظ لقراءة البخت. يفتح الشخص الكتاب بطريقة عشوائية على صفحة ما، ويفسر ما كتب فيها بأنه مستقبله.

كان يوجد على نفس الطاولة عدة كتب مترجمة إلى الفارسية منها، "الفخر والتعصّب"، و"ثم تشرق الشمس"، و"الجريمة والعقاب"، لا بد أنها مرت على الرقابة، فكرت في نفسي. كانت سلطة الرقابة التي تعمل ضمن وزارة الإعلام، تتحكّم بطباعة كل المخطوطات، الأصلية أو المترجمة. فتمنع الكتب التي تحتوي على رسالة سياسية أو يمكن أن تفسر على هذا النحو. وفي بعض الأحيان، قد يمر كتاب ما من الرقابة، ثم يسحب من السوق وتتلف كل نسخه بعد أن يجدوا فيه معنى جديداً. فجهاز السافاك دائم البحث عن كل ما يهدد النظام ولو من بعيد. فقد كانوا يعتقدون أن القلق الذي تثيره القراءة لدى الناس قد يؤدي إلى حدوث تمرُّد.

تناولت كتاب "ثم تشرق الشمس". وعندما ذهبت لكي أدفع، نظر إليّ صاحب المكتبة متسائلاً عما يدفع فتاة صغيرة إلى شراء كتاب لمؤلف أجنبي. كان شاباً طويلاً ونحيلاً، ذا عينين داكنتان جداً. وحين هممت بالمغادرة قال، "عودي ثانية، لدي كتب جديدة دائماً".

قرأت الكتاب في المنزل بشغف، وبدأت أزور مكتبة طبطبائي أسبوعياً لأشتري المزيد. أخبرني جلال، صاحب المكتبة، القليل عن الكتب المترجمة الموجودة لديه، كان يطلبها عندما تصبح متوافرة. أحببت قراءة هذه الكتب، فقد كانت تطلعني على عوالم وحيوات أخرى، كما هو الحال مع الأفلام الأميركية.

عندما عدت إلى البيت ذات يوم، وجدت باب غرفتي مفتوحاً. كان والدي يفتش في كتبي. وقفت عند الباب خائفة، هل سيعترض على الكتب التي أقرأها؟ ماذا لو نظر تحت الفرشة، ووجد القصة التي كتبتها عن محترم والصائغ؟ كان قلبي يخفق بقوة. دخلت الغرفة ووقفت بصمت.

قال لي بنبرة متوترة وقلقة، "ناهيد، توخي الحرص عند شراء الكتب، قد يوقعنا بعضها في مشاكل. لا تعرفين من يمكن أن يكون مخبراً لجهاز السافاك. قد يكون شخصاً متنكراً كعامل ماهر أو كهربائي".

استدار وخرج بعد ذلك. تنفست الصعداء. لم يأت على ذكر قصتي. أغلقت الباب وألقيت نظرة تحت الفراش، ليطمئنّ قلبي فحسب. كان دفتر الملاحظات موجوداً حيث تركته. تناولته ومزقت الأوراق التي تحتوي على القصة، وقطعتها إربا إرباً، ووضعتها في أسفل حقيبتي المدرسية لأتخلص منها في سلة القمامة الكبيرة خارج المدرسة.

●

ذات يوم عندما كنت أتصفح الكتب في مكتبة طبطبائي، قال لي جلال، "وصلني كتاب جديد أستطيع أن أريك إياه". بدا كان بيننا تواصلاً خفياً، وثقة متبادلة. لم يكن هناك أحد في المكتبة في هذا الوقت لكنه كان يتحدّث همساً. بدا وجهه وصوته أكثر رزانة من المعتاد. ذكّرني بأحد الشخصيات في "الإخوة كارمازوف".

سألته وأنا اخفض صوتي، " ما هذا؟"

"البؤساء". لقد سُحب من السوق. لكنني تمكّنت من الحصول على بعض النسخ قبل أن يتلفوها. أخبرك بذلك لأنني أعرف أنك تحبين الكتب مثلي وتكرهين العديد من الأشياء في مجتمعنا مثلي".

"عمّ يتحدّث الكتاب"؟

"عن رجل يسرق رغيفاً من الخبز بسبب الجوع، وتلاحقه الشرطة طيلة حياته. يعتقد جهاز السافاك أن الكتاب ربما يعكس بعض الأشياء في مجتمعنا".

"أودّ أن اقرأه".

أزاح جلال ستارة سميكة في آخر المحل، تؤدي إلى درج. نزل الدرج وعاد بعد دقائق حاملاً بيده كتاباً. ناولني إياه. كان غلافه أبيض فارغاً بدون عنوان أو اسم.

بعد أن اشتريته لفه بورق هدايا قائلاً، "توخّي الحرص الشديد".

وضعته في حقيبة المدرسة وتوجهت إلى البيت. تردّدت ملاحظته، "توخّي الحرص الشديد" في أذني، وساورتني رغبة في أن أعود وأطلب منه الشيء نفسه. راودتني صور مرعبة عن اعتقال جلال، وإغلاق مكتبته، وزجّه في السجن سنوات أو حتى إعدامه. فثمة شائعات تقول إن الناس يعاقبون بهذه الطريقة لمجرّد ارتكابهم تلك "الجريمة" التي اقترفها. ما أغرب أن تعتبر الكتب خطيرة في ثقافتنا، وأن تُعطى الكلمات المكتوبة مثل هذه السطوة، وأن يعدّ المرء مجرماً لامتلاكه بعض الكتب أو قراءتها. أدركت أنني خطوت عدة خطوات عائدة إلى المكتبة. كبحت نفسي. كان أكبر مني، وقد أخبرني ذات مرة بأنه يمتلك المكتبة منذ ثلاث سنوات. كان حريصاً جداً بحيث ينجو من بيع مثل هذه الكتب. فقد كان يعرف بالسليقة من يولي ثقته به.

جلست في غرفتي بعد أن أقفلت بابها وبدأت بقراءة الكتاب على الفور كالطفل الجائع.

كتبت قصة عن محنة امرأة أغريت بفكرة التخلي عن ابنتها العمياء، القصة التي تحدثت مريم وحميدة عنها في ذلك اليوم في طهران.

عندما انتقلت شامسي وابنتيها الصغيرتين للسكن في غرفة في منزلنا، كان يبدو عليهن البؤس والفقر. أشفقت أمي لحالهن وخفضت الإيجار. أينما ذهبت شامسي، كانت ابنتاها تلحقان بها. كانت منير، الصغيرة منهما، لا تبصر بإحدى عينيها، ولا ترى سوى ظلال مبهمة للأشياء بالعين الأخرى. لم يعرف أحد كيف بدأت شامسي تحصل على مقتنيات جديدة. اشترت ثياباً جديدة لها ولابنتيها. واشترت قدوراً ومقالٍ نحاسية، كانت تلمّعها كل يوم وتعلو وجهها ابتسامة باهتة. ثم اختفت منير. لم يعد يراها أحد في الصباح أو في أي وقت آخر من اليوم واختفت ابتسامة شامسي أيضاً. وذات يوم اعترفت بكل شيء. كان هناك رجل يريد أن يتزوّجها لكنه لا يحتمل وجود طفلة عمياء. لذا أخذت منير إلى الصحراء عند أحد أطراف طهران وتركتها هناك. ثم فرّت شامسي وصعدت في سيارة جيب مليئة بالجنود. تحرش بها الجنود وغازلوها لكنها غطت وجهها تحت الشادور، غير قادرة على البكاء أو الابتسام. تخيلت منير واقفة في الصحراء الواسعة، تستمع إلى صدى خطوات أمها المبتعدة. ثم انتظرت ظهورها ثانية بيأس إلى أن طغت على وعيها صور وأصداء مخيفة أخرى...

أطلعت باري على القصة كما أفعل بكل القصص التي كتبتها. كان اهتمامي بسماع صوتها المطمئن والمشجع لا يقل عن قدر شغفي الكتابة. بعدما قالت لي باري إنها أحبت القصة، سلمتها كأحد فروض الإنشاء في المدرسة.

سألت السيدة سليماني الصف بعد أن انتهيت من القراءة بصوت مرتفع، "ما رأيكم"؟

قالت إحدى الفتيات، "إنها حزينة جداً".

وقالت أخرى، " لا تبدو واقعية".

فقالت السيدة سليماني، "لكنها واقعية. فهي تصور يأس النساء من حولنا". كانت متزوجة ولديها ولد، لذا فقد حقّقت التوقعات التقليدية، وتدبرت

لنفسها مهنة بالإضافة إلى ذلك لها. لقد شجعتنا على السعي لأجل ما هو أكثر من الزواج وإنجاب الأطفال.

غرق الصف في الصمت بعد تعليقها.

سألت السيدة سليماني، "لو كان لديكن خياراً، هل تفضلن أن تكن رجالاً أو نساء"؟

رفعت يدي.

"تفضلي يا ناهيد؟"

كنت أحلم بفكرة السفر إلى أميركا منذ أن سافر شقيقاي، لذا قلت، "كنت أفضل أن أولد فتاة، لكنني أرغب في السفر إلى أميركا والعيش هناك".

رفعت بعض الفتيات في الصف الذي يضمّ عشرين فتاة أيديهن. قالت إحداهن إنها تريد أن تكون فتاة لكي تتمكن من الحبل، وذلك أمر لا يستطيعه الرجل. وقالت أخرى إنها لا تفهم الشبان، لذا فهي تريد أن تكون فتاة. وقالت ثالثة إنها تعتقد أن الحياة أصعب بالنسبة للرجال لأن عليهم أن يؤمنوا لقمة العيش وأن يكونوا أقوياء. فتاة واحدة فقط قالت إنها تفضل أن تكون شاباً لتصبح لاعب كرة قدم جيد مثل أخيها وتفعل الأشياء التي يسمح له بها، مثل السهر خارج البيت في الليل والذهاب في رحلات مع أصدقائه دون إشراف الأهل.

قالت السيدة سليماني، "معظمكن في الرابعة عشر من العمر، وبعضكن مخطوبات لرجال أكبر منكن سناً بكثير ويعرفون عن الحياة أكثر مما تعرفن سيتمكّنون دون شك من السيطرة عليكن. يجب أن تقاومن الوقوف في مثل هذا الموقف".

نظرت إليها بعض الفتيات بدهشة لتفوّهها بهذه الأشياء. وأظهرت أخريات عدم الموافقة على كلامها بشكل مبهم، كأنها تهاجمهن بدلاً من توجيههن. لكنها في اعتقادي محقة تماماً. هكذا كنت أشعر أنا وباري أيضا، أنّ علينا مقاومة هذا الموقف.

استوقفتني السيدة سليماني بعد الصف وقالت، " تبدين حزينة، هل هناك مشاكل في المنزل"؟

أومأت برأسي.

"تعالي، لنتحدث في مكتبي".

عندما أصبحنا في مكتبها قلت، "إنني تعيسة جداً". ورويت لها كيف اقتُلعت من حضن مريم وكيف تعاملني أمي ببرود الآن. وكيف يمكن أن يجبرني والدي أنا وشقيقتي على الزواج ممن يختاره لنا، وكيف يتحكم في كل أوجه حياتنا.

قالت السيدة سليماني، "أنا على ثقة من أنّ أمك ما كانت لتتخلى عنك لو كنت صبياً، حتى إذا كانت متعاطفة مع أختها. عندما تتعطل سيارتي، يصرخ السائقون الذكور في وجهي ويطلقون أبواقهم لمجرد أنني امرأة. كل الرجال في هذه المدرسة، وفي أي مكان آخر، يحصلن على أجور أعلى من أجور النساء بكثير. يقولون إنهم يؤمّنون لقمة العيش ونحن النساء نأكلها. كان لدي أنا أيضاً والد متسلط يا ناهيد، لكنني قاومته وخلّصت نفسي من قبضته وتصرفت على طريقتي". فكّرت في ما قالته قليلاً، ثم أضافت، "ضمن حدود".

رنّ جرس الصف التالي وافترقنا، لكن كلمات السيدة سليماني أثّرت فيّ كثيراً. وعندما عدت إلى المنزل، أخبرت باري بما قالته السيدة سليماني عن مقاومتها والدها المتسلّط.

قالت باري والأسى يملأ صوتها، "من المستحيل كسر إرادة والدي".

"لماذا لا تطلبي منه أن يرسلك إلى أميركا للدراسة؟ ربما يوافق إذا أصررت على أنك لا تريدين الزواج من أحد".

"لن يوافق على هذه الفكرة. كان يقول مراراً إن تعليم الفتيات هدر للموارد".

سألت باري، "إذا خيّرت، هل تكونين رجلاً أو امرأة"؟

قالت باري، "لا أريد أن أكون رجلاً، ديكتاتورياً". فكرت في ذلك ثم قالت، "هناك استثناءات. بعضهم مختلف، مثل مجيد".

قلت، "برويز وسايرس مختلفان أيضاً".

وافقت باري قائلة، "لو كان أمثالهما كثر، لكان العالم مكاناً أفضل".

الفصل الحادي عشر

ذات يوم الجمعة، وهو يوم العطلة في إيران، وجدت باري في غرفتها ترتدي ملابسها، فستاناً أزرق وحلياً ذهبية.

قالت، "ثمة خاطب هنا مع أخته. وقد أجبرني والداي على أن أتأنق. سينادونني لأقابله، رأيته يدخل الصالون، بدا متوتر فعلاً. أتريدين أن ترى كيف يبدو"؟

تسللنا ببطء إلى الصالون وتبادلنا الدور اختلاس النظر من خلال ثقب المفتاح الكبير. كان والدانا يجلسان على الأريكة المخملية القرمزية. أما الخاطب وأخته فشغلا الكنبتين الزرقاوين المتماثلتين.

قالت باري همساً،" انظري إلى أذنيه البارزتين".

بدا لي كل ما يفعله، وكل إيماءة، مضحكاً وأنا أراه من خلال عيني باري. تسللنا عائدتين إلى غرفة باري إذ لم نستطع كبح ضحكاتنا.

بعد دقائق قليلة جاء والدي إلى باب غرفتها وقال، "تعالي معي". فتبعته باري.

ما زال الهواء في غرفة باري محمّلاً برائحة خفيفة من الأزهار التي تلقتها من مجيد. وها هي الآن، مضطرة إلى مقابلة أحد الخطّاب، وربما يمارس عليها ضغط بعد ذلك للنظر فيه. شخص لا يثير اهتمامها البتة. كم كان الأمر سخيفاً وغير عادل.

سمعت أصواتاً غاضبة على الشرفة بعد مغادرة الزائرين.

قالت باري، " لا أريد الزواج منه".

دوّى صوت والدي، "عودي إلى صوابك؟ طاهري من أغنى الرجال في الأهواز. لديه أسهم في شركة دورانغ للبتروكيمياويات. ويجني مليون تومان في السنة من محلات السجاد في الأهواز وطهران. وسيرث ثروة عن والده العجوز الذي يمتلك عملاً مزدهراً في طهران. كما أنه متعلم، خريج الأكاديمية المالية في طهران".

وقالت محترم، "إنه يقدرك كثيراً فقد عرض مبلغاً ضخماً لمهرك. لا يمكنك أن ترمي كل ذلك وراءك".

"إنكما تحاولان بيعي".

قال والدي، "لا تكوني غبية يا باري".

ردّت باري بتحدٍ، "دعوه يتزوّج مانيجة بدلاً مني".

قال والدي، "تعرفين جيداً أنّ عليك أن تتزوجي أولاً لأنك الكبرى".

"أنتم لا تفكرون بي مطلقاً". وبعد ثوانٍ دخلت باري غرفتها.

سألتها، "ماذا حدث"؟

قالت، "لن أستسلم لهما البتة".

لكن طاهري كان ملحاحاً. وبما أن والديه يعيشان في طهران، فقد تولّت أخته الكبرى بهجت التعامل مع والدينا. وهي أرملة تعيش مع أخيها طاهري الذي يعتزم بيع محله في الأهواز، والانتقال إلى طهران ليكون قريباً من والديه المسنين.

توصّلنا مما رأيناه إلى أنّ بهجت أكثر تمسّكاً بالتقاليد من والدينا. لم تكن ترتدي الشادور، لكنها ترتدي غطاء للرأس، وثياباً محافظة، ولا تتبرّج. بعد ظهر أحد الأيام، عندما كانت تجلس مع محترم في الصالون، توجّهت أنا وباري إلى ثقب المفتاح ثانية، لاختلاس النظر والسمع.

كانت تقول لمحترم، "أخي ذو عقل متفتّح. لا يريد زوجة ترتدي الشادور. بل إنّه لا يحبذ غطاء الرأس. إنّني متقدّمة في السن الآن، ولم أكن أضعه عندما كنت شابة. إنّه يريد زوجة أنيقة كابنتك. عندما شاهد ابنتك لأول

مرة وهي في طريقها إلى المدرسة، عرف على الفور أنها الفتاة المناسبة له".

جاءت محترم إلى باري بعد مغادرة بهجت ودار النقاش نفسه الذي وقع من قبل. ورفضت باري القبول بعرض الزواج. قالت، "إنهما متمسّكان بي، لكنني لا أتخيل نفسي شريكة لحياة ذلك الرجل".

زارتنا بهجت ثانية بعد عدة أيام واتخذت أنا وباري موقعنا قرب ثقب المفتاح. كان والدي موجوداً هذه المرة مع محترم وبهجت.

قالت بهجت بإلحاح، "أخي يهدد بالانتحار. قال لي إذا لم توافق ابنتكم عليه، فإنه يفضل الموت. إنّ طاهري رومانسي جداً".

قال والدي، "اعترف بأن ابنتي عنيدة، اصبري عليها، وستثوب إلى رشدها عما قريب".

في وقت لاحق من ذلك اليوم، أتت محترم إلى غرفة باري وأعطتها رسالة، كانت قد فتحتها من قبل، ثم غادرت. فقرأنا الرسالة من توّنا أنا وباري.

مع كل احترامي يا باري هانم، ابنة الرجل المتميز والأم المحترمة، لا أستطيع أن أتخيل حياتي من دونك كزوجة. أفضل الموت على الزواج من غيرك. لدي خطة لقتل نفسي...

تجهّمت باري وقالت، "هذا ابتزاز، إنه لا يعرفني حتى قليلاً، ولم يتحدث أحدنا إلى الآخر البتة".

شعرت بألم في معدتي بسبب التوتر الذي يتراكم حول باري.

قالت باري وهي تضع الرسالة في حضنها، "أعترف لك بأنني رأيت مجيد. ذهبنا إلى شقته قرب النهر هذه المرة. تبادلنا القبلات، لكنّه لم يتجاوز هذا الحد. إنه ليس أنانياً. بل إنّه طلب أن نتوقّف عن التقابل إلا إذا كنا سنتزوج. لقد سمع عن اهتمام طاهري بي، وقال إنه يأمل ألا ينتج عن ذلك شيء. سينتظر مجيد إلى أن يستسلم طاهري ثم يرسل أمه إلينا ثانية".

خيم علينا صمت تأمُّلي.

نادى والدي من وراء الباب على باري.

تساءلت عما يجري بعد مغادرة باري. هل ستواصل باري بالجدل إلى أن يستسلم والدي ومحترم، وهل ستتزوج مجيد بعد ذلك؟ ما هي عواقب ذلك؟ لن تحظى باري بأي دعم من والدينا في المستقبل، ولن يسانداها إذا احتاجت إلى مساعدة. ثم بدأ الشك يساورني بشأن شخصية مجيد. هل هو مختلف حقاً عن الرجال الإيرانيين الذين يتوقعون أن تكون زوجاتهم "طاهرات"؟ لقد خرقت باري أحد المحرمات الكبرى بذهابها إلى شقة مجيد والسماح له بتقبيلها؟ هل سيبدأ بالابتعاد عنها لإقدامها على ذلك؟

قالت باري وهي تدخل الغرفة، "ما زال والدي يخبرني أنّ طاهري صيد ثمين. لماذا لا يستمع إلي؟ إن مشاعري كلها متعلقة بمجيد. تقول الآنسة بتروفي إن الممثلة الجيدة هي التي تستطيع تقديم مختلف الشخصيات بحيث تجتمع كل الجوانب المختلفة فيها معاً وتقدمها بطريقة مترابطة. هذا ما أريد القيام به، لكنني أشعر بالتشتّت تحت كل هذا الضغط".

أضاف ما قالته باري إلى خوفي. وبدت كأنها تحوّلت إلى زهرية رقيقة يمكن أن تنكسر فجأة وتتحوّل إلى قطع متناثرة.

بعد ظهر أحد أيام نيسان/أبريل الحارة كنت أجلس أنا وباري على حافة البركة، وأقدامنا مغمورة بالماء. لم تمطر منذ وقت طويل، فبدت أشجار النخيل المنتصبة على أحد جوانب الفناء ذابلة مغبرة، وقد جفت ثمارها في أعذاقها. وجاب يعسوب في الهواء المليء بالغبار.

قالت باري فجأة "سأتزوج طاهري يا ناهيد".

"لماذا يا باري؟ كيف حدث ذلك"؟

"أرسل مجيد أمه إلى هنا ثانية، لكن والدي ومحترم رفضا قبول العرض. وعلى الرغم من أننا لم نكن نعتزم التقابل ثانية، فإنّني قابلته. لكن هذه هي المرة الأخيرة حقاً. كان الأمر مؤلماً جداً. قال لي يجب أن نهرب معاً. لكن ذلك غير ممكن بالطبع. لن يزوّجنا أحد دون موافقة والدي، ومجيد يعرف ذلك. لقد كان اقتراحه مجرد خيال جامح".

غمغمت قائلة، "بإمكانك أن تنتظري قليلاً. ربما شخص آخر غير طاهري.."..

قاطعتني باري قائلة، "لدي ما أكسبه من زواجي من طاهري. سيأخذني إلى طهران. وسأتابع التمثيل هناك. لا بد أن الناس أكثر انفتاحاً هناك بشأن الممثلات". بدا وجهها مبهماً في الضوء الباهت ولم أستطع تقييم مشاعرها بوضوح.

قلت بعد برهة، "سأشعر بالوحدة من دونك".

خرج علي من غرفته وأخذ يرمي الحبوب على الأرض لجذب الحمام. بدأت الأصوات الآتية من الشوارع حولنا تخفت مع حلول الظلام. نهضت أنا وباري وارتقينا الدرج المؤدي إلى غرفنا في الطبقة الثانية.

أثنى والديّ على باري بعد أن أبلغتهما بموافقتها على الزواج من طاهري، وقالا إنها بدأت أخيراً تتصرف كفتاة في الثامنة عشرة، كامرأة ناضجة.

أبلغ والدانا بهجت أن باري وافقت على الزواج من أخيها، فقالت، "سيكون سعيداً جداً. لقد أنقذتماه من نفسه. كان يهدد بأمور رهيبة".

دخلوا بعد ذلك في مفاوضات جدية حول المهر والجهاز. المهر هو الضمانة المالية أو الدعم المادي الذي يقدّمه العريس، إذا حدث خلاف زوجي. فإذا قرر الزوج تطليق زوجته، يتعيّن عليه أن يدفع المبلغ المتفق عليه. عرض على والديّ عقارات لكنهما رفضاها وفضلا مبلغاً كبيراً من المال، ما يعادل نصف مليون دولار بالعملة الإيرانية. أما بالنسبة إلى الجهاز، فقد وافق والدانا على أن يقدّما إلى باري نقوداً ذهبية قديمة، وآنية فضية وأطباقاً، وأشياء منزلية أخرى. لم تشارك باري في المفاوضات جرياً على العادات المتبعة. فقد كان اتفاقاً بين والدينا وشقيقة طاهري.

الفصل الثاني عشر

على الرغم من كل الضغوط التي ترزح تحتها باري، بقيت أفكر لو أنها كانت أقوى لفعلت ما تريده. كنت ألاحظ أحياناً أن ثورتها ممزوجة برغبة في الحصول على موافقة والدينا. فقد كانت تذهب بين الحين والآخر إلى محترم والدي وهي تبتسم وتظهر الود للتعويض عن تحديها لهما.

كان لا يزال لدي أمل في أن تحاول التملص من الارتباط بهذا الرجل. لكنها خطبت في نهاية تلك السنة، عندما تخرّجت باري من الثانوية العامة. وأرجئ موعد الزواج حتى أيلول/سبتمبر، حتى يصبح المنزل الذي اشتراه طاهري في طهران جاهزاً. قال طاهري إن المنزل يقع في ناحية حديثة وحيوية في وسط طهران.

كانت حفلة الخطوبة صغيرة، اقتصر حضورها على الأهل المقربين فقط، فقد تُرك الاحتفال الكبير لحفلة الزفاف نفسها.

بعد وصول طاهري ومعه بهجت بعد الظهر، جلسنا جميعاً على الشرفة حول طاولات صغيرة أعدها علي. ارتدينا ثياباً أنيقة للمناسبة. وتألّقت باري بفستان أزرق، موشى بتصاميم من ورد أزرق داكن لامع مصنوع من قماش أكثر سماكة. وانتعلت حذاء أبيض وتدلّى من أذنيها قرطان ذهبيان على شكل أزهار مرصعة بالماس. كان كل ما ارتدته، بما في ذلك القرطين الثمينين، هدية من طاهري. وارتدى طاهري سترة نبيذية، وبنطلوناً رمادياً فاتحاً، وقميصاً مقلّماً بالرمادي والزهري. كان يمكن أن يكون وسيماً، لولا تلك الصرامة البالغة التي تشوّه وجهه. في ذلك المكان الواسع، تركّزت أنظار طاهري على باري دون سواها، فاختفينا أنا ومحترم، ومانيجة، وبهجت ووالدي.

كان أكبر من باري بعشر سنوات، أي أنّ الفجوة العمرية ليست كبيرة كتلك القائمة بين العديد من الأزواج، لكنه يتحدث إليها كما يتحدّث رجل متمرّس إلى طفلة.

دهشت عندما سمعته يقول لها، "باري، لست كبيرة بالقدر الكافي لتعرفي ما تعلمته من الحياة، مثل قيمة الاستقرار، والزوج الذي يرعاك جيداً".

أجابته باري على الفور، "أنا لست طفلة".

"سأعلمك العديد من الأشياء عندما نتوجّه إلى منزلنا في طهران". وأخرج طاهري علبة من جيب سترته تحتوي على خاتم ماسي. فأخرجه وزيّن به إصبع باري.

قالت بهجت، "أتمنى لكما مستقبلاً زاهراً وسعيداً معاً".

وقالت محترم "بارك الله ارتباطكما".

بدأنا جميعاً بالتصفيق. احمّر وجه باري، وشعرتُ بعدم ارتياحها لكل هذه الملاحظات الرسمية.

أحضر علي صينية الشاي ومرّرها على الجميع. تناولت محترم من طاولة موضوعة في الزاوية طبقاً كبيراً يحتوي على الحلويات، باميه، وزلابيه، ومعجنات أخرى، وقدمتها للضيوف.

سأل والدي طاهري، "أتريد القليل من العَرَق؟" على اعتبار أنّ المشروبات الروحية تناسب الرجال فحسب، حتى بين الإيرانيين العصريين. فوالدي لا يشرب العرق إلا مع أصدقائه الذكور.

أجاب طاهري، "لا أشرب الكحول، فأنا مسلم صالح. لكن لا تسئ فهمي، يعجبني العديد من جوانب الثقافة الغربية. أحب أن تبدو زوجتي عصرية وأن تجيد الحديث". والتفت إلى باري محدّقاً في وجهها، كأنه يشبع منها.

أصبحت باري فتاة مخطوبة (نامازد). فأبلغ والدي الخطيبين أنّ بوسعهما الانفراد قليلاً في الصالون.

بعد بضع لحظات توجّهت إلى ثقب المفتاح. بدت تعابير وجه باري متناقضة. وبدا طاهري محباً للتملّك، وشبه معذب. شعرت بعدم الارتياح. وشاهدته وهو يحاول تقبيل باري وهي تدفعه بعيداً عنها بلطف. كان ذلك السلوك المقبول للفتاة، أن تحافظ الفتاة على نفسها لليلة الزفاف. لكنني أعرف بالطبع، أن باري لا تمثّل الدور.

سُمح الآن لطاهري أن يأتي لرؤية باري مرة في الأسبوع وأن ينفرد بها قليلاً في الصالون في كل زيارة. وكنت أتجسس عليهما عندما أتمكن من ذلك. كان طاهري يحاول تقبيل باري في كل مرة، وهي تقول له، "ليس قبل أن نتزوج".

قالت لي باري، "إنّه لا ينفك عن القول إنني الإنسانة الوحيدة التي يرغب في الزواج منها، وإنه ليس هناك أي فتاة تثير فيه النشوة مثلما أفعل. وعدني بأن يسمح لي بمتابعة التمثيل، وقال إنه يريدني أن أكون حرة وأقوم بما يثير اهتمامي".

"هل من الممتع أن يهيم بك أحد إلى هذا الحدّ يا باري"؟

"أتعرفين يا ناهيد أنه يخيفني أحياناً، إنه عاطفي جداً".

لم أكن أعرف كيف ستحتمل باري طاهري يوماً بعد يوم، وكيف ستعيش معه، وتشاركه سريره. ولم أستطع أيضاً أن أتخيّل نفسي في الموقف نفسه، أن أتزوج من شخص لا أكاد أعرفه أو أحبه. فاشتدت المقاومة في داخلي.

أصبحت باري ذات مكانة عالية في المدرسة الآن لأنها انضمت إلى الفتيات المخطوبات. وصارت محترم توليها الآن مزيداً من الانتباه، فتأخذها للتسوُّق، وتضيف أغراضاً متنوِّعة لجهازها الذي بدأت تعدّه لابنتها بعدما وافقت على الزواج.

كانتا تعودان محمّلتين برزم تحتوي على شراشف، وأكياس مخدات، ومناشف، وخزفيات، وفضيات عالية الجودة، بعضها مستورد، وبعضها مصنوع في إيران. قالت محترم لباري"، طاهري يحبك جداً، وستتعلمين كيف تبادلينه الحب أيضاً. لقد بكيت عندما تزوجت والدك، لكنني الآن لا أتصوّر أن أكون مع أحد غيره".

بحث والدي ومحترم وطاهري وشقيقته، وأحياناً باري، شؤون الزواج على مدى عدة أيام. كان طاهري يريد أن يتم كل شيء بحسب الطريقة التقليدية القديمة بطقوسها الدقيقة.

قالت لي باري، "أكاد أختنق من كل هذه الأمور".

لم تأت باري على ذكر مجيد، وتركتُ لها أن تقوم بذلك، إذ افترضت أنّ مجرّد ذكر اسمه في هذه المرحلة سيكون مؤلماً جداً لها.

ابتعدت باري عني قليلاً لأنّها مشغولة بكل التوقّعات والتخطيط. ولكني شعرت بأنها منزعجة لأنها لم تفِ بالوعد الذي قطعناه معاً بعدم الزواج إلا عن حب. تساءلت هل سيطلب مجيد من أمه الآن أن تبحث له عن زوجة أخرى أو أن باري تشغل مكانة فريدة لديه، وأنّها الفتاة التي أحبها بصدق، وأنّه ستمرّ فترة طويلة قبل أن يتمكن من التغلّب على فقدانها.

جاءت مريم وعزيز من أجل المناسبة وقررتا البقاء لمدة أسبوعين. أمضيت الكثير من الوقت معهما لأن باري مشغولة بالإعداد للزفاف. وما زلت أشعر بالارتياح معهما على الرغم من أنني ابتعدت عن قيمهما. وقد أحضرتا لي بعض الهدايا. قدّمت لي مريم خاتماً ذا فص من العقيق الأحمر، أحضرته من كربلاء في العراق، حيث ذهبت لزيارة مقام الإمام الحسين، ابن الإمام علي وحفيد النبي محمد. كانت تعتزم تأجير غرفها في طهران والعيش بيت من غرفة واحدة قريب من المرقد، لمدة سنة على الأقل. قالت لي، "لم يعد بيتي كما كان عليه منذ أن أخذوك مني. إنّ مجاورتي للمرقد وصلاتي هناك يومياً ستعيد إلى نفسي الطمأنينة".

وقدّمت لي عزيز المن والسلوى، وهي حلوى مليئة بالعسل والفستق الحلبي، ولا تتوافر في الأهواز. وقالت لي إني لست مضطرة لأن أتقاسم الحلوى مع مانيجة، التي كنت قد اشتكيت منها أمامها.

قالت بصوت لطيف، "إنها تخشى أن تأخذي مكانها لدى محترم".

"لكن محترم باردة جداً معي، أيضاً".

"أنا على يقين من أنك تحبين مريم أكثر منها، وهي تشعر بذلك دون شك".

فكرت بملاحظاتها، لكنّها لم تجدني نفعاً لأنني كنت منشغلة بانعدام الأمان الذي يحيط به.

قبل الزفاف بيوم واحد، أخذت محترم باري إلى امرأة لتزيل لها شعر العانة. وهي العادة المتبعة لكل فتاة قبل الزواج. قالت باري إن المرأة وضعت مزيجاً مصنوعاً من الأعشاب على الشعر، وبعد نصف ساعة، أزالت الشعر بسهولة لكن ليس دون إحساس بالوخز.

وفي يوم الزفاف أخذت محترم باري إلى صالون للتجميل. فصفّف المزين شعر باري بشكل مجعّد، ورسم حاجباها على شكل خط رفيع، وزيّن وجهها بحمرة داكنة للشفتين، وحمرة للخدين وكحل للعينين. بدا ماكياج باري مقبولاً بالنسبة لامرأة في ليلة زفافها. وقالت باري إنّ الزفاف يجعلها تشعر كأنها على خشبة المسرح.

تلا ذلك المرحلتان التقليديتان للزواج الإيراني، وهما عادتان مستمدتان جزئياً من الزرادشتية، ديانة إيران قبل الإسلام. كان يمكن أن تستمرا عدة أيام، لكن طاهري أراد أن تكون في يوم واحد إذ كان مستعجلاً للذهاب في شهر العسل والعودة إلى طهران بأسرع وقت ممكن.

المرحلة الأولى هي العقد، أي الآلية القانونية للزواج. وقد جرت في منزلنا.

أعدّت محترم الصالون بمساعدة مريم، وعزيز، وعلي، وفاطمة، الخادمة الشابة التي تأتي كل عدة أيام، ووضعوا باقات الزهور في أنحاء مختلفة وفرشوا "سفرة" العقد على الأرض.

كان المفرش المستعمل للسفرة في هذه المناسبة موروثاً من الأم لابنتها. فقد تلقّته محترم من عزيز، وتنوي استعماله في زفاف كل من بناتها. وهو مصنوع من قماش الكشمير المطرّز بخيوط ذهبية غنية. وضعوا على السفرة أشياء رمزية: مرآة (للحظ)، وشمعتين (تمثلان الضوء الذي سينير مستقبل العريس والعروس)، وطبقاً يحتوي على سبع أعشاب والتوابل متعدّدة

الألوان (لكسر التعاويذ والسحر)، وسلة من البيض المزيّن (ترمز للخصوبة)، وطبقاً من الرمان، "فاكهة الجنة"، (لضمان مستقبل سعيد)، وكاسة فيها نقود ذهبية (ترمز إلى الثروة والازدهار). وعطّر الجو بكأس من ماء الورد المستخرج من أنواع خاصة من الورود الإيرانية. وكان هناك أيضاً مخروطان من السكر المقسّى، ليسحقا فوق رأس العروس.

وبارك الزفاف خُبز مسطح مصنوع خصيصاً للمناسبة وكتب عليه "عرس مبارك" ببودرة السكر والزعفران. بالإضافة إلى ذلك، وُضعت تشكيلة من الحلويات على السفرة ليأكلها الضيوف بعد المراسم: عسل، ولوز مغطى بالسكر، وبقلاوة، وثمار توت مصنوعة من عجينة اللوز والتوت، وبسكويت الأرز، وحلوى الحمص المطحون، وحلوى اللوز المطحون، ولوز محمص بالعسل.

وضعت نسخة مفتوحة من المصحف على السفرة أيضاً، ليبارك الله الزوجين. وقد حرصت أخت طاهري على أن يكون موجوداً (وهو ليس جزءاً من مراسم الزواج الزرادشتية الأصل). وقد سرّت مريم وعزيز بالطبع من وجود المصحف.

كان العريس أول من جلس في الغرفة على رأس "سفرة العقد"، وتبعته العروس بعد ذلك وانضمت إليه. وجاء رجل دين وكاتب بالعدل لأداء المراسم القانونية من الحفل. بعد المباركة الافتتاحية والتحدّث قليلاً عن أهمية مؤسسة الزواج، اجتمع رجل الدين مع الشاهدين. كان حسن، خال طاهري، وهو رجل طويل ضخم ذو شاربين مفتولين إلى الأعلى شاهد العريس، ووالدي شاهد العروس. أكد كلاهما أنهما يرغبان في استمرار المراسم وأنه لا يوجد أي اعتراض.

سأل رجل الدين طاهري، "هل تريد إتمام هذا الزواج المبارك"؟

أجاب طاهري، "تلك أقصى أمنياتي".

ثم سأل رجل الدين باري السؤال نفسه.

لم تجب باري على الفور. فالأصول تقضي ألا تظهر العروس لهفتها. وجعل العريس ينتظر جواب العروس يدل على أنّه هو الذي يسعى وراء

عروسه ويتلهف للحصول عليها وليس العكس. لكن أستطيع القول ثانية إن باري لم تكن تمثل دوراً هنا. فهي لا تزال متردّدة بشأن الزواج، وكان الإحساس بذلك.

كرّر رجل الدين طرح السؤال على باري ثلاث مرات وفي المرة الثالثة أجابت "نعم"، نعم بسيطة. ثم سأل رجل الدين طاهري إذا كان يدرك تماماً بأن عليه إذا أراد الطلاق، لا سمح الله، أن يدفع للعروس مهرها كاملاً، وفقاً لأحكام الشريعة. فأجاب طاهري نعم.

وقّع رجل الدين ووالدي وحسن وطاهري وباري على الوثائق وأعلن رجل الدين الشابين زوجاً وزوجة. وقال، "ليبارك الله هذا الزواج".

بعد ذلك وضع العريس والعروس محبساً في إصبع الآخر وأطعم أحدهما الآخر العسل.

حملت أنا ومانيجة كما قيل لنا، قطعة قماش فوق رأس العروس، وحملت محترم مخروطي السكر فوق القماش وفركت أحدهما بالآخر، لتحلية الزفاف. سقطت أجزاء السكر كالبلور على القماش. ثم بدأ الجميع في الغرفة بالتصفيق وتهنئة العروسين، "زواج مبارك..."..

تدفّقت الهدايا على باري، معظمها من الجواهر النفيسة التي أرسلها أو أحضرها طاهري، وشقيقته، ووالداه، وأفراد عائلته الآخرون. وأحضرت مريم وعزيز الهدايا أيضاً، وأرسل بعض الأقرباء الذين لم يحضروا الزفاف الهدايا أيضاً - غطاء سرير حريري محبوك، ومفرش طاولة ومناديل من الكتان المطرز، ومجموعة شاي فضية، وسماور.

أهدى والديّ طاهري ساعة رولكس (لم يكن من اللائق إهداء العريس أكثر من هدية أو اثنتين).

أحضر علي الشاي في أفضل أكواب الشاي لدينا، كؤوس ذات حواف مذهّبة وحوامل فضية مخرمة، وقدّمه للجميع.

ثم بعد قليل تفرّق الجميع وذهبوا ليبدلوا ملابسهم لأجل حفل الاستقبال الذي سيقام في حديقة أحد المطاعم بعد ساعتين. اعتذرت مريم

وعزيز عن عدم الذهاب إلى هذا الجزء من الاحتفال ـ لن تشعرا بالارتياح في حفل كبير لا ترتدي فيه النساء الشادور وتقدم الكحول للرجال.

زُيِّنت الحديقة بأضواء ومصابيح ملونة عُلِّقت بين الأشجار. وكان هناك نافورة ترشّ الماء الملون بألوان قوس قزح في البركة. كان القمر بدراً فانعكست أشعته الفضية على صفحة الماء.

ارتدت باري فستاناً أبيض طويلاً من الساتان المطرز عند فتحة العنق. وكان خاتم خطوبتها الماسي ومحبس الزواج الذهبي الضخم يشعان في إصبعها. وقد أحاط بالعريسين نحو مئتي مدعو ـ أصدقاء العائلة، بعضهم مع أطفالهم، وأصدقاء باري ـ وحاولوا البقاء على مقربة منهما.

نزولاً عند إصرار والدي ومحترم، ارتديت أنا ومانيجة فستانين متماثلين ورديي اللون وحذائين داكني الزرقة. استعارت مانيجة قرطي محترم الياقوتيين وقلادة العنق المرصعة بالياقوت. أما محترم فقد ارتدت فستانًا من الساتان الأزرق وحذاء أزرق حريرياً. ولم تبدُ أكبر من العروس بكثير.

قدمت الخدم السمك الأبيض والكافيار، و"الوغ" وشراباً مصنوعاً من اللبن، والشربات، وهو شراب مصنوع من الفاكهة وحبوب الهال للنساء، والمشروبات الروحية للرجال الذين يطلبونها. اختار بعض الرجال والنساء الجلوس إلى طاولات منفصلة حسب الجنس. وحرصت على عدم الجلوس مع مانيجة، فقد كنت أعي دائماً سحابة التوتر الموجودة بيننا، حيث لم تستطع أي منا في هذه المرحلة من حياتنا، تجاوز شعور الغيرة غير المنطقي المتبادل بيننا. وكان الشبان والشابات يتبادلون نظرات الإعجاب، دون التجرّؤ على أكثر من ذلك.

بدأ الخدم بتقديم العشاء ـ خروف مشوي، وأرز محلّى، وأرز بالشبث وحبوب الليما، وسمك أبيض مشوي، ودجاج بالرمّان، وكباب من لحم العجل والضأن، وسلطة شيرازية، وسلطة اللبن والخيار.

كانت السيدة داوودي والسيدة علوي، وهما من صديقتان لوالديّ تتردّدان على منزلنا كثيراً، جالستين إلى طاولتي. أخبرت السيدة داوودي السيدة علوي أنّ "جالا ستحصل على الطلاق. قد أجاز ذلك القاضي بعد أن

أحضرنا إفادة من طبيب نفسي بأن زوجها مصاب بهوس اكتئابي. لم يستطع تأدية واجباته الزوجية، حتى في الليلة الأولى. لقد عرفت جالا أنّه غير سوي منذ البداية".

سألتها السيدة علوي، "ألم تعرفي ذلك عنه، أعني عن حالته العقلية"؟

لا بد أنه كان تحت تأثير العلاج في المرّات القليلة التي رأيناه فيها قبل الزواج. بدا طبيعياً جداً، لقد عاد من أميركا حيث تلقّى تعليمه وبحث له أهله عن فتاة مناسبة. إنه وسيم، ومتعلّم، لكنه مريض عقلياً".

قالت امرأة جالسة على طاولة قريبة مِن طاولتنا إلى إمرأة أخرى، "لم تعد فتيات هذه الأيامِ كما كنّ في أيامنا. ليس لديهن القدرة على الاحتمال مثلنا. كنا أفضل حالاً، ولا نعرف سوى طريقة واحدة للحياة".

وقالت امرأة تجلس خلفي إلى أخرى، "ألم تصبح مانيجة إمرأة جميلة؟ لا شكّ أنّ أحدهم سيتلقّفها سريعاً".

سمعت مقتطفات من الحوارات التي تجري على الطاولات الأخرى.

قال أحد الشبان، "سأعمل مع والدي عندما أتخرّج".

وعلّق شاب آخر، "وأنا سأذهب إلى جامعة البوليتكنيك في طهران".

سألتني فتاة تجلس بجانبي، "هل كنتِ تعيشين مع خالتك في طهران"؟

قلت، "أجل".

"أتمنى العيش في طهران. لكن والديّ يريدان تزويجي لشخص ما. إنه ضابط في الجيش".

وانتهت إلى مسامعي أحاديث أخرى.

"هل هو في السجن؟ لا، لماذا؟ إنّه شاب لطيف".

"ربما لم تعجب أحدهم طريقته في اللبس، أو في حك رأسه".

"دعينا لا نتحدث عن أشياء حزينة. هذا حفل زفاف، اتحاد بين شخصين مدى الحياة".

قال رجل، وقد علا صوته فوق أصوات الجميع، "إنّها السموم الغربية التي تحدث هذا الاضطراب".

"إن نظرتنا إلى أميركا غير واقعية". قال رجل ذو تعابير وهيئة صارمة يقف تحت شجرة، "إذا تفحّصت البلد عن قرب تجد فيه مشاكل خطيرة. الانتحار والجريمة والعنف. لقد فقدت الروح".

قال الرجل الذي يقف إلى جانبه، "أنت مُحقّ. لا يوجد تقارب بين الناس، ولا إحساس بالعائلة. إنهم مجرد حشد مستوحد، كما قال أحد علماء الاجتماع".

حدّثتني نفسي. حشد مستوحد. ألا يرى هؤلاء الرجال المتباهون الوحدة في بلدنا؟ انظروا إليّ. انظروا إلى باري، كيف تبدو بعيدة ملايين الأميال، وهي ترتدي هذه الثياب الغالية والمجوهرات وتجلس إلى جانب زوجها الذي يرتدي بدلة سوداء.

أحضر الخدم بعد العشاء، كعكة عملاقة، كتب عليها عبارة، "عرس مبارك" بذرور ملون. وضعوه على طاولة في وسط الحديقة. وقف الجميع وصفّقوا وغنّوا، "ليبارك الله العروس، مبروك يا باشا". وبدأت بعض النساء يرقصن بعفوية فيما بينهن، وهن يلوّحن بأصابعهن ويغنين. عندما كان والدي ومحترم وبهجت يحضرون لحفل الاستقبال، بحثوا في عزف الموسيقى الراقصة لمن يريد الرقص، لكن بهجت رأت أن تشجيع الرقص فكرة سيئة، لأن بعض أقاربها المحافظين سيكونون في الحفل ولن يعجبهم أن يرقص الشبان والشابات معاً. لذا لم يرقص العريسان أيضاً.

قطع الخدم الكعكة، وقدّموها مع الشاي والشربات، وعادت النسوة إلى مقاعدهنّ. وقدّمت مع قطع الكعكة معجّنات مختلفة ومثلجات.

عند نهاية السهرة، بعد رحيل الضيوف، غادرت باري مع طاهري وأخته إلى منزلهم الكائن في الأهواز لقضاء الليلة. على أن تذهب باري وطاهري في اليوم التالي في رحلة شهر العسل إلى مدينة بابلسار على بحر قزوين، ومن

هناك إلى طهران حيث أصبح منزلهما جاهزًا. وستعيش بهجت معهما إلى أن تتعلّم باري إدارة شؤون المنزل. ثم ستنتقل للعيش مع والديه المسنين.

توجّهتُ نحو باري وتعانقنا. قلت لها، "سأشتاق إليك كثيراً".

قالت باري وقد عكس وجهها شيء لم أره من قبل، "تعلمين أنني سأشتاق إليك أيضاً". بدت كأنها في نهر، تطفو مبتعدة، هائمة على وجهها. اضطررت إلى طرد الصورة الداكنة التي راودتني بأنها تغرق. تبع ذلك وحدة موحشة. فسرعان ما ستغادر مريم وعزيز أيضًا وسأبقى وحيدة في هذا المنزل الكئيب.

الفصل الثالث عشر

مرّت الأيام، والأسابيع ولم أسمع شيئاً من باري - لا مكالمة هاتفية، ولا رسالة. أرسلت لها بعض الرسائل الطويلة لكنني لم أتلق أي جواب. وعندما حاولت الاتصال بها، انتزع والدي الهاتف من يدي، وقال، "دعيها تتأقلم مع حياتها الجديد". قلت له، "إنني قلقة. لم ترد على رسائلي".

انفجر والدي غاضباً، "هل تعتقدين بأنك تهتمين لأمر أختك أكثر مني؟"

غرقت ثانية في الحالة التي انتابتني عندما أبعدوني عن مريم وأجبرت على العيش في بيت غريب عني. صرت أغضب بسهولة وأبكي عند أقل استفزاز.

كان من الصعب جداً علي في تلك السنة قضاء أعياد نوروز دون باري. تعود جذور نوروز إلى الأزمنة الزرادشتية، هي أكبر عطلة غير دينية في إيران، تشير إلى بداية الربيع وتحتفل بتجدّد الحياة. وضعت محترم يوم نوروز "الهافت سين" على إحدى الطاولات، وهي سبعة أشياء، كل منها يبدأ بحرف سين، وترمز إلى إعادة الولادة، والصحة، والسعادة، والرخاء، والفرح، والصبر، والجمال. وعندما تجمّعنا حول الهافت سين، أعطانا والدي أنا ومانيجة المال، وهي الهدية التقليدية.

في اليوم الثالث عشر من العطلة، توجّهنا إلى المنتزه "للتخلص من الثالث عشر"، لأن من المفترض أنّ قضاء يوم في أحضان الطبيعة يجلب الحظ الجيد. كان المنتزه الواقع في ضواحي الأهواز شهيراً، ويرتاده كثير من العائلات.

جلسنا على بساط قرب جدول صغير وتناولنا كباب السمك الذي شواه علي على الفحم، والأرز بالزبيب، وبعض الأطباق الأخرى التي أعدّها مسبقاً في البيت. جلس علي تحت شجرة، بعيداً عنا، وأخذ يأكل ويراقب الحمام الذي ينقد الأرض أو يطير. كان الهواء عابقاً برائحة التوابل والورود المتفتحة، والأولاد يقفزون على الحبل أو يتأرجحون على الأراجيح المعلقة على الشجر.

بعد تناول الطعام، ذهب والدي للمشي بمفرده. وتوجّهنا أنا ومحترم ومانيجة إلى الجدول، فيما بقي علي ليحرس البساط. كان هناك العديد من الأمهات والبنات اللواتي يرمين في الجدول النباتات التي زرعنها خصيصاً لهذه المناسبة. فمن المفترض أن تكون النباتات قد جمعت كل الأمراض، والآلام، والحظ السيئ الذي قد يعترض طريق العائلات في السنة القادمة.

قبل أن ترمي محترم نبتتها، طلبت من مانيجة ومني أن نربط أوراقها الرقيقة ونتمنى أمنية، وذلك طقس للفتيات يرمز إلى رغبتهن في "الارتباط بالزواج" في السنة التالية.

بدلاً من إطاعتها ابتعدت وقصدت مكاناً منعزلاً في المنتزه. لم تحاول محترم ثنيي عن ذلك، فقد كان اهتمامها منصباً على مانيجة. عندما وصلت إلى ركن هادئ، دهشت عندما شاهدت مجيداً، حبيب باري، واقفاً قرب الماء، وفي يده قصبة صيد. كان يرتدي بنطلون جينز أميركياً من طراز ليفايز. وتتدلّى بعض خصال الشعر البنية الملتوية على جبينه. بدا حساساً ومفعماً بالحياة. حدّق بي بعينيه العسليتين الواسعتين.

سألني، "كيف حال أختك؟ هل تصلك أخبارها"؟

لم أكن أعرف ما أقول، فهززت رأسي فحسب.

قال، "أريد أن تسديني خدمة. إنّها سر. هلا تفعلين ذلك من أجل أختك".

"أجل".

أخرج مغلفاً من جيب قميصه وأعطاني إياه قائلاً، "أريدك أن تعطيها هذه الرسالة مني. أنا أعرف أنكم تأتون إلى هذا المنتزه كل سنة، لذا، أحضرته معي".

فجأة، رأيت والدي قادماً باتجاهنا برفقة رجل آخر. ولحسن الحظ أنّه كان مندمجاً في الحديث فلم يلاحظني. وضعت المغلف في كتاب الجيب الذي أحمله، وودعت مجيداً، وأسرعت بالعودة.

عندما دخلت غرفتي في وقت لاحق من ذلك اليوم، سارعت إلى قراءة الرسالة. كنت أعرف أن باري لن تمانع في ذلك. كانت رسالة مختصرة جداً، لكن مجيداً أعلن فيها حبه الأبدي لباري، وحثّها على ترك زوجها. وكتب ثانية ما بدا انه خيال، "سنهرب معا".

مزّقت الرسالة ووضعت أجزاءها في دفتري لأتخلص منها بسرعة عندما أخرج. وقرّرت أن أخبر باري عنها عندما أراها، لكن بقاءها في البيت خطير جداً.

قدمت مهواش إلى ثانوية نظام وفا في منتصف الفصل الدراسي. كان والدها الذي يعمل في بلدية طهران قد نقل إلى الأهواز. رأيتها في الفرصة تجلس على مقعد خشبي تحت المظلة، وتقرأ مجلة "ستارة" الشهرية التي تحتوي على قصة خيالية في كل عدد.

قلت وأنا أجلس إلى جانبها "إنّني مشتركة في مجلة 'ستارة'".

"هل قرأت أنهم لن ينشروا بقية رواية أردفاني"؟

"نعم، وقد أصبت بخيبة أمل كبيرة".

كان محمود أردفاني كاتباً بارعاً ومشهوراً، لكنني أحببت فصول قصته التي كان ينشرها في "ستارة"، ويرجع ذلك بشكل أساسي لأن أحداثها تجري في أميركا، وأنا شديدة الإعجاب بذلك البلد. تحكي القصة عن وقوع رجل إيراني يدرس في أميركا في حب فتاة أميركية، ويتحوّل الأمر إلى

معضلة بالنسبة إليه لأن أهله يريدون تزويجه من فتاة إيرانية. لن نعرف الآن ماذا سيحدث في النهاية.

قالت مهواش، "الملاحظة تقول إن الكاتب طلب وقف نشر القصة لأسباب شخصية. ترى ما هي هذه الأسباب"؟

"ربما تكون القصة سيرة ذاتية".

بعد ذلك صرنا نسير معاً أحياناً إلى نهر قارون ونرقب الأنشطة التي تجري على الجانب الآخر - فتيات أميركيات يركبن الدراجات الهوائية، وهو ما يُعتبر غير لائق للفتيات الإيرانيات، وشبان وفتيات يسيرون متشابكي الأيدي معاً.

كان لديها شقيق يكبرنا بسنتين. فاعترض والدي على فكرة زيارتي لها خوفاً من ثرثرة الناس بأني أزورها لأقابل أخيها. لذا زارتني هي عدة مرات بدلاً من ذلك. كنا نجلس في غرفتي ونتحدث عن أحلامنا كما كنت أفعل مع باري.

قلت لها، "أريد أن أصبح كاتبة".

"هذه معركة صعبة. تعرفين بأنك ستكونين مقيّدة في المواضيع التي تكتبين عنها، لا سيما أنك فتاة".

"سأذهب إلى أميركا، إذا استطعت إقناع والدي بإرسالي".

"أحب أن أترك إيران أيضاً، وأصبح راقصة باليه".

التحقت بعمل ترعاه المدرسة، كمعلّمة في محو الأمية للكبار مرتين في الأسبوع. كان الطلاب ينتمون إلى قطاعات فقيرة ومحرومة من سكان الأهواز، وقد استمتعت بشغفهم في التعلّم. كما أحببت استقلاليتي في كسب المال بنفسي. أصبحت قادرة على الإنفاق على مزيد من الأشياء. فاشتريت مزيداً من الكتب. كنت أتردّد على مكتبة طبطبائي مرة كل أسبوع، وأحيانًا أكثر من ذلك، وأطلب نصيحة جلال، وأحرص دائماً على التأكّد من عدم وجود أحدٍ غيري في المكتبة.

قلت له ذات مرّة، "أنت تعرف الكثير عن الكتب".

قال، "كنت أدرس الأدب في جامعة طهران". تغيّر لون وجهه وبدا عليه الألم، ثم أردف قائلاً، "اعتُقل والدي لتوزيع المناشير ومات في السجن دون أن يعرف أحد سبب الوفاة. توقفت عن ارتياد الجامعة. لم أحتمل الأمر ولم أحتمل البقاء في طهران أيضاً. لذا قدمت إلى هنا وأحضرت أمي التي لديها شقيقة في الأهواز. افتتحت هذه المكتبة، ويعجبني ذلك أكثر من الذهاب إلى الجامعة، حيث أقرأ ما أريد".

سألت جلال عن كتاب أقرأه لعلي. فقد كان علي أميّاً. اقترح جلال رواية من تأليف كاتبٍ إيراني غير معروف. وهي تسرد وقائع مغامرة رجل إيراني يسافر إلى أدغال إفريقيا وأميركا الجنوبية. يواجه الرجل حيوانات خطيرة ويتمكّن من تهدئتها والهرب منها دون أن يتعرض للأذى. كان علي يأتي إلى غرفتي في المساء مرّة أو مرتين أسبوعياً، فيجلس القرفصاء على الأرض وأجلس على حافة السرير، وأقرأ له. كانت بعض المشاهد تثير حماسة علي، فينهض ثم يجلس ويلوّح بيديه بالهواء.

أخيراً وصلتني رسالة من باري.

... أعتذر عن عدم الكتابة إليك لكن حياتي كانت مضطربة جداً، ووجدت صعوبة في الانسجام معها. سأوجز لك بعض جوانب ذلك. كنت مخطئة باعتقادي أن طاهري لن يمنعني من التمثيل. إنّه في الواقع يبقيني سجينة افتراضية منذ اكتشافه الدور الصغير الذي تمكّنت من الحصول عليه في إحدى المسرحيات التي تُعرض على مسرح لو رانغ، وتنتجها مجموعة من خريجي الجامعات الأميركية. كانوا يعرضون مسرحيات مترجمة من لغات أخرى. وكان المسرح صغيراً جداً، لا تباع البطاقات فيه إلا للمشتركين. أخبرت طاهري بأنني أريد أن أؤدّي دوراً في المسرحية، فتجاهل الأمر إلى حدّ ما. لكنه استشاط غضباً عندما أخبره أحد العاملين لديه بأنه رآني في المسرحية. فأجبرني على التوقّف على الفور. قال إنّني ألحقت به العار بالذهاب إلى مكان "سيئ السمعة". فالممثلات عديمات الأخلاق، وتلك الأماكن ليست أكثر من مجرّد بيوت للدعارة. يرتبط رأيه عن سوء السمعة بكل شيء

ذي علاقة بالترفيه، مثلما هو موقف والدي وكثير من الأشخاص غيرهما. قال إنه لم يفكر في الأمر جيداً في ذلك الوقت وها هم الناس يتحدثون عنا خلف ظهورنا. وعندما يذهب إلى العمل تأتي أخته إلى المنزل لتراقبني كأنها سجّان. لا تشيري إلى أي من هذه الأشياء عندما تراسليني لأنها هي أو طاهري قد يتسلمان البريد قبلي. هل أخبرتك أمي أو والدي أنني اتصلت بهما واشتكيت؟ كنت آمل بعد أن يسمعوا ما أقوله أن يشجعاني على العودة إلى البيت، لكن والدي قال إنني حديثة عهد بالزواج وأنّ عليّ أن أمنحه فرصة. وعندما تناولت محترم الهاتف قالت الشيء نفسه.

كنت أريد أن أفجر غضبي في وجه والدي ومحترم، لكنها كانت حبلى. وقد استحوذ عليهما ذلك. وازداد حجم محترم وتباطأت حركتها.

تذمّرتْ قائلة، "إنجاب طفل آخر في هذا السنّ! لم أعد شابة، إنّني في التاسعة والثلاثين، وما زلت أنجب الأطفال منذ كنت في الرابعة عشر". كانت تتهادى في فستان واسع مطبّع، متعرّقة، ومتوتّرة، وتشعر بالتعاسة، وتصيح بصوت حاد قائلة، "إنني أزداد حجماً، أتعتقد أنني حامل باثنين".

لم أستطع أن أفهم لماذا تركت نفسها تحبل ثانية. لكنني تذكّرت ما كان والدي يردّده دائمًا، "تحديد النسل منع للحياة". لم يكن يؤمن بالإجهاض أيضاً، وهو غير قانوني على أي حال، "إنه قتل، ولا يختلف عنه في شيء".

جاءها المخاض في وقت متأخر بعد ظهر أحد الأيام. أحضر والدي طبيباً نسائياً ـ لم يعد استخدام القابلات شائعاً في ذلك الوقت. بعد بضع ساعات خرج الطبيب من الغرفة، وهو رجل ممتلئ الجسم ومتجهّم الوجه، وتكلّم مع والدي الذي كان يجلس قلقاً على كرسي في الشرفة. قال، "علينا أن ننقلها إلى المستشفى بسرعة. ربما تحتاج إلى عملية جراحية".

نقلا محترم إلى المستشفى في المدينة. وعندما عاد والدي أخبرنا بأن محترم وضعت طفلتين توأمين. وبعد ثلاثة أيام أحضر والدي محترم والتوأمين إلى المنزل. كانت كل طفلة ملفوفة ببطانية زهرية اللون. دعانا والدي أنا ومانيجة لمشاهدة الطفلتين. أسمياهما فارزانة وفارزين. لم تكونا متماثلتين، بل مختلفتين جداً. كانت فارزين صغيرة نحيفة الوجه، ذات عينين فاتحتي

اللون، فيما عينا فارزانة بنيتان داكنتان. فتحت محترم قميصها ووضعت فارزين على أحد ثدييها وبدأت الطفلة بالرضاعة.

تمتم والدي قائلاً وهو يهز برأسه، "فتاتان أخريان أحمل همّهما".

جاءت صديقات محترم إلى البيت لرؤية الطفلتين وأحضرن معهن الهدايا. فكرت كم من المحزن أن تُرزق محترم بالعديد من الأطفال وألا تنعم مريم بأي طفل. وددت أن تأتي مريم للزيارة، لكنها لا تزال في كربلاء.

ذات مرّة، عندما كانت مانيجة تخرج من غرفة محترم، كان علي يجلس على الشرفة. التفت إلى مانيجة وقال لها، "إن لدى أمك الآن طفلتين يجب عليها أن ترعاهما".

أثار ذلك غضب مانيجة فقالت له، "كل ما تفعله هو التحديق في الحمام، حتى أنّك أصبت بالحول. هل أنت أعمى؟ كن مفيدًا وأحضر لي كوباً من الليموناضة".

لم يكن علي يبصر جيداً في الواقع. فقد أصيب بالتراخوما في إحدى عينيه ولم يكن يمكن إجراء عملية لها. بدا ضعيفاً وهو يجلس هناك، بجسده الصغير وشعره الرمادي والحول في عينيه. شعرت بالغضب من تهجّم مانيجة عليه.

قلت لها، "دعيه وشأنه". لم نكن نتحدّث معاً إلا بغضب، حتى بعد أن غادرت باري المنزل. كنّا نعيش في البيت نفسه كغريبتين.

تجاهلتني مانيجة، وقالت لعلي، "ألم تسمعني"؟ ثم ضغطت على لسانها بين أسنانها، واحمرّ وجهها.

لم يتحرك علي من مكانه.

فقالت مانيجة قبل أن تخرج، "ستدفع ثمن ذلك".

تخلّفت فارزين في النمو عن فارزانة. لم تكن تحبو، أو تبتسم أو تنظر إلى الناس كما تفعل فارزانة.

قال والدي لمحترم على الفطور ذات صباح، بعد أن غادرت الغرفة مباشرة، "تحدثت إلى الطبيب النسائي". وتابع بصوت يبدو عليه الاكتئاب، "قال إنها لم تحصل على كمية كافية من الأكسجين عند الولادة على الأرجح".

بدا التوتّر على صوت محترم وهي تقول، "أمر فظيع، كيف يمكن أن يحدث ذلك"؟

"لم يكونوا مستعدين لتوأمين. ستعاني الطفلة المسكينة من مشاكل أكثر من معظم الفتيات".

شعرت بألم شديد عند سماع ذلك. فقد تعلّقت بها وبفارزانة وكنت ألعب معهما بسعادة في أوقات استراحتي من الدرس أو القراءة أو الكتابة.

لم يكن حليب محترم يكفي لإرضاع الطفلتين، فاستأجروا مرضعة تدعى زينب. كان وجهها مستطيلاً مائلاً إلى الحمرة وشعرها مجدولاً في ضفيرتين كثيفتين. ومع أنّها صغيرة الحجم، فإنّ ثدييها كبيران ومليئان بالحليب. كانت تأتي كل يوم، تاركة أطفالها الثلاثة عند أمها. أحضرتهم معها ذات مرة، فركضوا في المنزل وحاموا حول التوأمين وهي ترضعهما. طالبت الصغيرة ابنة السنتين، أمها أن ترضعها أيضاً على الرغم من أنها فُطِمت. سمحت لها زينب بالرضاعة من صدرها وقبّلتها قائلة، "حبيبتي". وبعد أن رضعت قليلاً، تركت صدر أمها وانضمت إلى أخويها في اللعب. كانوا يلعبون ويشد بعضهم شعر بعض بمرح، ويتعانقون. تلطّخت وجوههم بالبطيخ أو عصير الكرز. وعندما تعبوا من اللعب، استلقوا على الأرض وناموا. حسدتهم على هذا الانسجام فيما بينهم.

قالت زينب عن ابنتها، "يا لها من طفلة مسكينة، يعاملها أبوها وأخواها بلطفٍ الآن، لكن ما إن تكبر وتظهر بعض إشارات الاستقلالية حتى يستقوون عليها. الرجال"!

ردّدت محترم القول، "الرجال! عندما حبلت هذه المرة ضغطت على

فخذي، على أمل ألا تخرج الطفلتين إلى هذا العالم. أليس لدي ما يكفيني من الأولاد"؟

قالت زينب، "الله الذي يهبهم لنا سيرعاهم".

حملت كل واحدة منهما إحدى التوأمين واحتضنتها وقبلتها.

كنت أجلس أحياناً مع زينب واستمع إلى القصص التي ترويها عن قريتها. كنا نضع التوامين في أرجوحة شبكية تتدلّى من شجرتي نخيل في الفناء ونهزها فيما نتحدث.

قالت لي، "أنت فتاة مسكينة، أمك تعاملك بشيء سيئ. على الأمهات أن يكنّ لطيفات مع بناتهن. لدى البنات ما يكفيهن من المشاكل". كيف لاحظت أن محترم تنحاز إلى جانب مانيجة كلما تشاجرنا؟ كانت زينب تقدّم لي الهدايا - منديلاً طرزته بنفسها، ومزيجاً من الورود التي جفّفتها في الشمس.

سمعت زينب ومحترم ذات يوم تتحدثان في الفناء، وهما تدفعان عربة الطفلتين نحو الباب الخارجي. اشتكت محترم من المسؤوليات التي تحملتها طوال عمرها لأنها أنجبت هذا العدد الكبير من الأولاد. كانت الشكوى المعتادة. لكنّها أضافت هذه المرة، "ناهيد تعاملني كأنّني عدوتها".

هزّني قولها. ترى هل يمكن أن أكون أنا من بدأ هذا النمط من البرود فيما بيننا؟ هل أنا من صدّها في اليوم الأول عندما أحضرني والدي إلى المنزل، منذ سنين؟ تذكرت حادثة حصلت فوراً بعد إحدى زيارات مريم. كنت جالسة مع محترم أتناول الفطور بصمت، دون أن أنظر إليها، أو أوجّه إليها أي كلمة. قالت لي فجأة، "ألست أنا أمك، ولو قليلاً"؟ ذهلت من سؤالها حتى إنّني لذت بالصمت. ثم نهضت وغادرت. شعرت، في قرارة نفسي، أنني سأخون مريم، إذا تقربتُ من محترم، مع أنّ مريم لم تحاول أن تؤلّبني على أختها.

الفصل الرابع عشر

كنت أستطيع سماع صوت والدي من الفناء وهو يصرخ، "اخرجي، لا تجعليني أكسر الباب".

أسرعت صاعدة الدرج إلى حيث يقف والدي قرب باب غرفة باري سابقاً.

صاح قائلاً، "هذا جنون، تتركين زوجك الوسيم والغني وتعودين إلى المنزل. ماذا دهاك"؟ ثم مشى مبتعداً وهو يهزّ رأسه بغضب.

وضعت يدي على مقبض الباب، وناشدتها، "أرجوك يا باري، دعيني أدخل". فتحت الباب بالقدر الذي يسمح لي بالدخول. ثم ألقت بنفسها على السرير ودفنت وجهها في وسادتها. صرختُ مذعورة عندما رأيت بقع دماء على الوسادة والشراشف.

شهقت وأنا أضع يدي على رأسها وسألتها، "ما الأمر؟ أنك تنزفين".

"ينتابني رُعاف بين الحين والآخر".

دخلت محترم وهي تحمل منشفة وكوباً من عصير البرتقال. جلست على حافّة السرير وأخذت تمسح أنف باري بالمنشفة.

"ألم أقل لك يا حبيبتي أن الزواج صعب في البداية؟ أمضيت معه سنة أو أكثر قليلاً وها أنت في المنزل تشتكين". ثم رفعت وجه باري ووضعت كوب العصير على شفتيها.

علا صوت فارزين وفارزانة بالبكاء في غرفتهما، فتركتنا محترم لتعتني بهما.

قالت لي باري، "أبلغت والدي بأنني لا أريد العودة. لكنه بدأ بالصراخ في وجهي، فأقفلت الباب على نفسي".

تلاشت رائحة الورد من غرفة باري منذ زمن، لكن كان بوسعي الإحساس بوجود مجيد بعد أن عادت باري. همست قائلة، "باري، لقد أعطاني مجيد رسالة لك، لكنني مزقتها. خفتُ أن يراها والدي". أخبرتها عن لقائنا في المنتزه وفحوى الرسالة.

قالت باري وقد احمرّ وجهها، "أريد الطلاق. لم أعد أطيق العيش مع طاهري يوماً آخر".

كان يوماً منعشاً من أيام تشرين الأول/أكتوبر في الأهواز، فهذه المنطقة تشهد فصلين في السنة عادة، الشتاء والصيف فقط. فخرج الناس للتسوق، أو النزهة، أو الجلوس في المقاهي.

قالت باري عندما وصلنا إلى النهر وبدأنا نسير على الجسر، "ربما لو سُمح لي بالزواج من مجيد لوجدتُ عيوباً كثيرة فيه. لكنني أجده الآن مثالياً لأنني مُنعت عنه. عندما أستيقظ كل صباح، يمتلئ قلبي رغبة في لقائه، وأشعر بالحزن عندما أجد طاهري إلى جانبي في السرير. لكنّ قلبي لن يصفو لطاهري حتى لو لم يكن هناك مجيد. إنّه كذاب. لقد نكث كل الوعود التي قطعها لي. إنّه يخرج ويعاقر الخمر حتى الثمالة بعد أنّ ادعى أمام والدي بأنه لا يشرب. يستاء من أبسط الأمور ويثور غضبه". توقّفت عن الكلام لحظات ثم تابعت، "يجب أن أجد طريقة ما للخروج من هذا الزواج".

"كل ما أتمناه الآن يا باري الذهاب إلى أميركا للدراسة. إذا حصلت على الطلاق يمكنك أن تضعي هذا الهدف نصب عينيك أيضاً. يجب أن نحاول كسر إرادة والدنا".

أخذ الجسر يزدحم بالشبان. كان الشبان والشابات يسيرون منفصلين. فيراقب الشبان الشابات ويتنهّدون بصوت مرتفع. ويستند بعضهم إلى السياج ويحدقون في الماء المتدفّق تحتهم.

فجأة، لاحظتُ مجيد، بمفرده، وهو منحن على السياج. لحظته باري أيضاً، فاحمرّ وجهها على الفور. وعندما لمح باري، احمرّ وجهه أيضاً. وقفنا بقربه مدة كافية ليهمس شيئاً لباري.

هزّت باري رأسها استجابة لشيء قاله ثم بدأنا نعود أدراجنا. أخيراً قالت لي، "يريد أن يقابلني. لا أعرف إذا كنت سأتمكّن من ذلك".

أُنيرت أضواء الشارع الواحد تلو الآخر فأسرعنا بالمسير.

قال والدي عندما رجعنا إلى البيت، "أنت امرأة متزوجة يا باري وقد أتيت إلى البيت من دون زوجك". كان يجلس على الشرفة ويستمع إلى صوت الراديو القادم من الصالون. "يجب ألا تتمشي على الطرقات. لا أريد سبباً للقيل والقال. أريدك أن تعودي إلى زوجك بأسرع ما يمكن".

تحاشت باري النظر إلى عيني والدي وتوجّهنا إلى غرفتها.

قالت باري، "لا ينفكّ طاهري يقول إنني إذا منحته صبياً فستصبح الأمور على ما يرام فيما بيننا. كأنّ لدي القدرة على إنجاب صبي ذكر. إنّني لا أريد أطفالاً على أي حال، لا أريد أن أصبح آلة للإنجاب كأمي. ولا أريد طفلاً منه".

نظرتُ إلى صور الممثّلات المعلّقة على الحائط. فلا تزال غرفة باري على حالها كما تركتها.

أطرقت باري رأسها وقالت، "كنت أظنّ أن حياتي في البيت رهيبة لأنّ والدنا يملي علينا ما نفعل ومحترم تولي اهتمامها لمانيجة. لكنّها جنّة مقارنة بحياتي مع طاهري. والدنا لا يتعمّد القسوة البتة. لكن طاهري سادي. لقد حرق ذراعي بسيجارة مشتعلة".

رفعت باري كمّ قميصها وأرتني ذراعها. بدت عدة ندوب صغيرة على ذراعها. غار قلبي عندما رأيت ذلك وسألتها، "هل أريت ذراعك لوالدنا"؟

"حاولت، لكنه تجاهل الأمر. طاهري يعذبني نفسياً أيضاً يا ناهيد. إنّه يريدني أن أطهو وأكوي ثيابه بطريقة معينة. يريد الطعام كما كانت تطهوه أخته. وأي انحراف عن ذلك يثير غضبه. كما أنّ أخته تأتي إلى المنزل كل

يوم تقريباً، وتوجّه لي الانتقاد أيضاً لأنّني لا أعرف شيئاً عن الأعمال المنزلية".

كان علي وفاطمة يُعنيان بالأعمال المنزلية في بيتنا، في حين تتولّى محترم الإشراف عليهما فقط. لم يكن والدانا يعتقدان أنّ على بناتهما أن يقمن بالأعمال المنزلية لأنهما يتوقعان أن يتزوجن من رجال لديهم القدرة على تحمل نفقة الخدم.

"ما نفع ثروة طاهري؟ إنّنا لا نعيش في حي راقٍ، بل في قسم كئيب من المدينة. كما أنّ المنزل موحش ومعتم. وليس هناك من يساعدنا سوى أخته. فطاهري يحب استثمار أمواله، وليس هناك شيء منها باسمي بالطبع. ولا ينفع المهر إلا إذا رغب هو في الطلاق. إنّنا لا نستقبل الأصدقاء البتة، ولا يزورنا سوى أقرباء طاهري الكثر. إنهم مملّون، ويفتقرون إلى الطموح. ينظرون إليّ كأنني قادمة من كوكب آخر، فأنا في نظرهم طائشة وغير عملية".

"كيف تدبّرت القدوم إلى هنا بدون زوجك يا باري"؟

"لم أخبره بأنني قادمة. فقد سافر إلى خرج حيث يمتلك متجراً هناك أيضاً. تركت له ملاحظة فحسب. إنّه يعطيني علاوة أسبوعية 'للنفقات الطارئة' وقد وفّرتها ومن ثم تمكّنت من شراء تذكرة سفر بالطائرة". ليتني أستطيع العمل لأحصل على بعض الاستقلالية، لكنه يرفض ذلك رفضاً قاطعاً. فهو يرى أنّني أنتقص من كرامته كرجل ومعيل إذا عملت. وقد بلغ به التسلّط حدّ أنّه لا يريدني أن أتعرّف على أشخاص لا يعرفهم. لا أستطيع التحدث إليه عن أي شيء يا ناهيد. فهو لا يهتم بالسينما أو المسرح أو الكتب. إنّني أكره حياتي. ليس فيها سوى الأعمال اليومية الرتيبة التي لا تنتهي، الإيقاع الممل نفسه يتكرّر كل يوم".

بعد عدة ساعات استيقظت على أصوات اعتقدت أنّها صادرة عن الزيزان البرية، لكن تبيّن لي أن باري تنتحب. فقد غفوت على أرض غرفتها، وعلى

ضوء أشعة القمر المتسللة من ستائر النافذة لاحظت أنّها لا تزال نائمة. أيقظتها بلطف، "باري، هل ينتابك كابوس"؟

فتحت عينيها ببطء وجلست، "كنت حبلى، لكن الأمور لا تسير على ما يرام. فرميت نفسي على درج شديد الانحدار من شدة يأسي".

ربتُّ على ظهرها. وما لبثت أن استلقت وأغمضت عينيها كأنها لم تستيقظ تماماً.

قال والدي لباري في صباح اليوم التالي على الفطور، "سيأتي زوجك ليعيدك. وذلك يُظهر مدى اهتمامه بك. لقد تحادثنا على الهاتف".

قالت باري، "لن أعود معه. أكرهه، وأريد الطلاق منه".

أجابها والدي ببرود، "عليك أن تمنحيه فرصة".

"منحته ما يكفي من الوقت".

"هل تريدين أن تخسري مهرك، ملايين التومان التي بذلنا جهداً مضنياً في التفاوض عليها؟ تعلمين أنك لن تحصلي على ريال واحد إذا طلبت أنت الطلاق. وماذا سيقول الناس عنا إذا عدت إلى البيت؟ هل تريدين أن تلحقي بنا العار؟ لماذا تكرهين رجلاً يهتم بك إلى هذه الدرجة"؟

"لا أريد ذلك المال. إنّني عبدة لديه بسبب المال. إنّه يعرف بأنني سأخسره لذا يبقيني سجينة لديه. إنّه مجنون". أخفت باري رأسها بين يديها وبدأت بالبكاء.

قلت، "باري تعيسة معه يا أبي".

التفت إليّ وقال، "لا تحتاج باري إليك للدفاع عنها". كانت قسمات وجهه ملتوية من الغضب. ثم التفت إلى باري وقال، "إنّه قادم إلى الأهواز، ربما يصل الليلة. استعدي لتعودي معه".

استيقظت من نومي المضطرب على صوت طرقات قوية على الباب الخارجي. تسلّلت إلى الشرفة على رؤوس أصابعي.

سمعت علي في الفناء يقول لطاهري، "إنهم نائمون يا آغا".

اقترب والدي من صهره وقال له، "آسف جداً يا طاهري، على أن أعترف بأن ابنتي مدلّلة، تحمّلها. ستنضج حتماً".

قاده والدي إلى غرفة الضيوف، غرفة سايرس سابقاً.

في صباح اليوم التالي دعا باري إلى الصالون حيث كان طاهري ينتظر. راقبت باري وهي تدخل الغرفة وتغلق الباب خلفها.

في وقت لاحق قالت لي، "ركع طاهري على ركبتيه أمامي واعتذر ورجاني العودة معه. لقد قطع كل أنواع الوعود. وسأمنحه فرصة أخيرة".

لم يكد يمضي ذلك اليوم حتى كانت قد رحلت.

الفصل الخامس عشر

وجدت رسالة من برويز على طاولة المطبخ.

والدي العزيز،

أميركا بلد واسع جداً، تستطيع أن تجد فيه كل ما تريده. كل ما فيها فخم وجميل - مبانٍ شاهقة الارتفاع تكاد تعانق السماء، وسهول واسعة وخصبة، وجبال، ووديان مليئة بالجداول المتعرجة. عندما تسافر من مكان إلى آخر، تتغير المشاهد الطبيعية بشكل دائم ومدهش. وفي المساء تتلألأ الشوارع بالأضواء الساطعة. هناك الحرية واسعة، وكثير من الخيارات حتى أنّ من الصعب أن أحيط بالأمر كله. وفي أميركا يمكنك أن ترتقي عالياً إذا كنت راغباً في الاجتهاد والمثابرة. ويمكنك أن تصبح ما تريد، وتجد الأشخاص الذين تريد أن ترافقهم وتتعلم منهم.

ابنك المحب، برويز.

كانت فكرة أن يوافق والدي على إرسالي، أنا الفتاة، إلى أميركا تبدو سخيفة. لكن رسالة برويز أشعلت الرغبة في داخلي.

بدأت أبذل مزيداً من الجهد في الدراسة، وأسعى لن أكون الأولى في صفي، على أمل أن يدفع نجاحي الأكاديمي والدي إلى أن يتعاطف مع قضيتي. لم يكن من الصعب عليّ أن أكون الأولى، إذ إنّ قلّة من الفتيات كنَّ يأخذن الدرس على محمل الجد.

في نهاية السنة الدراسية شاهدت إعلانًا معلّقاً على لوحة الإعلانات قرب مكتب المديرة بأنني الأولى في صفي. عندما رجعت إلى البيت، وجدت

والدي ومحترم ومانيجة في الصالون. كانت محترم تطرّز جدارية جديدة، ومانيجة تجلس قربها على كرسي وتتحدث إليها. فيما كان والدي يجلس في زاوية أخرى، يستريح من العمل ويستمع إلى الراديو.

أعلنت قائلة، "أنا الأولى في صفي".

فقال والدي، "عظيم. لكن أرجو أن لا تحبسي نفسك في غرفتك لا عمل لك سوى الدراسة". والتفت إلى الراديو لمتابعة نهاية الأخبار التي كانت تتحدّث عن ارتفاع عائدات النفط في إيران.

تجاهلت محترم ومانيجة ما قلته. حاولت أن أقنع نفسي بأنهما لم تسمعاني، لكنني لم أقتنع بذلك. تركت المكان، وتوجّهت إلى غرفتي، وبكيت.

بدأت أراسل برويز طالبة منه المساعدة.

●

قالت لي السيدة سليماني عندما بدأت السنة الدراسية الجديدة، "أداؤك الدراسي ممتاز، لا أدري سبب ضعف أداء مانيجة".

"إنها لا تهتم بالدراسة". كنت صادقة في قولي. فكل ما تركّز عليه مانيجة، وهي في السابعة عشرة الآن، هو الزواج. وكانت محترم تضيف المزيد من الأشياء إلى مهرها الذي بدأت تعدّه بعد أن تزوّجت باري. لم يقع اختيار والدي ومحترم على أي من الأشخاص الذين بدؤوا بالتقدم لطلب يدها، لكنهما كانا يتوقعان إيجاد الشخص المناسب قريباً.

قالت السيدة سليماني. "لقد بدأت إذاعة جديدة بالبث عبر أثير الراديو. إنهم مهتمون بالقصص التي يؤلفها التلامذة. لمَ لا تعطيني القصة التي كتبتها عن الأم والطفلة العمياء. سأرسلها إليهم".

تمنيت لو أنّني أستطيع نقل هذه الأخبار إلى مريم، لكن لم يكن بوسعي الاتصال بها منذ ذهابها إلى كربلاء.

كتبت رسالة إلى باري، فردّت عليها بسرعة هذه المرّة.

سررت كثيراً بأخبارك، أنت تستحقين ذلك... هناك كثير من الأشياء التي أريد أخبارك عنها، لكن يصعب علي ذلك الآن. ما زلت أحاول إصلاح الأمور.

قال لي والدي بعد أن طلب مني قراءة القصة، "تعرفيني أن هذا النوع من القصص يمكن أن يوقعنا في المتاعب. ستفسر على أنها نقد اجتماعي. وسيعود ذلك بالمتاعب على معلمتك والإذاعة أيضاً. كان يجدر بك أن تطلعيني عليها قبل أن ترسليها، عليك أن تطلعيني على كل شيء من الآن فصاعدًا".

فقدتُ دفاتري المدرسية في أحد الأيام.

سألتُ مانيجة فيما كنا نسرع إلى غرفتينا من الشرفة، "هل أخذت دفاتري"؟ كان ذلك في يوم بارد من أيام كانون الأول/ديسمبر، وهو واحد من الشهرين أو الثلاثة أشهر التي تتدنى فيها الحرارة في الأهواز إلى درجة التجمّد أحياناً. كانت المدافئ مضاءة في كل الغرف الآن بدلاً من المراوح.

فقالت، "ولماذا أفعل ذلك"؟

توجّهت إلى والدي الذي كان يتجول على الشرفة قبل أن نصل أنا ومانيجة إلى غرفتينا، "لقد أخذت دفاتري، أنا متأكدة من ذلك".

فردّت محترم التي ظهرت فجأة، "لا تسوقي التهم من دون دليل، لماذا تكرهين أختك إلى هذا الحدّ"؟

"أعرف أنها أخذتها، تريدني أن أرسب".

قال والدي، "لِمَ لا نحظى البتة بلحظة سلام في هذا البيت؟ ولداي يتدبّران أمورهم جيداً، لكن البنات هنّ من يسببن المشاكل دائماً".

تجاهلت تعليقه، "لدي امتحانات بعد يومين وقد اختفت ملاحظاتي. كانت الدفاتر على مكتبي". ثم التفت إلى مانيجة، "سأفتش في غرفتك".

صاحت في وجهي، "إياك أن تتجرّئي على القيام بذلك. لست لصّة".

"توقفا كليكما"! كان والدي حريصًا على عدم التحيّز إلى أحد عندما تنشأ الخلافات بيني وبين مانيجة.

رأيت الأنوار مضاءة في مكتب والدي تلك الأمسية. كانت السماء تمطر

برَداً في الخارج، وحبّات البَرَد تطرق على النافذة، وأعالي الأشجار. أسرعت إلى باب مكتبه وقرعته. سمعت صوته يأذن بالدخول، ثم رفع رأسه عن عمله، وقال، "ما الأمر"؟

بدأت أسعل تلك السعلة العصبية التي ما زالت تنتابني أحيانًا.

"كفّي عن ذلك. ماذا الأمر"؟

توقفت أخيراً وقلت، "أريد الذهاب إلى الجامعة في أميركا مثل شقيقيّ".

"أنت تعرفين الجواب مسبقًا. لا"!

فجأة لم تعد ردّة فعله تعنيني، فصحت قائلة، "أنت أعدتني إلى هنا، ومحترم تكرهني".

صاح قائلاً، "أنت هنا منذ سنين عديدة وما زلت تنادينها محترم بدلاً من أمي". ثم رقّ صوته وهو يتابع قائلاً، "ما تأثير ذلك عليها برأيك"؟

تجنّبت الرد على سؤاله وقلت، "مانيجة تكرهني أيضاً".

"ألا تعرفين أن لهذه الأمور وجهين؟ لدي عمل أنهيه. اذهبي إلى غرفتك. وتذكري، لا تكتبي البتة قصصاً كتلك القصّة". نظر بعد ذلك إلى كتاب القانون السميك المفتوح على مكتبه.

بعد عدة أيام وجدت دفاتري المدرسية ممزقة في خزّان المياه تحت الحمّام القديم الذي لم يجدّد قطّ ولا نستعمله البتة.

●

كان محمود أردفاني، الكاتب الذي نشر جزءاً من روايته في مجلة "ستارة"، يعتزم زيارة الأهواز في زيارة عمل. وكان يريد استشارة قانونية من والدي وسيبيت عندنا ليلة واحدة. فلديه هو ووالدي صديق مشترك منذ سنوات الدراسة الجامعية.

سألت والدي عندما تحدّث مع أردفاني ونحن نتناول الفطور، "هل أستطيع مقابلته"؟

"لا ضرر في ذلك على ما أعتقد. إنه كاتب مثير للجدل".

"هل أستطيع دعوة صديقتي مهواش"؟

"افعلي ذلك".

بحثت في المدرسة عن مهواش وأخبرتها عن زيارة أردفاني. فقالت، "ذلك رائع لا أصدق أنه سيبيت في منزلكم حقًا".

"ستأتين إلى منزلنا وسنقابله معاً".

ذهبنا بعد الدروس إلى كافيه دو بارك وتناولنا المثلجات. جلسنا تحت ظل مجموعة من الأشجار لنتحدث عن أردفاني. فقد نشر للتوّ رواية جديدة تساءلنا إذا كانت تتضمن بعض مواضيع الرواية التي قرأنا مقاطع منها في مجلة "ستارة".

قالت مهواش مقترحة، "يجب أن تحضر كل منا نسخة من الرواية ليوقعها لنا".

دخل عدة أشخاص مألوفين إلى المقهى، منهم الشاب الذي يرتدي قميصاً أصفر وربطة عنق سوداء وينتظر مرور الفتيات عند نواصي الشوارع، وشاب آخر، طويل وهزيل، يتمشى دائماً قرب مدرستنا عندما لا يكون أحد من المسؤولين لإبعاده. وكان الشبان يلاحقوننا أحيانًا من شارع إلى آخر. أدرنا ظهرينا إليهم وتابعنا الحديث عن أردفاني.

قالت مهواش، "لا أعرف ماذا سأقول له".

"لا يسعني أن أتصوّر أنني سأقف أمامه وجهاً لوجه".

تركنا المقهى أخيراً وذهبت كل منا في طريقها. لاحظت في البيت أن محترم بدأت الإعداد بالفعل لزيارة أردفاني، مع أنّه لن يصل قبل أسبوع. فعمدت، بمساعدة علي، إلى تحضير غرفة الضيوف لكي ينام فيها، وخططت ما ستقدم من طعام على الفطور والغداء. اشتكت محترم قائلة لعلي، "لا أدري لماذا يجب علينا استقباله. فبوسعه أن ينزل في فندق".

يوم وصول أردفاني، خلعنا أنا ومهواش زيّنا المدرسي الرمادي الذي كنا نرتديه قبل أن نغادر المدرسة متوجهتين إلى البيت. كان الوقت في بداية فصل الخريف، فارتديت فستاناً قطنياً مطبّعاً بتصاميم فراشات برّاقة، فيما كان فستان مهواش مزيناً برسوم لأوراق الأشجار. توقفنا في طريقنا في مكتبة طبطبائي واشترت كل منا نسخة ذات غلاف صلب من آخر روايات أدرفاني.

عندما وصلنا إلى البيت، صعدنا إلى غرفتي بانتظار أن ينادينا والدي للقاء أردفاني. بعد وصولنا بقليل، جاء والدي ووقف على الباب.

"ألا تتعبان من الثرثرة؟ تعاليا إلى الصالون".

لحقنا به كل منا تحمل كتابها.

كان محمود أردفاني يجلس على الأريكة بمفرده وفي يده كأس عرق. كان يبدو مماثلاً لصورته المطبوعة على قميص أحدث كتبه، ذا عينين داكنتين نافذتان وشعر كثيف داكن. كان يرتدي قميصاً أصفر لامعاً مفكوك الأزرار العلوية، وسروالاً كاكياً غير رسمي، وقد بدا ذلك متناقضاً مع بدلة والدي. قدّمنا والدي لأردفاني الذي حيّانا بحرارة.

التزمنا بالصمت. شعرت برعشة في داخلي من مجرد وجوده، وبدا الجو حولي مشحوناً. خانني الكلام الذي حضّرته مثل، "كم كنت أتمنى أن نعرف ما حصل في الرواية التي نُشرت في..." أو، "إنني سعيدة لوجودي مع كاتب،" ونظرت نحو النافذة.

أخيراً تمكّنت من القول، "إنني مسرورة جداً لمقابلتك بعد أن قرأت أعمالك".

قال، "شكرًا لك، أشعر بالإطراء". ونظر إلى مهواش.

فقالت مهواش وقد احمرّ وجهها، "إنّني سعيدة بلقائك".

لاحظت أنّ كلاً منهما نظر إلى عيني الآخر مدة طويلة.

سألنا أردفاني، "هل أنتما زميلتين في صف واحد".

قلت، "نعم، وطالما أعجبتنا أعمالك".

"يسعدني أن أعرف أنّ بين قرّائي فتيات جميلات مثلكما".

رفعت مهواش الكتاب الذي كانت تحمله ليتمكن من رؤيته.

فابتسم وقال لي، "أرى أن لديك نسخة من الكتاب نفسه، هل تريدان أن أوقّع عليهما"؟

أومأنا برأسينا أنا ومهواش.

أخذ الكتابين وفكّر برهة. ثم كتب شيئًا في كتاب وشيئًا آخر في الكتاب الثاني. وأعاد لنا الكتابين قائلاً، "أريد منكما خدمة. لا تقرآ ما كتبت الآن، وفّرا ذلك إلى وقت لاحق".

أومأنا برأسينا.

"اجلسا. أخبراني عن الكتب الأخرى التي تقرآنها".

جلسنا.

قالت مهواش، "نقرأ حافظ وسعدي في المدرسة".

وقلت، "ونقرأ 'الأهواز الشهرية' و'ستارة'".

"عظيم. لم أكن أعرف أن الفتيات الجميلات مثلكما يهتمين بالقراءة".

بدا الضيق على والدي فقال، "لدينا أعمال نناقشها أنا والسيد أردفاني. يؤسفني القول إنّنا لن تناول الطعام هنا الليلة. علينا مقابلة شخص ما".

وقفت أنا ومهواش.

فقال أردفاني مبتسماً، "سرني لقاؤكما كثيراً".

راقبناهما وهما يغادران، ثم أسرعنا إلى غرفتي لقراءة ما كتبه على كتابينا.

كتب لي:

استيقظت ذات يوم وأدركت أنني وقعت في حب فتاة ذات شعر أسود وعينين داكنتين ولديها شامة على شفتها العليا. الآن كلما شاهدت فتاة تشبهها، تذكرت ذلك الحب البعيد ووقعت في الحب ثانية.

وكتب لمهواش:

جمالك الأثيري سيبقى دائماً الغذاء الذي يُلهم خيال الشاعر.

فقالت مهواش، "لقد أعجب بك أكثر مني".

"يبدو لي أنّ ما كتبه لك أفضل، إنّه أكثر بلاغة".

"إنه موضوعي جداً".

فقلت، "ظلّ يحدّق بك طوال الوقت تقريباً".

جافاني النوم في تلك الليلة. تقلّبت في سريري كثيراً ثم نهضت في النهاية وتوجّهت إلى النافذة. كان هواء الليل عليلاً ومنعشاً، والسماء مرصّعة بعددٍ لا يحصى من النجوم. كان بوسعي رؤية النور مضاء في غرفة أردفاني. فتساءلت إذا كان يقرأ أو أنه قد نام والنور مضاء. فكّرت في التسلّل على رؤوس أصابعي إلى غرفته، والتحدّث إليه، ليكون لي وحدي.

في المدرسة في صباح اليوم التالي، بدت مهواش باردة وغير ودودة. بقيت بمفردها طوال اليوم. بدا أنّ عينيها تركزان على منظر لم يعد بوسعي رؤيته.

مرّ أسبوعان دون أن تكلّم إحدانا الأخرى. ثم صادفتها واقفة على جسر نهر قارون، وهي تحدّق في الماء. كانت ترتدي الفستان الذي ارتدته يوم قابلنا محمود أردفاني. مشيت نحوها ووقفت إلى جانبها.

أمسكت بيدي قائلة، "أنت"!

سألتها، "لماذا تتحاشيني"؟

"لا يوجد سبب".

"أخبريني أرجوك".

قالت مهواش بعد صمت طويل، "يجب أن تعرفي، أنّ ذلك بسبب ما حصل مع أردفاني. ما كتبه لك كان نابعاً من داخله بعفوية. وقد حسدتك على ذلك كثيراً. وكان عليّ أن أتحاشاك إلى أن تذهب هذه المشاعر". كان صوتها يبدو خاوياً وبعيداً. شعرت بقشعريرة وأنا أستمع إلى صوت لا أكاد أعرفه.

تدبّرت أن أقول لها، "ذلك أمر سخيف".

تابعت مهواش قائلة، "عندما كنا في الغرفة معه، وددت كثيراً أن تخرجي من الغرفة، أنت ووالدك. أردت أن أبقى وحدي مع أردفاني".

فكرت بأن الأحاسيس نفسها راودتني أيضاً. فقلت لها، "هذا كله ينتمي إلى الماضي".

ساعدنا الاعتراف على استئناف صداقتنا ولم نشاهد أردفاني ثانية.

الفصل السادس عشر

كان جواد غولستاني يعيش في عبادان، وهي مدينة تضمّ مصفاة للنفط وتبعد ساعتين بالسيارة عن الأهواز. كان طبيباً وسيماً متحدّراً من عائلة جيدة - يعيش بعض أفرادها في الأهواز، وهم الذين لاحظوا مانيجة في البداية. كان طويلاً ذا بشرة داكنة وعينين خضراوين غير مألوفتين تميلان إلى البنفسجي، فضلاً عن أنف معقوف يضفي على مظهره مزيداً من الوسامة.

كانت مانيجة مستعدّة للموافقة على أي رجل يقبل به والدانا، إذ لديها ثقة مطلقة في حكمهما، لكن يبدو أنّها كانت واقعة في حبّ جواد من بعيد. لم يكن سبب ذلك مظهره الوسيم فحسب. فمع أنها لم تكن مولعة بالدراسة، فإنّها أعجبت به لأنّه متعلم ولأنّ طريقة كلامه تنمّ عن سعة معرفته.

قالت لمحترم، "لديه كل شيء، الوسامة والعلم". كانت منشغلة بزواجها الوشيك حتى إنّها رسبت في امتحانات نصف السنة. فقرّرت التوقّف عن الدراسة عوضًا عن إعادة الامتحانات، مع أنّها في سنتها الأخيرة في الثانوية. خالفها والدي ومحترم الرأي معتقدين أن عليها إكمال سنتها بما أنها توشك على التخرّج، لكنّ مانيجة لم تجد أي جدوى في ذلك. لم تكن تحب الدرس وكانت صديقاتها يتركن الدراسة الواحدة تلو الأخرى للزواج. وها هي مانيجة تمضي معظم وقتها الآن في التأنّق أمام المرآة.

لكنني أدركت بعد ذلك وجود توتر يحيط بعرض الزواج. سمعت محترم تقول لوالدي، "إن والدة جواد لا تني تؤجّل موعد الخطوبة. فهي تقول شيئاً ثم تتبعه بشيء آخر". لم أستطع سماع ردّ والدي. لكنّ محترم أبلغت والدي في اليوم نفسه، "ستستاء مانيجة جداً إذا تراجع جواد".

كان التوتر يخيّم على الجو كلما ذُكر اسم جواد أو أمه في البيت.

كانت فكرة زواج مانيجة ومغادرتها المنزل تشعرني بالراحة والخوف في الوقت عينه. فسيأتي دوري من بعدها.

مانيجة

حاولت ثانية التحدّث مع والدي في موضوع إرسالي إلى أميركا، فأخبرته عن أدائي الجيد في امتحانات نصف السنة وذكّرته بأنني كنت الأولى في صفي السنة الماضية. لكنه تجاهلني.

كتبت مزيداً من الرسائل لبروين، ورجوته أن يحاول إقناع والدي بإرسالي إلى أميركا. لكنني لم أتلق أي ردّ.

كنت أقف وحيدة على ضفة النهر عندما أعادني صوت نكوري من أحلام اليقظة إلى أرض الواقع، "سلام، هالت تشيتورة".

غالباً ما كنت أرى هذا الشاب في الطريق إلى المدرسة، فنتبادل النظرات في بعض الأحيان. كانت عيناه زرقاوين وكان من الواضح أنه نصف أجنبي.

سأل، "هل تذهبين معي في نزهة بالقارب"؟

وافقت، دون أن أعطي نفسي وقتاً للتفكير، أو أسمح للخوف من فعل شيء ممنوع أن يتملّكني. أخبرني أنّ اسمه جيمس.

كانت قوارب التجديف المعروضة للإيجار راسية على ضفة النهر، ولم يكن في الجوار أحد، سوى الصبية العرب الذي يمتلكون القوارب. استأجر جيمس قارباً، وأبلغ الصبي أنّه يريد التجديف بنفسه. ثم أخذ يدي وساعدني في ركوب القارب. كانت المياه تتلألأ كالذهب في ضوء الشمس. لم يسعني أن أصدّق أنّني تجرّأت على ركوب قارب مع هذا الشاب في وضح النهار.

قال جيمس إن والده بريطاني وأمه إيرانية، وإنّ والده يعمل في شركة نفط، "سأعود إلى إنكلترا إذا تمكنت من دخول كلية للسينما هناك".

ساعدني في النزول من القارب عندما وصلنا إلى الجانب الآخر من النهر، ثم ربط القارب بشجرة. أمسك بيدي ومشينا في شارع خلفي هادئ وفارغ. كان الجو قد اعتدل قليلاً، بعد أسابيع من الحرّ الشديد، على الرغم من أننا في شهر نيسان/أبريل. فقد انحسرت الرياح الحارة الرطبة الآتية من شط العرب، وهبّ مكانها النسيم العليل من نهر قارون. كانت النساء الأميركيات يجلسن في حدائق منازلهن المصممة على الطراز التيودوري، يشربن من أكواب طويلة. ومر من أمامنا فتى أميركي وفتاة، يضحكان دون أن يباليا بما حولهما.

ناهيد على ضفة نهر قارون

دخلنا بعد عدة دقائق منتزهاً مليئاً بالنخيل وشجيرات "خار زهرا". فمن المفترض أنّ الأوراق الخضراء الشائكة والزهور الحمراء اللامعة تقتل البعوض ثم تلتهمه. كان بعض الأطفال الأميركيين يلعبون لعبة اللقيطة في إحدى الزوايا. وتجمع بعضهم الآخر حول عربة المثلجات. اشترى جيمس مخروطين من مثلجات بنكهة الفانيلا، ثم مشينا معاً إلى ركن منعزل. جلسنا على مقعد خشبي، نأكل المثلجات ونتحدث، فيما الأرانب تخرج بسرعة من بين الشجيرات وتتنقل على العشب الأخضر، ثم تسرع عائدة إلى مخابئها. وكان الهواء عابقاً بعبير الأزهار الذي يطغى على رائحة النفط التي تتسرب إليه أحيانا. سألت جيمس، "هل تعيش في هذا الجانب"؟

"لا، أمي تحب الجانب الآخر، لذا نحن نعيش هناك".

بعد لحظات من الصمت، اقترب مني جيمس وقبلني، مثلما يفعل الممثلون في فيلم أميركي. أدركت فجأة ما عنته باري عندما تحدّثت عن احتدام مشاعرها. تراجع جيمس، وسرعان ما أدركت السبب - كان هناك رجلان إيرانيان قادمين نحونا.

قلت وأنا أرغب في العودة إلى البيت قبل حلول الظلام، "يجب أن نعود".

جذّف جيمس عائداً بالقارب، وبعد أن نزلنا على البرّ طلب مني مقابلته في الوقت نفسه في الأسبوع القادم. سأل إذا كنت أرغب بحضور حفل موسيقي في الكنيسة الأرمنية.

أومأت بخَفَر. كم كان فاتناً.

توجّه كل منا في اتجاه مختلف بعد ذلك. كانت جادة بهلوي مزدحمة بالسيارات والناس الذين كانوا يدخلون المتاجر ويخرجون منها أو يمشون على الأرصفة. كان عازف الفلوت الأعمى يجلس مستنداً إلى حائط متّسخ بجانب عدد من الشحاذين الحزينين، ويعزف موسيقى رومانسية ناعمة. وتشكّل طابور طويل من الناس أمام سينما جافاني التي تعرض فيلم كازبلانكا. وفي الجانب الآخر من الشارع كان المسجد، بقبته الذهبية، يبث خطبة يوم الجمعة التي تحذّر من المعاصي.

بينما كنت أسرع عائدة إلى البيت، لمحت صورتي المعكوسة على واجهة أحد المتاجر. كان انعكاس صورتي غير مألوف. بدا وجهي متوهجاً، كأن هناك شيئاً ما سيفتح أمامي. أحسست بأنّني خفيفة، كأنني أطير في انسجام مع البالونات الدائرية الصغيرة المرسومة على فستاني.

لقيت صاحب دكان الحلاقة الكائن على ناصية الشارع القريبة من بيتنا يغلق دكانه باكراً. كان يقص شعرنا دون أن يتقاضى أجراً مقابل مشورات قانونية مجانية من والدي. وكنت أستغل اتفاقهما هذا عندما ينفد المال مني. حدّق بي بطريقة غريبة، فانتابني قلق من أن يكون قد ارتسم شيء على وجهي وأفصح عن سرّي.

كان أحد الفتيان قد تسلّق شجرة نخيل على الرصيف ليقطف التمر الجاف في أعذاقها. فأشعرتني نظراته إليّ من أعلى بالقلق نفسه. ارتقيت السلّم الخلفي على رؤوس أصابعي وتوجّهت إلى غرفتي مباشرة.

في الأسبوع التالي، كان جيمس في انتظاري قرب القوارب. وقد عُزفت في الحفل موسيقى الحجرة الغربية التي لم آلفها. وفي أعقاب ذلك أقيم حفل

استقبال تبادل فيه الجميع، وكلهم من الأجانب إلا أنا، الحديث والضحك وتناولوا المشروبات. ثم دخل رجل وأعلن أن حالة شغب تجري على النهر وأنّ على من جاء بالقارب أن يغادر بأسرع ما يمكن. لم يبدِ أحد اهتماماً إذ يبدو أنّهم يعيشون جميعاً في هذا الجانب، لكن أسرعنا أنا وجيمس بالمغادرة. كانت مياه النهر هائجة فاهتزّ القارب وترنّح.

سألني عندما وصلنا إلى اليابسة، "هل سنلتقي ثانية؟ سأفكر في مكان خاص في المرة المقبلة؟

فقلت له، "سأحاول".

بعد مرور يومين على لقائي بجيمس، شعرت بنظرات باردة وعدائية من محترم ومانيجة على طاولة الغداء. لم يكن والدي موجوداً وكانت فارزين وفارزانة نائمتان.

قالت مانيجة دون أن توجه كلامها إلى أحد على وجه التحديد "ناوليني السمك".

فقالت لي محترم، "إنّها تطلب منك أن تناوليها السمك. هل هذا كثير عليك"؟ ثم مدّت يدها وتناولت طبق السمك ووضعته أمام مانيجة. "أعرف أنّك لا تشعرين بشيء تجاه أختك وإلا لما دمّرت فرصها بالزواج من خاطبها. لقد سوّأت سمعتنا. وها هو جواد قد تراجع عن الخطبة الآن. المدينة مليئة بالعيون".

قالت مانيجة وقد بدأت بالبكاء، " إنها تكرهني، كانت دائماً تغار مني". ثم نهضت وخرجت من الغرفة كالسهم.

جاء والدي إلى غرفتي بعد عدة ساعات.

قال وقد ظهر عليه التشنّج وبدت عيناه منتفختين، "من الآن فصاعداً، سيأخذك علي إلى المدرسة ويعيدك منها". ثم رفع يده وكاد أن يصفعني، لكنه أنزلها وخرج.

مضت عدّة أسابيع وعلي يرافقني إلى المدرسة ويعيدني منها كل يوم. وكان قد تزوج من فاطمة بهدوء في القرية التي ينحدران منها. كانت تعمل في منزلنا ثلاثة أيام في الأسبوع، وكان يمضي يوم إجازته معها في منزل والديها الذي لا تزال تعيش فيه. في أثناء المشي، كان يخبرني كم يتمنى أن يُرزق هو وفاطمة بالأولاد وكم من الصعب حصول ذلك في هذه الظروف الحالية. كانت فاطمة جميلة وأصغر من علي بكثير، لكنّها أحبّته على ما يبدو، ربما لأنه لطيف وطيب ويظهر قدراً من الذكاء على الرغم من أنه أمّي مثلها.

كان علي يطلعني على أسراره، إذ يشعر بصداقتي له لأنّني أقرأ عليه القصص. قال لي إنه يعتزم في النهاية أن يتوقف عن العمل كخادم وأن يعمل في بستان أهل فاطمة، لكنه لا يريد أن يعلم والداي بذلك الآن. أخبرني بأنّ فاطمة تعتقد بأن مانيجة تخفي تحت وجهها الوقح الذي تظهره، فتاة خجولة تشعر بانعدام الأمان. وطالما كانت مانيجة لطيفة مع فاطمة، حتى إنّها أعطتها سواراً فضياً. فوجئت بذلك مثلما فوجئت بمحترم وهي تقول لزينب بأنني أعاملها كأنها عدوتي.

في أحد الأيام كان جيمس يقف عند مدخل أحد المتاجر، وعندما مررت دسّ مغلّفاً في يدي. ربما رأى علي ذلك لكنّه لم يظهر ذلك، وقررت ألا أقول شيئاً. فتحت المغلف عندما وصلت إلى المدرسة. كان يقول في رسالته إنه سيغادر إلى إنكلترا حيث قبلته إحدى كليات السينما، ويسأل إذا كان بوسعي أن أراه قبل أن يغادر. لكنّني لم أستطع ذلك بالطبع، إذ كنت تحت المراقبة طوال الوقت.

بعد ذلك بوقت غير بعيد، رأيت صورة له في واجهة محل الأحلام للتصوير الفوتوغرافي في جادة بهلوي. كان يرتدي سترة من التويد، وشعره مفروقاً على جنب، ويظهر ابتسامة انتصار خبيثة. راودني شعور بالحسد لأنّه ربما كان الآن في إنكلترا بالفعل.

كانت مانيجة تشعر بالتعاسة الآن لأن جواداً تراجع عن الزواج منها. فرفضت

العودة إلى المدرسة. سمعتها تقول لمحترم إنها ستشعر بالخجل مما حصل أمام الفتيات الأخريات. وساد البيت جو من الكآبة وشحنة من التوتر.

كنت أدرك أكثر من ذي قبل أنّ والدي يراقبني عن كثب. وكان وقع كل خطوة، أو صوت كل باب يفتح، يشعرني بأنه قادم إلى غرفتي. وعندما لا يأتي، كنت أتنفس الصعداء. فلو جاء ليلقي عليّ إحدى عظاته لانفجرت في وجهه قائلة، "إنّني أكره كل شيء، هذا البيت، وهذه المدينة، أريد الرحيل بعيداً، أبعدني من هنا".

استيقظت ذات مرّة على أصوات في منتصف الليل. ثم أدركت بأن أحدهم يبكي بشكل متقطّع على الشرفة. نظرت من النافذة. رأيت مانيجة تقف هناك حافية، في ثياب نومها الزرقاء، وشعرها منسدل على كتفيها، تحدق في القمر الذي كان بدراً تاماً في تلك الليلة. استطعت في ضوء القمر أن أرى البروش الذي أهداه لها جواد معلقاً على قبة قميصها. علي أن أعترف بأنّها بدت جميلة. ترى ما هو السبب الحقيقي الذي جعل جواد يتخلى عنها؟

لا أعرف إذا شعرت بوجودي عند النافذة، لكنها فجأة عادت إلى غرفتها على رؤوس أصابعها.

ماذا كانت تفعل على الشرفة الفارغة في منتصف الليل ؟ هل توقعت أن يهبط جواد بطريقة سحرية من القمر؟ هل كانت تسير في نومها؟ (قالت محترم ذات مرّة إن مانيجة سارت عدة مرّات وهي نائمة عندما كانت طفلة. وعزت ذلك إلى سهولة تأثر مانيجة بأي كرب). صار بوسعي لأول مرة أن أرى ضعف مانيجة، وهو الضعف الذي حفز محترم كثيراً على القول، "إنها ضعيفة، وتحتاج إلى مساعدة".

تمتمت وهي تمر بجانبي على الشرفة في اليوم التالي، "عاهرة".

كان "جهاز" مانيجة المختار بعناية وبتميّز، موضوعًا في الغرفة وقد بدأ الغبار يعلوه.

الفصل السابع عشر

بعد عدة أسابيع، غيّر خاطب مانيجة رأيه وأرسل أمه وخالته لطلب السماح وإصلاح ما أفسده. كان والدي متردداً في قبول هذا الشاب ثانية، لكن محترم، حثّت والدي على القبول مستسلمة لرغبات مانيجة. اعترض والدي قائلاً، "لا يمكن الوثوق بهذا الرجل. لا يمكن الاعتماد عليه". لكن والدي استسلم في نهاية المطاف.

قالت محترم لمانيجة قبل الزفاف، "استرخي، وتنفسي، واحرصي على إخراج الهواء من صدرك لكي تتيحي بعض فرصة للتوقّف قليلاً بين الجمل".

"قفي منتصبة، وانطقي الكلمات بوضوح، واستخدمي عينيك للاتصال بالضيوف لكن ليس بالعريس".

"لا تعتذري عن أي شيء. إذا لم تبرزي أخطاءك فلن يلاحظها أحد".

لم تحضر باري وشقيقاي حفل الزفاف. كان سايرس وبرويز لا يزالان في أميركا، وباري في تركيا مع طاهري، الذي كان يعرض سجاداً على التجّار.

أقيم حفل الاستقبال في حديقة المطعم نفسه الذي زفّت فيه باري. طلب جواد من الموسيقيين أن يعزفوا موسيقى كلاسيكية فارسية، ومن المغنية أن تغني أغاني قديمة. عزف الموسيقيون على الكمان، والعود، والسنطور، فيما صاحبتهم المطربة، بشعرها الطويل وحاجبيها المنحنيين، بغناء الأغاني القديمة، واحدة تلو الأخرى. كانت إحدى أغانيها ترجمة تقريبية لإحدى قصائد حافظ:

سيفكّ نسيم الصباح بعطره، هذه الجدائل الجميلة.

كم مزّقت خصل هذا الشعر الداكن الملتوية من قلوب وحولّتها إلى أشلاء.

ثقي بهذا المسافر العابر الذي يعرف الكثير من الدروب.

لا تخافي من عتمة منتصف الليل، والأمواج المضطربة، والدوّامات،

فأنا أعرف درب الحب...

شعرت بالمفارقة والحزن لأنّ ذوق جواد وتصرفاته تنسجم مع ما تحبه باري في زوجها. بل إنّه ذكرني قليلاً بماجد.

انتقلت مانيجة وجواد إلى الفندق بعد انتهاء الحفل. كانا سيذهبان في اليوم التالي إلى شيراز لقضاء أسبوع من شهر العسل هناك. وبعد ذلك سيستقران في عبادان، حيث يعمل جواد كطبيب ومتعاقد أيضاً مع مستشفى مصفاة النفط. وسيعيشان في شقة عصرية، في منطقة عصرية يسكنها الموظفون الأميركيون الذين يعملون في المستشفى وفي مصفاة النفط.

كنّا نتناول طعام الفطور عندما قال لي والدي، "ستكونين أنت التالية". وارتسمت على وجهه ابتسامة متردّدة، كأنه غير واثق مما إذا كان يريد أن يكون لطيفاً معي.

"لا أريد الزواج".

"هل تريدين أن تصبحي عانسًا"؟

فقلت، "أريد الالتحاق بجامعة في أميركا".

أجابني والدي وكأن عدم رغبتي في الزواج تُشير إلى أنواع أخرى من المشاكل التي يمكن أن أتسبب بها، فقال، "هل تتوخّين الحرص فيما تقولينه في العلن؟ السافاك يشدّد قبضته، والشاه خائف من علماء الدين. لا يمكنه الاعتماد ثانية على الاستخبارات الأميركية إذا أجبر على مغادرة البلد".

على الرغم من أن والدي كان يعظني، فإنني شعرت بالإطراء لأنّه يحدثني كما كان يتحدّث مع شقيقيّ. ترى هل كان يراني بعين مختلفة؟ هل سيغيّر رأيه قريباً ويسمح لي بالانضمام إلى شقيقيّ؟

انطفأت بارقة الأمل بقسوة بعد عدة أيام. كنت جالسة في ركن ظليل في الفناء أقرأ رواية "الأم" لمكسيم غوركي، وهو كتاب آخر ذو قميص أبيض اشتريته من مكتبة طبطبائي. كنت أحرص عادة على القراءة في مكان منعزل، لكن بما أن والدي لم يكن في البيت، فقد جلست أقرأ في العلن. رأيت ظلاً يمر من خلفي، وإذا بوالدي يقف خلفي، وينظر من فوقي إلى الكتاب.

قال، "دعيني أرى الكتاب". فناولته له. قال، "من أين حصلت على هذا الكتاب الشيوعي"؟

أجبت غير راغبة في الإفصاح عن اسم صاحب المكتبة، "وجدته في غرفة فصل دراسي فارغة. شدّني عنوان هذا الكتاب، لأنّني مهتمّة بموضوع الأمومة".

قال، "ألا تعرفين أن الشيوعية محظورة قانونياً؟ لم يسبّب أخواك قطّ لي المشاكل التي تتسبّبين بها". وتصاعد صوته وهو يقول، "إذا عثروا على هذا الكتاب في بيتي سيسحبون رخصتي وأسجن ثلاث سنوات لامتلاكي هذا الكتاب" وسألني كمحقّق يتقصّى جريمة، "ماذا كنت تقرئين أيضًا"؟ ودون أن ينتظر الإجابة بدأ بانتزاع أوراق الكتاب وتمزيقها إلى قطع صغيرة. انتابته حالة من الغضب الشديد. بعد ذلك جمع القطع التي وقعت على الأرض وابتعد. بقيت متجمّدة في مكاني نفسه عندما ظهر ثانية.

أطلق الشاه في 1962 ـ 1963 ثورته البيضاء. كانت الثورة البيضاء ("بيضاء" في مقابل الثورة "السوداء" الخاصة للمتدينين المحافظين، أو الثورة "الحمراء" للماركسيين). تتكوّن من حزمة من الإصلاحات التي تضم استصلاح الأراضي، وتشارك الأرباح مع العمّال الصناعيين الذين يعملون في المؤسسات الخاصة، وتأميم الغابات والسهوب، وبيع المصانع الحكومية لتمويل استصلاح الأراضي، وإنشاء "لجان محو الأمية" التي تتألف من خرّيجي الثانوية العامة الذين يرسلون إلى القرى بدلاً من الخدمة في الجيش. وأعلن الشاه بالإضافة إلى هذه الإصلاحات عن توسيع حق الانتخاب ليشمل المرأة.

سألت والدي ونحن نتناول الفطور، "أبي، هل أعجبتك التغييرات التي يدخلها الشاه"؟

"لا يعنيك أياً منها".

قلت، "تستطيع النساء الانتخاب الآن".

قال باستهزاء، "لن تعرف الفتيات لمن يقترعن، لذا من الأفضل ألّا يفعلن".

تسرّبت الانتقادات المتعلقة بالثورة البيضاء على الرغم من الرقابة الشديدة. فلكل عائلة تقريباً، قريب أو صديق يعيش في بلد ذي صحافة حرة، وكان هناك في ذلك الوقت صحف وإذاعات تنشر مثل هذه الأخبار قبل أن تغلق قسراً.

انتقدت بعض الصحف والإذاعات الشاه وقالت إن ثورته البيضاء لا تقدّم الكثير ـ أن معظم أموال النفط ما زالت تذهب إلى جيوب العائلة الملكية و"الألف" (عائلات مرتبطة بالشاه) في حين أن غالبية الإيرانيين ما زالوا فقراء. وأنّ بدلات الشاه يخيطها أفضل الخياطين في الخارج وتكلّف كل واحدة منها ستة آلاف دولار، أي ملايين التومان. وأنّ مكتبه وقصوره مزيّنة بمرايا بانورامية مصنوعة من الذهب الخالص ومرصّعة بالجواهر، وسجادات محوكة بخيطان من الذهب. وأنّه يمتلك بيوتاً فخمة في عدة بلدان أوروبية. وأنّ قيمة ممتلكاته تزيد على مليار دولار، أي ما يعادل تريليونات التومان. ووصف بلاطه الملكي بالتبذير، والفساد. وأنه وزوجته الثالثة، الشاهبانو فرح، كانا يستقلان طائرة خاصة كل أسبوع للتوجّه إلى إيطاليا وفرنسا لتناول العشاء في أفخم المطاعم، أو قصّ الشعر، أو التسوّق، أو الذهاب إلى سانت موريتز للتزلّج.

أكّدت إحدى المقالات بأن ظاهر الثورة البيضاء يبدو لمصلحة الشعب، لكنها في الحقيقة تنطوي على أشراك استعمارية تقليدية. فقد تدفّق على إيران آلاف من التقنيين؛ وفرق الدعم، والعسكريين الأميركيين. بالإضافة إلى ذلك، مُنح أفراد الجيش الأميركي وموظفوهم وأفراد عائلاتهم الحصانة الدبلوماسية في إيران. وقد تساءل أحد نواب البرلمان، المدجّن عادة، عن سبب حصول

عامل تصليح البرادات الأميركي على الحصانة القانونية نفسها التي يحصل عليها سفراء إيران في الخارج.

واشتكت مقالة أخرى من أن الشاه سمح للشركات بأن تدفع للأميركيين والإنكليز أضعاف ما تدفعه للموظفين الإيرانيين الذين يؤدّون العمل نفسه. وأدانت بمرارة وحشية جهاز السافاك، الذي لم يتغير منذ بدء الثورة البيضاء، كما أدانوا الولايات المتحدة لمساعدتها الشاه في إنشاء قوة الشرطة واستمرارها. واليوم يسيطر السافاك بشكل مباشر على كل أوجه الحياة السياسية في إيران. ويضطلع أساساً بقمع أي معارضة لحكومة الشاه والحد قدر الإمكان من معرفة الشعب السياسية والاجتماعية. وقد أصبح السافاك بمثابة القانون نفسه، حيث لديه السلطة القانونية لتوقيف المشبوهين، واحتجازهم والتحقيق معهم، وتعذيبهم. وكان السافاك يدير سجونه الخاصة في طهران، ومن بينها سجن إيفان السيئ السمعة. وكان العديد من هذه الأنشطة ينفّذ دون أي رقابة دستورية.

كان جلال ينشر في مكتبته جريدة سرية، تدعى "بيدار شو" (استيقظوا). كانت تصدر كل أسبوع وأقرأها بأكملها ثم أتخلّص منها كي لا يعثر عليها والدي. وكانت الجريدة في أحد إصداراتها الأسبوعية مليئة بمقالات تناقش إيجابيات ثورة الشاه البيضاء وسلبياتها.

ذكرت إحدى المقالات أن الثورة البيضاء قد رفعت شأن آية الله الخميني وجعلته رمزاً وطنياً. فقد اضطلع بدور قيادي في معارضة الشاه. وقال إن الإصلاحات التي أدخلها الشاه ترمي إلى إرضاء حلفائه الأميركيين فحسب. وانتقد ميل الشاه إلى القيم الأميركية - بالسماح ببيع الخمر في المتاجر واستهلاكه علناً، وللنساء بالتجوّل سافرات. كما انتقد الشاه لأنّه منح الأميركيين المقيمين في إيران حصانة من الملاحقة القانونية.

كان الخميني يقول في خطاباته، "إذا دهس الشاه كلباً أميركياً، فسيحاسب على ذلك. لكن إذا دهس طبّاخ أميركي الشاه، فلن يستطيع أحد ملاحقته. لو كان لرجال الدين أي نفوذ لما أصبحت الأمة البتة أسيرة لدى إنكلترا، التي تلي أميركا".

وفي سنة 1963 أصدر الخميني فتوى ضد إصلاحات الشاه. ورداً على ذلك، شنّت الإذاعة التي تمتلكها الحكومة حملة مصمّمة للاستخفاف برجال الدين. وأعلن الشاه عبر الراديو أن إصلاحاته ستنقل إيران إلى "عصر الطائرات النفاثة"، في حين أن رجال الدين يريدون البقاء في "عصر الحمير". قاد هذا التصريح إلى مظاهرات سيّرها طلاب الشريعة ورجال الدين. فاتخذ الشاه إجراءات صارمة ضد المعارضة.

بعد ذلك تعرض طلاب الشريعة الذي كانوا يتظاهرون في مدينة قم المقدسة ضد افتتاح متاجر لبيع الخمور هناك، إلى هجوم من قوات المظليين والسافاك. وأدى العنف إلى مزيد من التظاهرات، لا في قم فحسب، بل في تبريز أيضاً. وقتلت القوات الحكومية المئات من الأشخاص. فهاجم الخميني حكم الشاه علناً، ووصفه بالطاغية. وأطلق على الشاه اسم "يزيد"، الذي يعتبره الشيعة القائد الفاسق الذي أمر بقتل الحسين. وكان يزيد يُسبّ ويُسخر منه في المسرحيات التاريخية التي كانت مريم تأخذني لمشاهدتها.

سألت جلال في مكتبته، "ما رأيك بالخميني"؟

فقال جلال بقوة، "لا أريد أن يتسلّم رجال الدين زمام الأمور، لكن الخميني محق بأن الشاه ينفّذ رغبات أميركا. إن إصلاحات الشاه سطحيّة. انظري كيف نعيش. إنّنا لا نعيش في مكان أفضل من زنزانة في سجن".

اختلطت عليّ الأمور. كنت أكره طغيان الشاه والسلطة التي يمنحها للسافاك. لكنّني في الوقت عينه معجبة بأفكاره التحديثية. وينطبق الأمر نفسه على مشاعري تجاه أميركا - أكره مساعدتهم في إنشاء السافاك، لكنني أتوق إلى الحرية الشخصية التي يتيحها لي ذلك البلد.

في المدرسة، أخبرتنا السيدة سليماني بأن التعديل الأخير الذي أدخله الشاه على قانون الانتخاب، والذي يعطي المرأة حق التصويت، لم يسر مفعوله فعلاً، لأن الرجال أمروا زوجاتهم، وبناتهم وأخواتهم بعدم التصويت، أو أملوا عليهم من يصوّتن له. وتابعت قائلة بانفعال "كيف يمكن أن يقترع

المرء بشكل ذي معنى، عندما يحجب عنا الكثير من المعلومات عن المرشحين"؟

ران الصمت على الصف. لم تكن هذه مواضيع يتحدّث عنها المرء علناً. لكنني تأثّرت بما قالته ووافقتها عليه. فمما لا شكّ فيه أن أخبار القانون الجديد لم تكد تصل إلى الفتيات. فليس هناك أحد ممن أعرفهن تتحدّث عنه أو تعمل بموجبه.

بعد بضعة أيام لمحت مهواش في المدرسة تتحدّث مع فتاتين أخريين. كانت رؤوسهن منحنية، وأصواتهن منخفضة. فانضممت إليهن.

قالت سرور، "لقد تلقّت السيدة سليماني تحذيرات من المديرة. لقد سمعت الحديث الذي دار بينهما".

سألت وقد غار قلبي بين أضلعي، "ما نوع التنبيهات"؟

"قال أحد مخبري السافاك للمديرة بأن السيدة سليماني تغسل عقول الفتيات الصغيرات".

انضمت إلينا تارون. كانت فتاة عصبية تنشد الوحدة معظم الوقت وقد فوجئت باقترابها منا. التحقت بالمدرسة في منتصف السنة الدراسية لأن والدها الذي يعمل في وزارة التعليم في أصفهان، انتقل إلى الأهواز.

فجأة أجهشت بالبكاء. قالت إنّ الشرطة داهمت منزلهم، وفتشت كل الكتب والوثائق، واعتقلت والدها. لم يكن لديها أدنى فكرة عن المكان الذي اقتادوه إليه. وكان هذا يومها الأخير في المدرسة، إذ إنها ستذهب مع أمها إلى طهران لتحاولا معرفة مكان وجوده. قد يكون في سجن إيفان.

رنّ الجرس فتوزّعنا على الصفوف، لكن تارون ودّعت الجميع وتركت المدرسة.

في طريقي إلى البيت بعد ظهر ذلك اليوم، التقيت بمظاهرة في ساحة بهلوي. كان المتظاهرون، وهم حشد من الرجال، يحملون لافتات تطالب

بتحسين ظروف معيشتهم: "اكسروا قيودكم أيها العمال"، " ناضلوا من أجل المساواة"، "البريطانيون والأميركيون يسرقون نفطنا".

كان بوسعي أن أسمع أصواتهم تصدح من مكبّرات الصوت وأنا أتجاوزهم. كان الموظفون الحكوميون يطالبون بأجور أعلى. واحتجَّ آخرون على الأسعار المرتفعة التي تتحكّم بها الحكومة. وأراد آخرون دعم الإسكان. كانوا متحمس، ويائسين، ويخاطرون بالتعرّض للاعتقال.

كان الراديو مضاء في البيت ووالدي جالساً قربه مركّزاً على كل كلمة. ما إن رآني حتى أشار إليّ بالاقتراب منه.

" ناهيد، أطلب منك الآن بكل حزم أن تحاذري في ما تقولين وتقرئين، هل تفهمين"؟

أومأت برأسي وذهبت إلى غرفتي، فتلاشى صوت البث الإذاعي.

الفصل الثامن عشر

ذهبت السيدة سليماني ذات يوم. أُجبرت على الاستقالة ولم يعرف أحد مكانها. فأصبح جوّ المدرسة أكثر كآبة من ذي قبل وحزنتُ لغيابها.

بعد اختفاء السيدة سليماني بوقت قصير، توجّهت ذات يوم إلى مكتبة طبطبائي للتحدّث مع جلال واختيار مواد جديدة لقراءتها. كان يوماً أغبر من أيام تشرين الأول/أكتوبر التي خلت من أي نسمة أو أي إشارة إلى المطر الذي لم يأتِ هذه السنة بعد. كان الهواء عابقاً برائحة النفط. جفلت عندما وقعت عيني على المكتبة. كانت إحدى النوافذ مغطاة بلوح خشبي وزجاج نافذة أخرى مكسور، وحطامه متناثر على الأرض. ومع أنّ الزجاج مكسور، لم يكن بوسعي رؤية ما في داخل المكتبة لأن لوحاً سميكاً من الكرتون كان يغطي الكسر. شعرت بأنّني تعرّضت لاعتداء شخصي. جلست على درج منزل مهجور مقابل المكتبة وبكيت بكاء شديداً. تصوّرت ما حدث لجلال. لعله لقي مصير والده على الأرجح. لم أكن أعرف اسم عائلته أو مكان سكنه، على الرغم من حواراتنا الطويلة. لذا لم يكن لدي أي طريقة للاستعلام عنه.

ما حدث في الأهواز كان جزءاً صغيراً مما كان يجري في كل أنحاء البلاد. بعد ذلك اعتُقل الخميني وسُجن لمدة شهرين، ثم وُضع رهن الإقامة الجبرية في ضاحية معزولة من ضواحي طهران.

كان والدي ينتظرني وقت الغداء خارج المدرسة. قال لي آمراً، "تعالي معي، أريد التحدّث إليك".

بدأ قلبي بالخفقان. أخذني إلى مطعم في منتزه مللي. بعد أن طلب الطعام، قال فجأة، "سأدعك تذهبين إلى الجامعة في أميركا، لقد نصحني برويز بذلك".

حدّقت فيه غير مصدّقة ما سمعت. إذاً تأثّر برويز بكل الرسائل التي كتبتها إليه وقرّر مساعدتي.

قال والدي، "إنّه يعرف كلية للفتيات غير بعيدة عن كلية الطب التي يدرس فيها بسانت لويس. إنّهم يقدّمون بعض المنح الدراسية للطالبات الأجنبيات كل سنة. لقد كان أداؤك جيّداً في المدرسة، لذا لديك فرصة في الحصول على إحداها". وتابع قائلاً، كأن ذهابي إلى الجامعة أصبح أمراً محسوماً، "يجب أن تعديني ألا تقلدي الفتيات الأميركيات وطريقتهن في الحياة، وألا تراودك أي أفكار بشأن الرجال الأميركيين في أي حال من الأحوال. ستعودين إلى هنا، حيث يوجد رجال يحبون النساء المتعلّمات".

حاولت أن أفهم ما حدث وأنا عائدة إلى المدرسة. كان والدي خائفًا من الكتب التي أقرؤها، والقصص التي أكتبها، ومن أنّني كسرت القواعد. كان يعرف أنّني سأقاوم أكثر من مما قاومت باري إذا حاول تزويجي لشخص يختاره هو ومحترم.

بعد مضي وقت قصير على حديثنا معاً، أعطاني طلبات الالتحاق بالجامعة. كنت واثقة وأنا أملؤها من أنّني سألتحق بالجامعة وأحصل على منحة دراسية. لكن حالي تغيّر فجأة ولم أعد شديدة الثقة بذلك. كنت أشعر بالحماسة تارة وبالخوف من أن يغيّر والدي رأيه بشأن إرسالي إلى هناك تارة أخرى. كان مستقبلي يشعّ بألوان تتغيّر باستمرار كأنه ضوء منكسر خلال منشور.

بعد بضعة أشهر من إرسال الطلبات بالبريد جاء والدي إلى غرفتي وأعطاني رسالتين. قرأتهما بسرعة. الرسالة الأولى من كلية ليندنغروف تقول:

" .... يسرّنا إعلامك بأنه تقرّر قبولك...

وتقول الثانية:

... تقرّر تقديم منحة دراسية لك تغطي المنامة، والطعام، ورسوم التعليم...

نظرت إلى والدي فلاحظت ابتسامة خافتة على وجهه. ربما كان في سره فخوراً لأنّني تلميذة مجدّة على الرغم من كل شيء. بدأ يجمل الخطوات التي يجب عليّ اتخاذها. وأخذ على عاتقه استخراج المستندات الضرورية قبل نهاية الصيف لكي أتمكّن من المغادرة إلى أميركا.

كانت مهواش صديقتي الوحيدة التي تفهّمت رغبتي في الذهاب إلى أميركا. بل إنّها ستتوجّه إلى طهران للالتحاق بالجامعة وربما إيجاد طريقة لمتابعة اهتمامها في الباليه. ستعيش هناك مع شقيقها الأكبر المتزوج وتتابع دروسها.

لم يكن لدي أي صلة بأي شخص يتحدث الإنكليزية. ومن المستغرب أنّ اللغات الأجنبية لم تكن جزءاً من منهج التعليم في المدرسة الثانوية. لم أكن أعرف شيئاً عن اللغة الإنكليزية باستثناء بعض الكلمات التي تعلمتها من الأفلام الأميركية. بدأت أحضر مقرّراً للغة الإنكليزية التي تقدّمها المدرسة بعد الدروس النظامية. واشتريت قاموساً فارسياً - إنكليزياً لأبحث عن معاني الكلمات.

جاءت مريم وعزيز لزيارتنا بعد ذلك بفترة قصيرة. أخيراً عادت مريم من كربلاء لتهتم ببعض الأمور المتعلقة بالمنزل وتتفقّد عائلتها.

قالت مريم وهي تجلس في الصالون معي ومع محترم وعزيز، " لقد تقدّم أحد الأشخاص لخطبتي، إنه شاب ومتعلّم جداً. لا أدري ماذا يريد من أرملة مثلي".

قالت محترم لأختها، "بعض الرجال يحبون الأرامل، ويقدّرونهن لخبرتهن، هل يستطيع الاهتمام بك"؟

قالت مريم، "لا أحتاج إلى ماله".

فقالت لها عزيز، "أنت أرملة معرّضة للانجراح. ولا بأس في أن يكون هناك من يهتم بك".

ردت مريم،" لم أكن سعيدة في حياتي عندما كان فتح الله على قيد الحياة".

فقالت عزيز، "مع ذلك من الأفضل لك أن تتزوجي. كل شقيقاتك متزوجات". ثم استدارت صوب محترم وقالت، "أحمد شقيقك يعرف رهبار وقد أثنى عليه".

لان موقف مريم قليلاً وقالت، "يريد رهبار أن يأخذني إلى دبي. إنه يعمل في شركة لتصدير الكافيار وقد نُقل إلى هناك. ويريد أن يصطحب معه زوجة".

قالت محترم، "سأفرح كثيراً من أجلك إذا تزوجت".

" بصراحة، أشعر بسلام مع نفسي من دون رجل".

لكن وجه مريم كان متوهّجاً، وشعرت بأن قلبها ينبض لهذا الرجل.

قالت لي مريم عندما أصبحنا وحدنا، "أنا سعيدة جداً لأنك ستذهبين إلى الجامعة. لم تتح لي الفرصة لذلك أبداً. أعرف بأنك طالما كنت تلميذة مجدّة. ما زلت أذكر اليوم الذي أتيت فيه إلى البيت ورأسك مكلّل بتاج". وبعد صمت قصير قالت، "لكن أتمنى أن تعودي. فعندما تمتلكين بيتك الخاص وتكوني مستقلة يصبح التواصل بيننا أكثر من ذي قبل".

أومأت برأسي دون أن أقول شيئاً. فقد كنت أفكر بأنني لن أعود إلى إيران البتة إذا استطعت إلى ذلك سبيلاً. ثم شعرت بالحزن لأن ذلك سيزيد في بعدي عن مريم.

عندما انتهت الزيارة ضمّتني عزيز بشدة قائلة، "أنت ذاهبة إلى مكان بعيد جداً، ليكن الله معك".

بكيت أنا ومريم ونحن نتبادل قبل الوداع، لعلمنا أن هذا الفراق سيكون طويلاً.

تمكنت باري من المجيء إلى البيت لوداعي.

ربما لم تشأ أن تشتكي كثيراً، لكي لا تفسد عليّ فرحة هذه المناسبة. بدت كأنها خضعت أخيراً لطاهري.

قالت، "لقد توصلت إلى اتفاق معه. وعدته ألا أمنع نفسي من الحمل. ووعدني في المقابل أن يسمح لي بأخذ دروس في المسرح والسينما في كلية الفنون المسرحية وأن أشارك بإنتاجاتهم. فجمهور مسرحياتهم وأفلامهم من نوع خاص لا يخالطهم الأشخاص الذين يعرفهم طاهري".

أما عن ماجد، فقد قالت باري إنها سمعت من إحدى صديقاتها بأنه انتقل من الأهواز. كان هذا كل ما تعرفه. كانت لا تزال تفكر فيه، لكنها تحاول التوقف عن ذلك.

قالت باري بلطف، "أتذكرين يا ناهيد كيف هدّد طاهري بالانتحار إذا لم أتزوجه؟ إنّه يقلب القصة في بعض الأحيان. قال لي ذات مرة إنني سأواجه مشاكل خطيرة إذا تركته".

"باري..."

قالت بنبرة أكثر سعادة، "تلك مجرّد خدعة، كتهديده بالانتحار. أصبح لدي بعض الأصدقاء في الكلية. وذلك يساعدني كثيراً".

فارقت إحدانا الأخرى بالبكاء مثلما فارقت مريم. وعلى الرغم من سلوك باري ولهجتها المتفائلين، فإنّي شعرت بالأسى لأجلها. لقد كنت أهمّ بالخروج من السجن فيما هي لا تزال فيه.

لم أودع مانيجة. فعندما زارتنا لازمت محترم كعادتها، دون أن تتواصل معي مباشرة. وكانت محترم تزورها في منزلها الجديد في أغلب الأحيان. لكن بما أنني سأغادر الآن، فقد كنت أتمنى أن نتجاوز عداوتنا المتبادلة ونردم الهوة التي تفصل فيما بيننا.

أرسلني والدي قبل سفري بعدة ايام إلى السيد بوروجردي، صديقه الصيدلي

الذي يصرّف العملة أيضاً. كان سيعطيني أفضل سعر لصرف التومان إلى دولار، فقد أعطاني والدي بعض المال لآخذه معي، وبعد أن أصل سيرسل لي مصروفي من خلال برويز الذي سيستقبلني في مطار سانت لويس.

في طريقي إلى مكتب السيد بوروجردي صادفت مظاهرة أخرى. كان المئات من الرجال، وفوجئت ببعض النساء أيضاً، يصرخون "لا يمكنكم أن تُسكتونا إلى الأبد"، "افتحوا أبواب السجون وأطلقوا سراح إخوتنا وأخواتنا". كانوا يبدون غاضبين وعازمين.

عندما وصلت إلى صيدلية السيد بوروجردي، سحب كرسيين وجلسنا أحدنا قبالة الآخر.

قال، "إنّني سعيد جداً لأنّ والدك سيرسلك إلى الجامعة". كان أشيب منتصب الهامة في سنّ قريبة من سنّ والدي. لكن سلوكه لطيفاً وودوداً على عكس والدي. "لقد درست ابنتي في لندن عدة سنين. ثم عادت لأنها أرادت أن تكون معنا. لكن هذا البلد مكان رهيب لفتاة طموحة وجريئة".

مرّت المظاهرة أمام الصيدلية، فطغت أصواتهم على صوتنا. كانوا يصرخون بجرأة، "الشاه الأميركي يكنز أموال النفط"، "على الأميركيين ناهبي النفط أن يرحلوا".

قال السيد بوروجردي، "الأميركيون يستغلوننا ويعطون الشاه الكثير من السلطة، مع ذلك فإنّ أميركا تقدّم الكثير لفتاة شابة مثلك".

"لقد كان حلمي أن اذهب إلى هناك".

انهمر مطر استوائي غزير، في آخر يوم لي في البيت، عندما كنت أحزم حقائبي. وضعت ثيابي المفضلة والصور التي للعائلة والأصدقاء في حقيبة زرقاء داكنة مصنوعة من الفينيل. شعرت بالفرحة وخلوّ البال لأول مرة منذ سنين. لقد فُتح الباب المقفل بإحكام، وها أنا أخرج منه أخيراً.

قبل أن أغادر إلى المطار، أتى والدي إلى غرفتي وقال، "إنّه لأمر طيّب أن تلتحقي بالجامعة". ثم أردف قائلاً، كأن ملاحظته اللطيفة يجب أن تتبعها

ملاحظة قاسية، "اذهبي، اذهبي، لقد كنت تسبّبين الكثير من القلق والمشاكل". بدا وجهه شاحباً وكتفاه المستقيمان عادة منحنيين.

نزلت عليّ كلماته الباردة كحبّات البَرَد. أسندت رأسي على الحائط لكي لا يرى دموعي.

قال، "لن أتمكّن من مرافقتك إلى المطار، فلدي عمل أقوم به". ثم سمعت خطواته تبتعد.

بدأت محترم تصرخ من الغرفة الأخرى، "احملي فارزين إنها تبكي بشدة وأنا مرهقة". حملت فارزين، وأسندتها على كتفي، وهززت لها إلى أن هدأت.

لم أسمع محترم وهي تدخل. أذهلتني بسيل من الكلام.

"كلما حملت بدأت أنا ووالدك بالبحث عن أسماء، وتخيّل الطفل. هل سيكون صبياً أو بنتاً؟ كيف سيبدو شكله؟ كنت أحضّر الغرفة، وأضع المهد فيها. ثم يأتي المخاض، والولادة، والإرضاع، ومراقبة الطفل وهو يكبر. كان كل طفل مختلفاً عن الآخر، وفريداً. مات ثلاثة من الأطفال. هوفيدا ذو الشعر الفاتح الأجعد، وأصغر ذو العينين المائلتين مثل الشرقيين، ومينا ذات النونتين في خديها".

كان السوار الذهبي الرفيع الذي تلبسه في معصمها يخشخش وهي تتكلم، "اصفرّ لون مينا ذات يوم، ونحل وجهها وأطرافها. عرفتْ أنها ستموت. قالت لي، "إنني ذاهبة إلى عالم آخر يا أمي".

خرجت الكلمات من فمي رغماً عنّي، "لقد تخليت عني".

تلا ذلك صمت عميق كنت أستطيع في أثنائه سماع قرقرة فارزين، وصدى موسيقى فيلم يُعرض في سينما صحارى.

"كانت أختي الحبيبة تتوق إلى طفل. ولا تشعر بأنها امرأة إلا إذا كان لديها طفل. وكان زوجها طاعناً في السن، ربما كان سبب عدم الإنجاب يعود إليه. لكن الجميع يلومون المرأة إذا لم تحبل... ما أسرع نمو الأولاد. تشيحين وجهك عنهم لحظة ثم تنظرين اليهم فإذا بهم قد كبروا". وللمرة الأولى في السنوات التي عشتها هناك، ضمتني محترم بقوة وقبّلتني.

عندما انفصلنا بعد العناق، نظرت إلى وجهها. خيّل إلي أنني أرى انعكاسات متقلّبة ـ ترى من هي، وما هي مشاعرها الحقيقية. أردت أن أطرح عليها بعض الأسئلة، لكن تنازعتني مشاعر متناقضة منعتني من الكلام. خرجت من الغرفة، وبعد لحظات رأيتها تغادر المنزل ومعها فارزين وفارزانة.

عدت إلى غرفتي وأخرجت صورة لي ولمحترم كنت قد وضعتها في الحقيبة. حدّقت فيها وأمعنت النظر. قيل لي إن الصورة التُقطت قبل أن تأخذني جدتي. كانت محترم في الصورة تضعني، وأنا رضيعة، على حضنها. كانت تبدو جميلة بشعرها المقصوص عند [illegible] العنق، وردائها الأبيض ذي القبة المنخفضة، وحذائها الأبيض العالي الخمبين. هل كانت محترم في ذلك الوقت تنفصل عني بألم، أم أنها كانت تشعر دائماً، لسبب أو لآخر، بالبعد عن هذه الطفلة؟ ترى لو أنها أحبتني في الشهور الأولى من حياتي، هل كانت غيّرت رأيها ولم تهبني إلى شقيقتها؟

رافقني علي في التاكسي إلى المطار. كان المطر قد توقف والتمعت أشعة الشمس على أعالي الأشجار وسطوح المباني والبيوت. كنت أغادر هذا البيت متوجّهة إلى حيث أرغب في أن أكون. أنشدت في سري، حرّة، حرّة، حرّة.

القسم الثاني

أميركا

الفصل التاسع عشر

وقفت قرب نافذة غرفتي في مبنى غرين هيل، أحد مباني المنامة الخمس التي تضمّ طالبات كلية ليندنغروف الأربعمئة. بدا كأنّ سنوات مرّت، لا يوم واحد فحسب، منذ غادرت إيران وبعد ساعات فقط على استقبال برويز لي في مطار سانت لويس وتوصيلي إلى حرم الكلية في سانت جيمس. كنت الآن بعيدة جداً عن عائلتي والأهواز. بدا حرم الكلية فخماً في ضوء الشمس الباهت عصر ذلك اليوم، بطرازها المعماري الكولونيالي واليوناني النهضوي، وأشجارها الظليلة الكبيرة القديمة، وأزهارها المزروعة في مساكب مستطيلة، ومجموعات الكراسي الهزّازة المنتشرة في أماكن مختلفة. راقبت بإعجاب الفتيات اللواتي يتجوّلن في حرم الكلية أو يجلسن على الأراجيح. نكّرنني بالنساء اللواتي شاهدتهن في الأفلام السينمائية الأميركية مع باري، أو في الجانب الآخر من النهر. كانت إحدى الفتيات بشعرها الملتوي القصير والنونتين على خديها نسخة أكبر سناً عن شيرلي تمبل. وذكّرتني أخرى بشعرها الأشقر الباهت، الشبيه بلون القش، وبشرتها البيضاء الحليبية، بمارلين مونرو. شعرت بلهفة إلى الكتابة عنهن إلى باري.

أخرجت صورة فوتوغرافية لباري من حقيبتي ووضعتها على طاولتي، ثم فرشت السجادة التي تصوّر الجنة، والتي أحضرتها دون إطارها، على ظهر الكرسي إلى أنّ أتمكّن من تأطيرها وتعليقها على الحائط. لم يكن لدي صورة جيّدة لمريم ـ صورة صغيرة فقط تظهر فيها محجّبة بشادور أسود، ولا يظهر منها سوى عيناها. بعد أن استحممت في الحمام المشترك، جلست في السرير كتبت رسالة طويلة إلى باري، وأخرى إلى مريم. أويت إلى الفراش

باكراً، كنت مرهقة من الرحلة التي استغرقت ثماني عشرة ساعة من إيران. فغططت في نوم عميق بدون أحلام.

استيقظت في وقت متأخّر من صباح اليوم التالي وتوجّهت إلى قاعة الطعام في الكلية. كانت شبه خالية. تناولت بعض الطعام من المقصف وجلست إلى طاولة مع فتاتين أخريين. سألت إحداهن بلغة إنكليزية مكسّرة عما وضعته في طبقي.

حدّقت بي برهة، ثم قالت "جريش" مشيرة إلى كتلة بيضاء. ثم أشارت إلى كتلة من الخبز وقالت، "خبز ذرة".

لم تمضِ لحظات حتى غادرتا. لبثت قليلاً في القاعة الكبيرة بمفردي.

سجّلت أكبر عدد ممكن من المقرّرات التي لا تتطلّب طلاقة في اللغة الإنكليزية - بيانو وسباحة واقتصاد منزلي. في الاقتصاد المنزلي، علّمتنا الأستاذة كيف نعدّ مائدة ومقاعد الضيوف. كما علّمتنا "حسن الكلام" - وهو ليس مختلفاً كثيراً عن "التعارف" في الثقافة الإيرانية. علينا أن نقول دائماً، "نعم يا سيدتي" عندما نخاطب امرأة أكبر سناً منا؛ وعلينا أن نكتب ملاحظة شكر لمضيفتنا وأن نصوغها بطريقة معيّنة. وفي مقرّر المدخل إلى الأدب الإنكليزي الإلزامي، لم يكن بوسعي أن أستوعب سوى جزء من المحاضرة. فمقرّر اللغة الإنكليزية الوحيد الذي أخذته في المدرسة الثانوية لم يعدّني بالقدر الكافي. كنت أجلس في غرفتي بين الصفوف أو على كرسي هزّاز وأحاول أن أفهم الواجبات وأستوعب الملاحظات التي دوّنتها وأرجع إلى القاموس الفارسي - الإنكليزي.

توجّهت إلى غرفتي بعد العشاء، تاركة الباب موارباً لإحداث تيار من النسيم القادم عبر النافذة. ومع تقدّم الليل بدأت الطالبات الأخريات بالعودة وهن يحملن الكولا أو القهوة الفورية، والبسكويت الهش الملفوف بورق السيلوفان، والجبن، والبسكويت المحلّى. وقفت بعضهن معاً في البهو وأخذن يتحدّثن. وعندما جاءت عطلة نهاية الأسبوع، ذهبت معظم الفتيات معاً أو خرجن مع الفتيان من الكليات المجاورة. وبقيت أدرس في مبنى المنامة.

بدا انعزالي بمثابة حرية في البداية. لكن سرعان ما بدأ واقع الكلية وانفصالي عن الطالبات الأخريات يؤثّر علي.

أخذت مسابقات الجمال، والاختلاط مع الفتيان الذين تدعوهم الكلية من الكليات الأخرى في المنطقة، والعظات الإلزامية في الكنيسة المشيخية بصرف النظر الدين، تطفو حولي بدون أي معنى. فالفتاة النموذجية، وهي التي تدعو إليها الهيئة التعليمية والأهل، فتاة مسيحية صالحة ودودة واجتماعية ومحتشمة في لبسها. وإذا لم تخرج الفتاة في مواعيد متكرّرة مع الفتيان، فإنّها تعتبر "غير اجتماعية" أو "خاسرة". وإذا كان لدى الفتاة ارتباطات مع صديقة ثم اتصل بها فتى وطلب منها الخروج معه في الوقت نفسه، فإنّها تقبل التواعد معه وتلغي ارتباطها مع صديقتها. وإذا تواعدت طالبة مع فتى من خارج دينها، فإنّ ذلك يوقعها في مشاكل. وكان الابتسام إلزامياً. فقد قالت لي إحدى الطالبات في مبنى المنامة، "ابتسمي" كلما مررنا في البهو.

انكمش مصروف الجيب الذي أرسله لي والدي عبر برويز عند تحويله من التومان إلى الدولار. كانت الفتيات الأخريات يسافرن إلى مواطنهن للالتقاء بالعائلة في الغالب أو الاجتماع بأحبائهن من المدرسة بعد الفراق. وكنّ يصفّفن شعرهن في صالونات الحلاقة الراقية في سانت لويس، ثم يذهبن للتسوّق ويعدن محمّلات بأكياس تضم قبعات وقفّازات وبلوزات وقمصاناً. وغالباً ما كنّ يفوّتن الوجبات في مبنى المنامة لشراء ما يرغبن فيه من طعام. وكانت الفتيات اللواتي لا يملكن سيارات يركبن سيارات الأجرة في كل مكان، بدلاً من الحافلات التي تسير في خطوط محدودة بوتيرة غير منتظمة. وكنّ يزيّن غرفهن بأثاث خاص بهن.

لقد خرجت من سجن بيتي، لكنّني أعيش هنا بمفردي. لم يكن اتصالي بشقيقي سهلاً. ولم أكن أعرف أحداً.

ذات يوم عند اقتراب نهاية الفصل، وجدت ملاحظة من العميدة في صندوق بريدي تدعوني، إلى جانب ثلاث طالبات أجنبيات أخريات في الكلية، للمشاركة

في يوم الأهل، وتطلب مني الحضور إلى مكتبها. كانت العميدة ترتدي بدلة من الكتان، وشعرها الأشقر مصففاً بشكل أنيق. حيّتني بابتسامة دافئة وقالت، "إنّني أطلب من كل الفتيات الأجنبيات في الكلية ارتداء الزي الوطني في يوم الأهل".

لزمت الصمت، إذ شعرت بالارتباك. فليس لدي زي. وهي تنتظر إجابتي.

قلت، "النساء في إيران يتحجَّبن بالشادور، لكنهن يرتدين تحته ملابس عادية، شبيهة بما ترتدونه هنا".

"إذاً ارتدي الشادور".

ازداد ارتباكي.

أخيراً قلت، واختفى صوتي دون صوت الضحك والحديث في القاعة، "إنّني لا أرتديه البتة في إيران".

فقالت وهي تبتسم بسرور، "مع ذلك أريد منك أن ترتديه في هذه المناسبة، لكي تظهري لنا القليل من ثقافة بلدك".

كان الشادور بالنسبة إلي يعني نوعاً من الأسر. وشعرت بسخافة ارتدائه في هذه الكلية الأميركية. غمغمت قائلة، "ربما أمكنني التفكير في ارتداء شيء آخر".

"لا، لا، الشادور فكرة ممتازة. لقد شاهدت صوراً لنساء يرتدينه في بلدان إسلامية، وأعجبت بها أيما إعجاب. ما الغاية منه"؟

"الإسلام يعتبر الشعر والبشرة الظاهرين مصدراً لإغواء الرجال".

قالت وهي تقهقه، "ليتني أشعر بأنّ شعري وبشرتي مغريان بحيث أضطر لتغطيتهما". لكن محاولتها أن تكون مرحة جعلتني أشعر بمزيد من انعدام الأمن في هذه البيئة الغريبة بشكل منتظر. وسرعان ما بدأت أدرك مقدار اختلاف هذا المكان عما كنت أتوقّعه في أميركا.

في عصر ذلك اليوم بعد الصفوف الدراسية مشيت إلى شارع ماين في

سانت لويس لشراء قماش للشادور. كان يوجد على أحد جانبي الشارع صيدلية، ومكتب بريد، ومتجر صغير متعدّد الأقسام، وسوبرماركت صغير، ومطعم. وتتفرّع منه عدة شوارع سكنية تؤدي إلى نهر مسيسبي، وهو مسطّح مائي موحل ومضطرب، وتتسابق السيارات على الشارع العريض المحاذي له. فكّرت في الوقوف على ضفة نهر قارون وأنا أنظر إلى الأميركيين في الجانب الآخر. وها أنا ذا بينهم وأشعر منعزلة ومفتقدة إلى الأمن.

في المتجر المتعدّد الأقسام تفحّصت أكداس الأقمشة في أحد الأركان. وتساءلت عما أشتريه، هل أشتري قماشاً خفيفاً لامعاً مثل الذي كانت ترتديه مريم والنسوة الأخريات في البيت عندما يأتي رجل غريب، أم القماش الأسود الكئيب الذي يرتدينه في الخارج. أخيراً قرّرت شراء بضعة ياردات من قماش أزرق عليه تصاميم أزهار زرقاء فاتحة. واشتريت أيضاً خيطاناً ومقصاً وإبرة.

عندما عدت إلى غرفتي بسطت القماش على الأرض، وقصصته على شكل شادور، ولفقت حوافه. كان من الصعب عليّ أن أقصّه بشكل صحيح، فتمهّلت في قصّه. كانت مريم ترسل شادوراتها إلى الخياطة. اخترت كطفلة ألا أرتدي الشادور. وأشعر الآن وأنا أقصه بأنّني أصنع كفناً، مثلما فعلت مريم والنسوة المستأجرات عندها. وسرحت بأفكاري في جدتي وهي تخبرني بأنّ رضا شاه، والد الشاه الحالي، منع النساء من ارتداء الشادور. كانت الشرطة تنزعه عن رؤوس النسوة اللواتي يرتدينه.. كان يريد العالم أن يرى إيران بلداً عصرياً. ثم جعل الشاه الحالي، الذي لديه أفكار مماثلة عن تحديث إيران، ارتداء الشادور اختيارياً كتسوية لاسترضاء رجال الدين. فارتدته النساء المتديّنات مثل مريم، وارتدت بعض النساء الأقل تديناً غطاء للرأس فقط، ولم تغطِّ النساء المستغربات رؤوسهن كما فعلت محترم. كانت فكرة الشادور بأكملها غريبة على الأميركيين، أدركت ذلك من ردّ فعل العميدة، ومع ذلك أرادتني أن أرتديه.

في يوم الأهل ارتديت الشادور ونظرت إلى نفسي في المرآة. ذكرني ذلك بالأوقات التي ارتديته فيها عندما كانت تأخذني مريم لحضور تمثيليات استشهاد الحسين أو إلى المسجد. لم أستسغ الشادور، وقد أحزنني إدراكي هذا الأمر ـ فقد كنت أنا ومريم متماثلتين جداً ذات يوم. والآن أنا موجودة في

مريم

أرض الحرية وأجبر تقريباً على ارتدائه. حاولت أن أتجاهل أفكاري لكي لا أشعر بالضيق.

توجّهت إلى القاعة التي يقام فيها حفل الاستقبال. كانت الصور الفوتوغرافية المبروزة للمتبرّعين معلّقة على الجدران. وفيما كنت أقف مع مارغريتا، الفتاة اليونانية التي ترتدي تنّورة وبلوزة مطرّزين بالكامل؛ وراشيل، التركية التي كانت ترتدي شيئاً مماثلاً؛ وبهارتي، الهندية التي ترتدي الساري؛ تركّزت عيون الجميع عليَّ بشكل رئيسي.

قالت إحدى الأمهات الشابات بلكنة جنوبية، "أليس ذلك رائعاً، لكن أحسب أن من الصعب التحرّك فيه".

وسألت أم أخرى، "هل ترتدي كل النساء ذلك في إيران"؟

قلت، "لا، إنّه اختياري، ويرتديه نصف النساء تقريباً".

"لا أستطيع أن أتخيّل أنّني أرتديه".

شعرت بالإهانة عندما فكّرت بأنّ مريم ترتدي الشادور دائماً باختيارها، مع أنّني لا أتقبّله.

بعد تحمّل المزيد من الأسئلة، غادرت أنا والطالبات الأجنبيات معاً. جلسنا في الخارج على أرجوحتين متقابلتين وتحدّثنا فيما بيننا. كانت مارغريتا، وهي ذات شعر أسود وممتلئة الجسم، في السنة الثانية. قالت إنّها لا تحبّ الكلية وتعتزم العودة إلى موطنها قريباً عندما تنتهي السنة الدراسية. وقالت راشيل، ذات الشعر الأحمر والبشرة الباهتة والطباع الهادئة، إنّها سعيدة حتى الآن وإنّ هذه سنتها الأولى. في الطائرة التي أقلّتها إلى الولايات المتحدة التقت بشاب من بلدها ملتحق بكلية في الجوار، وهما يمضيان الكثير من الوقت معاً. وكانت بهارتي، وهي نحيلة داكنة البشرة وجادّة، غير سعيدة لكنّها تعتزم البقاء حتى التخرّج. أخبرتها بأنّني أعتزم الاستمرار في الدراسة حتى النهاية، على الرغم من أنّني بدأت أشعر بأنّ الكلية ليست المكان الصحيح لي، وأنّها ليست مثلما تخيّلتها.

قالت بهارتي، "أعتقد أنّهم منحونا غرفاً إفرادية لأنّنا أجانب. كل الفتيات الأخريات يتشاركن الغرف. لا يعتقدون بأنّ هناك من يرغب في مشاركتنا غرفته. إنّني ألقى نظرات غريبة من الجميع عندما أقول بأنّني هندوسية".

قالت مارغريتا، "إنّهن ضيّقات الأفق وغير متسامحات".

وقالت راشيل، "لم تحاول أي منهن مصادقتي".

قلت، "لدي الشعور نفسه، لكن ربما كان ذلك وهماً".

هزّت راشيل كتفيها تعبيراً عن اللامبالاة.

أوقفتني جولي كونراد في الحمام، وهي فتاة شقراء جميلة تقيم في الطابق الذي أقيم فيه، وقالت لي، "طلبت مني أمي أن أسألك إذا كنت كاثوليكية".

قلت لا.

"ذلك ليس رداء راهبات، إنّه شادور. المسلمات الصالحات يرتدينه".

"هل أنت مسلمة كاثوليكية"؟

"لا، إنّه دين مختلف".

"هل أنت مسلمة صالحة"؟

حدّقت فيها فحسب. وعندما لم أجبها وضعت يدها على وركها وقالت ببرودة، "جميعنا مسيحيات في هذه الكلية".

الفصل العشرون

كنت أشعر بالحرارة والاختناق من العظة في الكنيسة. وكان الواعظ جسيماً أشيب الشعر، يتحدّث بشكل رتيب عن مقاطع من الإنجيل ويفسّرها. أخذت أحدّق في الزجاج الملوّن، وأسرح بأفكاري في أيام الطفولة السعيدة عندما كان الضوء المتعدّد الألوان يتدفّق إلى غرفتي عبر الزجاج الملوّن. مع أنّ بيت مريم كان مليئاً بالحديث الديني والممارسة الدينية، فإنّني لم أشعر يوماً أنّها كانت تضغط علي للإيمان بالدين أو ممارسته. وها أنا هنا في هذه الكلية أشعر بأنّني مجبرة على الإيمان بالمسيحية، كما أنّ الذهاب إلى الكنيسة إلزامي.

كنت أجلس قرب جانيت، وهي فتاة تسكن في المبنى الذي أقيم فيه. عبست في وجهي لأنّني لم أتوقّف عن التململ في مقعدي. نهضت وخرجت قبل أن تنتهي العظة، وجلست تحت شجرة في المرج الذي يمتد إلى ما وراء حرم الكلية.

عندما عدت إلى مبنى المنامة في وقت لاحق من ذلك اليوم، اقتربت مني المشرِفة، سنثيا، في البهو وطلبت مني موافاتها في غرفتها في الدور الأول. تقول الشائعات إنّها كانت متزوجة بأستاذ في ليندنغروف فتركها حباً بإحدى طالباته. فصرف من الكلية وطُردت الطالبة، لكن سنثيا بقيت.

قالت لي فور دخولي غرفتها، "المغادرة قبل انتهاء العظة انتهاك للحرمات".

قلت متلعثمة، "آسفة".

"على أي حال، أنت منطوية على نفسك كثيراً. حاولي الاختلاط مع الآخرين، وصنع صداقات. أريدك في البدايةِ أن تذهبي إلى الحفل المختلط في الأسبوع القادم".

لم يكن لدي أي فكرة عن ما هو الحفل المختلط، وشعرت بالتحرّج من السؤال. لذا نظرت إليها فحسب.

"إنّنا ندعو الفتيان من الكليات المجاورة، ونعزف موسيقى راقصة. نقيم الحفلات المختلطة عدة مرات في السنة، الفتيات يحببنها كثيراً".

هززت رأسي دون أي التزام.

"يجدر بك الذهاب وأن تكوني اجتماعية أكثر. وربما يحضر بعض الفتيان الأجانب من كلية ميسوري للمناجم، حيث تجتذب كلية الهندسة الفتيان الأجانب".

"لا أعرف كيف أرقص. تعلّمت القليل من أخي".

دقّت ساعة الحائط فقاطعتنا.

قالت لي ووقفت، "يمكنك أن تتبعي الخطوات". افترضت أنّ ذلك يعني أنّ الوقت حان لكي أغادر. لذا نهضت ورحلت.

قبل الحفل ليلة السبت، امتلأت الحمّامات بالفتيات اللواتي يتفقّدن ماكياجهن، ويرششن العطر على أعناقهن وأذرعهن، وينفشن شعرهن، ويتفحّصن فساتينهن مرة أخرى. ارتديت فستاناً أصفر فاتحاً صنعته في الاقتصاد المنزلي وحذاء ذا كعب منخفض أحضرته معي من إيران. كان الحذاء مصنوعاً يدوياً من جلد جيد، لكنْ بدا قديم الطراز لا يتوافق مظهره مع الحفلات. ارتدت الفتيات الأخريات فساتين ذات فتحة عنق منخفضة وأحذية عالية الكعب. وقد حمّرن خدودهن وشفاههن وظلّلن عيونهن. لم أتبرّج لأنّني غير معتادة على التبرّج.

ما إن وصلت إلى الحفل المختلط حتى ندمت على المجيء. وقفت الفتيات حول القاعة راسمات الابتسامات على وجوههن. لم تأت أي من الطالبات الأجنبيات، ولم يكن هناك فتيان أجانب كما لاحظت. تفحّصنا الفتيان

بشكل سطحي. وطلب قليل منهم الرقص مع بعض الفتيات. وبدأت الفتيات اللواتي لم يطلب منهن الرقص التحادث فيما بينهن والضحك مبتهجات.

لم يطلب أحد مني الرقص ولم أشارك في الحديث مع الفتيات الأخريات، فغادرت المكان وجلست على أرجوحة في ركن بعيد من الحرم الجامعي. ظهر البدر لامعاً ونشر أشعّته على المكان. عادت بي الأفكار إلى ليلة كنت أتسامر فيها مع باري على الشرفة، والبدر نفسه يلتمع في وسط السماء. وأنا الآن في عالم وهي في عالم آخر.

فيما كنت أقلّب أيامي في مكان لم أكن أنتمي إليه، حاولت أن أركّز على مستقبلي. سأذهب إلى مكان ما في أميركا يمكنني الاختلاط فيه أكثر، مع أنّني لا أعرف أين يوجد مثل هذا المكان أو كيف يمكنني الوصول إليه. فكّرت فيما قالته لي مريم، "ما إن يولد طفل في هذا العالم حتى يكتب أحد الملائكة قَدَره على جبينه". لم أتقبّل تلك الفكرة عندما كنت طفلة، وأعتقد الآن أيضاً أنّ تصميمي هو الذي مكّنني من القدوم إلى أميركا. ويجدر بي أن أتمكّن من تحديد ما أفعله لاحقاً.

ذكّرت نفسي برفاهية قدرتي على قراءة ما أريد دون أن يراقبني والدي، أو أشعر في أعماق قلبي بالخوف من السافاك.

في وقت متأخّر من الليل عدت إلى الكتابة، صديقتي القديمة الدائمة. صرت أكتب بالإنكليزية الآن، مع أنّني مضطرة إلى الرجوع إلى القاموس باستمرار. كانت الكتابة بالإنكليزية تمنحني حرية لا أشعر بها عند الكتابة بالفارسية. مع ذلك كان كل ما أكتبه يتعلّق بالأشخاص الذين عرفتهم وأنا أكبر. ومع أنّ إيران وشعبها بعيدان جداً عن الكلية، كأنهما من زمن مغاير، فإنّهما يشغلان أعمق المشاعر في نفسي.

كتبت قصة قصيرة عن القراءة لعلي، مع بعض التغييرات عن الحياة الواقعية.

... في زياراتي إلى البيت، كنت أقرأ لعلي. كان يجلس أمامي منحني الرأس ومحدودب الظهر، بينما كنت أقرأ من كتاب "أمير السلام"، وهي رواية طويلة بطولية عن رجل شجاع يسعى وراء محبوبته. كان الكتاب قديماً جداً،

تغيّرت جلدته عدة مرات. وبينما كنت أقرأ كان علي يشهق، أو يندفع بجسمه إلى الأمام عندما يتعرّض البطل لمكروه، أو ترتسم على وجهه ابتسامة انتصار تكشف عن أسنانه الصغيرة عندما يصيب التوفيق البطل. كنت أقرأ له بصوت مرتفع ومتميّز لأنّه يعاني من صعوبات في السمع، وأشعر أحياناً بأنّه طفل وأنا أمه نظراً لصغر قامته واستدارة عينيه. لم يكن يسأم من الاستماع لقراءتي، وعندما أضع الكتاب جانباً يغدق علي الشكر ويهزّ رأسه صعوداً ونزولاً، وهو لا يزل متأثّراً بلغة الكتاب المنمّقة ومغامرات البطل أمير. بعد ذلك كان يتناول الكتاب مني بلطف شديد ويعلّم الصفحة بريشة حمامة.

في ليلة دافئة كثيرة النجوم، كنت جالسة في الفناء أراقب الضفادع المتقافزة حول البركة، والخفافيش تتنقّل جيئة وذهاباً في خطوط مستقيمة تحت قبة المظلة، فلاحظت فجأة علياً واقفاً في غرفته قرب الباب. وكان بوسعي أن أشاهده في ضوء مصباح الكاز وهو ينحني وينتصب ويؤشّر بيديه المفتوحتين على اتساعهما. ثم شاهدت التماع سكين يحملها بيده. نهضت وتوجّهت نحو غرفته. سعلت وأحدثت ضجة بقبقابي الخشبي، لكن يبدو أنّه لم يسمعني.

رمى السكين على الأرض بحيوية غير معهودة فيه وركع أمام صورة وهمية. وأنشد بصوت مرتجف، "أنا أمير، أمير الذي لا يهاب، أمير المقدام. لقد جئت لأحرّرك".

أسرعت في الابتعاد بعد أن انتابني قلق من أن يلمحني. بعد تلك الليلة لم يطلب مني أن أقرأ له طوال مدة زيارتي. لمحته وهو يغسل الثياب. بدا على وجهه توتّر شديد، واكتسبت إيماءاته بعض الفخامة. لم يكن ينتبه لأحد حتى عندما يقترب منه، وغالباً ما كان يهمس بكلمات مبهمة.

بكيت بعد إكمال القصة القصيرة عندما تذكّرت السيدة سليماني، وعاد إلي الحزن على اختفائها. قرّرت بعد بعض التردّد تسليم القصة كفرض في مادة الإنشاء. حصلت من الطالبات في ليندنغروف على ردّ الفعل غير المثير نفسه الذي حصلت عليه في المدرسة الثانوية.

سألتني المعلّمة السيدة سميث، وهي امرأة شابة نشيطة ذات لكنة جنوبية، "ألا يستطيع علي القراءة"؟

"كان علي، خادمنا، أمِّياً".

فقالت، "أعتقد أنّ هناك العديد من الأمِّيين في العالم الثالث. ألا تسير إيران على خطى الغرب؟ الشاه رجل عصري جداً. لقد شاهدت صوره".

"لم تحقّق محاولاته الكثير".

بدأت الطالبات يتحدّثن فيما بينهن بعد أن ضجرن من الحوار. انتقلنا إلى المقطوعة التالية. لم يكن لدي أي فكرة عن رأي السيدة سميث بالقصة.

تملّكتني الرغبة في التحدّث إليها فتوجّهت إلى مكتبها ذات يوم. لكنّها لم تبد انفتاحاً على الأسئلة والحوار، على الرغم من سلوكها الودي. أخافتني، لم أستطع أن أفهم شيئاً في هذا المكان. لذا نهضت بعد لحظات.

قالت لي وأنا خارجة، "أنت موهوبة".

بنيت مهداً من الأحلام لنفسي، وعندما أويت إلى الفراش ليلاً، تخيّلت أنّ كتابتي تحدث تأثيراً في العالم. وأمسيت أهزّ نفسي في ذلك المهد كل ليلة لكي أنام.

كانت ليندا تشسترتون تقيم في غرفة كبيرة بمفردها لأنّ زميلتها في الغرفة تركت الكلية وعادت إلى موطنها حيث التحقت بكلية محلية هناك. وهي فتاة حساسة تمضي كثيراً من الوقت لوحدها، وغالباً ما تبقى في مبنى المنامة حتى في ليالي الجمعة والسبت. كانت ليندا في سنتها الدراسية الثانية وتعتزم التخصّص في الرسم، وتتميّز بقامتها الطويلة وعينيها الخضراوين الواسعتين وشعرها الكستنائي الذي تسرّحه إلى الخلف. طرقت على بابي في إحدى ليالي الجمعة عندما كان مبنى المنامة خاوياً تماماً ودعتني إلى غرفتها.

قالت لي، "أعرف أنّ هناك حزناً دفيناً في أعماقك".

أثارت ملاحظتها دهشتي. هل ظهر ذلك على وجهي؟ بدا أنّ الآثار المستديمة للخسائر التي منيت بها تلاحقني كظلي. أخذت بعد ذلك أخرج ما بداخلي عن طفولتي، وكيف انتشلتني باري من وحدتي القاتلة ووحشتي عندما اختطفني والدي من مريم وكيف أنني الآن بعيدة جداً عنهما.

قالت ليندا، "عندما كنت في الثانية عشرة تعرّضت لإصابة في ظهري وأنا أقفز عن الشجرة في فناء بيتنا الخلفي. لزمت السرير أسابيع. وكل ما كنت أفعله القراءة والتفكير".

عقدت اتفاقاً معي على أن تساعدني في الإنكليزية وتنقّح مقالاتي، مقابل أن أعلّمها الفارسية. فقد قرأت ليندا شعر عمر الخيام وثار اهتمامها بإيران القديمة واللغة الفارسية. وكانت تعتزم استخدام الحروف الفارسية في رسوماتها. وأوضحت أنّها تريد المزاوجة بين شيء روحاني وشيء عادي.

اعتبرت أنّها كانت تشير إلي بالإضافة إلى اللغة عندما استخدمت كلمة "روحاني". وذلك بمثابة إطراء لأنّه صادر عن ليندا.

بدأنا نمضي الكثير من الوقت معاً. بدونا ثنائياً غريباً في حرم الجامعة: فهي طويلة ونحيفة، وأنا قصيرة ومفرطة الوزن قليلاً بسبب الطعام عالي السعرات الحرارية الذي يقدّم في مطعم الكلية.

في إجازة عيد الميلاد، دعتني ليندا إلى بيتها في دالاس.

حذّرتني قبل أن نغادر معاً، "لا تشعري بالنفور من والديّ. إنّهما ريفيان وضيّقا الأفق".

وصلنا إلى بيتها وقت العشاء، إذ ركبنا حافلة انطلقت في وقت مبكّر من سانت لويس. استقبلت شيرلي، والدة ليندا، ابنتها بالقبلات.

قالت لي شيرلي، "أهلاً"، ورمقتني بنظرة فاحصة أثارت انزعاجي على الفور. قادتني ليندا إلى غرفة الضيوف ثم توجّهنا إلى مائدة العشاء. كان البيت مفروشاً بقطع أثاث أوروبيّة مقلّدة، على غرار منزل والديّ. لكن طراز العمارة الشبيه بالمزرعة والهدوء المحيط بالمكان كانا مختلفين جداً.

سبقنا والد ليندا بالجلوس إلى المائدة. هزّ رأسه عندما شاهدني مرحّباً وقال، "اجلسي يا ناديا".

قالت ليندا مصحّحة، "ناهيد".

"هل أعجبك بلدنا حتى الآن ناهاد؟ ألست محظوظة وبالقدوم إلى هنا"؟

احمرّ وجهي، وشعرت بالإحراج.

قالت شيرلي، "دعونا نتناول الطعام". كانت المائدة تضمّ طعاماً مماثلاً للوجبات التي نتناولها في الكلية، خبز الذرة، ودجاج مقلي بمقلى عميق، وجريش. أحنت شيرلي رأسها وبدأت تتلو صلاة الشكر، وأحنينا رؤوسنا جميعاً أيضاً. بعد لحظات رفعت رأسها وقالت "آمين"، وكرّرنا جميعاً "آمين". كنت قد شاركت في هذا الطقس في مناسبات مختلفة في الكلية.

وبدأت شيرلي تمرّر الطعام. سألتني، "ماذا تأكلون في إيران"؟

"الأطباق الأكثر شيوعاً هي السمك ولحم الضأن وكباب الدجاج واليخنات".

فكان سؤالها التالي، "هل لديكم بيوت في إيران"؟

قلت، "نعم".

وقالت، "أنت أكثر ذوقاً بكثير من الأجانب الآخرين".

كان والد ليندا مستغرقاً في الاستماع إلى صوت التلفزيون الخفيض في ركن الغرفة.

بعد العشاء انسحبت أنا وليندا كل إلى غرفته. وقبل أن آوي إلى الفراش، توجّهت إلى الحمام، فمررت بغرفة ليندا. كانت أمها في الداخل تتحدّث إليها.

"لم لا تفعلين ما تقوم به الأخريات، بالطريقة السوية؟ أولاً تخرجين مع مصري، والآن أفضل صديقاتك إيرانية. وربما تفاجئيننا لاحقاً بالإعلان عن أنّك تريدين الزواج بزنجي".

صاحت ليندا، "كفّي عن ذلك يا أمي، لا أريد سماع شيء عنه".

لم أستطع أن أسمعهما بعد أن دخلت الحمام. وفي وقت لاحق انضمت ليندا إلي في غرفتي. كنت جالسة في السرير أقرأ جريدة "ذا دالاس مورننغ نيوز" التي تناولتها من غرفة الجلوس.

خبأت رأسي في الجريدة.

قالت مفترضة أنّني سمعت الحوار، "يشترك والداي في العقلية السائدة هنا. أحياناً أتمدّد في العتمة وأفكّر في مقدار خيبة أملهما فيّ. فأنا لا أخرج كثيراً مع الفتيان، ولست في عجلة لتصيّد العريس المناسب. لقد أرسلاني إلى ليندنغروف ليعدّانني للعريس المناسب. فالكلية بمثابة مدرسة انتهائية".

فكّرت في مقرّر الاقتصاد المنزلي الذي يحظى بشهرة كبيرة في الكلية.

عندما عدنا إلى سانت لويس، بدت ليندا أكثر قلقاً من ذي قبل وبدأت تتغيّب عن الحصص الدراسية. جاءت إلى غرفتي عصر ذات يوم وأعلنت، "لن أبقى حتى نهاية الفصل. سأذهب إلى نيويورك للالتحاق بكلية الفنون. كل ما أريده هو الرسم".

"تتركين في منتصف الفصل"؟

"لم يعد بإمكاني التحمّل. يمكنك الذهاب إلى نيويورك أيضاً. وربما نتشارك غرفة معاً".

"لا أستطيع أن أترك. فأنا مقيمة بموجب تأشيرة طالبة. ويجب أن أكون في الكلية. كما أنّني لن أستطيع أن أعيل نفسي على أي حال. إنّني بحاجة إلى المنحة الكاملة".

بعد أن تركت ليندا الكلية حاولت أن أبتعد عن حرم الكلية قدر ما أمكن. وذات يوم بحثت عن مكتبة في البلدة، لكنّني اكتشفت أنّه لا يوجد أي واحدة. وكل ما وجدته متجر يوجد فيه رفّ يضمّ بعض الكتب المغلّفة بغلاف ورقي ومجلات. وفيما كنت أتفحّص الكتب ذات الأغلفة اللامعة، فكّرت في جلال ومكتبته. شعرت بافتقاده وعاودتني مخاوفي عليه. هل هو في السجن أم ميت أم حي؟ لم يثر اهتمامي أي من الكتب فاشتريت نسخة من مجلة "تايم".

وقرّرت أن أدلّل نفسي بوجبة في الخارج، وهو أمر نادراً ما أفعله لضيق ذات اليد. جلست في مطعم وقرأت المجلّة في أثناء تناول الطعام.

كان ذلك في سنة 1965، وقد وجدت إشارة إلى الخميني في مقالة قصيرة. فقد أطلق من الإقامة الجبرية ونُفي إلى تركيا. وأخذ يوجّه رسائل إلى الإيرانيين يطالبهم فيها بانتقاد الشاه علناً. غير أنّ المقالة ذكرت بأنّ الاضطراب الذي اكتنف المدن الإيرانية تراجع في الأسابيع الأخيرة وأنّه ليس هناك تهديد حقيقي للشاه.

لاحظت شاباً جالساً بمفرده يحدّق بي.

قال لي عندما تقاطعت نظراتنا، "مرحباً". كان ذا عينين زرقاوين وشعر أشقر قصير، مثل معظم شبان المنطقة. سألني، "هل أستطيع الجلوس معك"؟

قلت، "على الرحب والسعة".

انضمّ إلي وقال، "اسمي بيل أوين، ما اسمك"؟

"ناهيد محرمي".

كرّر اسمي مرتين وسأل، "من أين أنت"؟

"إيران".

قال، "شاه وملكة عصريان ونفط كثير. لا بد أن الجميع أغنياء هناك. هل والدك غني"؟

"نعم".

"هل تعيشين قرب حقول النفط"؟

"في وسطها".

قال إنّه يبيع الأجهزة الإلكترونية ويمرّ في شارع سانت جيمس بين الحين والآخر. بعد أن فرغنا من الأكل، تناول الفاتورة ودفع ثمن غدائي أيضاً. قال، "سآخذك في جولة في السيارة. تلك هي سيارتي هناك".

تردّدت. لم أكن خائفة من أن يشاهدني أحد مع هذا الرجل، كما كنت عندما ركبت القارب مع جيمس، لكنّني كنت خائفة لأنّني لا أعرف من هو بيل أوين، وأين يمكن أن يأخذني. ففي مبنى المنامة تتحدّث الطالبات عن الاغتصاب والقتل. لكنّني كنت أشعر بوحدة قاتلة وأريد التعرّف على أحد. لذا ركبت سيارته. توجّه إلى بقعة هادئة على بعد بضع دقائق خارج البلدة. أوقف السيارة، ثم أمسك بوجهي بيديه وقبّلني. لم أشعر بشيء. كأنّني نائمة أو جسمي خدِر. اعتدت على أن يغازلني أحد الفتيان دون أن يحدث شيء. فقبل أن أركب القارب مع جيمس، كنت أراه بين الحين والآخر، ونتبادل النظرات والابتسامات. لكنّني لقيت بيل للتوّ. لمس صدري بيده فبدأت أقاوم.

همس وهو يتنفّس بسرعة، "لمَ لا"؟

لم أكن أعرف ما أقوله لهذا الرجل الغريب، لذا لذت بالصمت.

أكبّ بيل بوجهه على المقود وأطلق تنهيدة ساخطة، ثم قاد السيارة عائداً.

قلت عندما أوصلني إلى الكلية، "أعلمني متى عدت إلى البلدة ثانية".

"سأفعل"، وأسرع في الابتعاد.

وقفت قرب بوّابة الكلية كما لو أنّني طردت من السيارة. فكّرت في مقدار مثابرة الفتيان في الأهواز - يقفون يوماً بعد يوم على الرصيف منتظرين مرور الفتيات. بدت هذه المقابلة جزءاً من القواعد الأميركية التي لم أستوعبها تماماً.

لكنّني افتقدت هذا الرجل الذي التقيت به مرّة واحدة عدة أسابيع.

كان من المفيد أن أعرف كيف تكيّف شقيقاي مع هذه الثقافة. فقد كان سايرس، المقيم في أوهايو الآن، يزور برويز في شقّته في سانت لويس. بدا على شقيقيَّ المظهر والعادات الأميركية غير الرسمية. فقد انغمسا في الثقافة الأميركية، بل اتخذا صديقتين أميركيتين انضمّتا إلينا على العشاء. نشأت

صديقة سايرس، ملدريد، في مزرعة بأوهايو وكانت مسيحية شقراء. فيما صديقة برويز، شيرلي، مسيحية من تنيسي، ذات شعر بني فاتح وعينين بنيتين. لقد حقّق شقيقاي توقّعات والدي من بعض النواحي. كان أداء برويز جيّداً في حقل الطب، حيث التحق في سنة التمرين بمستشفى مرموقة، وسايرس يتابع دراسة الدكتوراه في الرياضيات بعد حصوله على شهادة في الهندسة. لم يزر أي منهما الوطن، مع أنّهما يستطيعان تحمّل نفقات ذلك الآن. وأوضح كلاهما أنّ من الصعب عليهما نفسياً القيام بذلك. فقد استغرقا وقتاً ليدركا كنه هذه الثقافة الجديدة ويصبحا جزءاً منها. وسيصدمهما التنقل جيئة وذهاباً.

الفصل الحادي والعشرون

كتبت خلال السنة العديد من الرسائل إلى باري، ولم أتلقّ رداً. وفي النهاية وصلني ردّ في الفصل الثاني.

سعدت كثيراً برسائلك وتكوّنت لدي فكرة عن طريقة عيشك. لم أكتب إليك قبل الآن إذ لم يكن لدي جديد في حياتي لا تعرفينه بالفعل. كما ربما كنت تتوقّعين، نكث طاهري بوعده ثانية، وعندما حصلت على دور في مسرحية، منعني من المشاركة فيها. إنّه صورة كاريكاتورية عن شخصية الرجل الرومانسي التي يظهرها. وها أنا الآن أمضي الوقت في القيام بما يوافق عليه، أي تجديد المنزل.

ثمة فضاء أجوف داكن يفصل بيني وبين زوجي. وأشعر بأنّ الوقت قد حان لفضّ الزواج قبل أن أرزق بطفل. راسلت أبي وأمي للحصول على مشورتهما. فقالا لا كما هو متوقّع. وتعرفين مقدار استحالة قيامي بذلك بمفردي، دون مساعدتهما. كيف يمكنني أن أتدبّر أموري؟ سأكون مفلسة دون حصولي على المهر الذي سأخسره بالتأكيد. بل إنّني لا أستطيع الحصول على معظم مجوهراتي. فطاهري يحتفظ بالقطع الثمينة في خزنة في المصرف. ويقول إنّني أفتقد إلى الإدراك الكافي وسأفقدها، كما أنّ ثمة سرقات للمنازل في هذه الأوقات. والشابة المطلّقة لا تحصل على العمل بسهولة هنا، والأمر نفسه ينطبق على محاولة استئجار بيت والعيش بمفردي، حتى إذا كان بوسعي تحمّل نفقات ذلك. قد تكون حياة الأرملة بمفردها أسهل من حياة المطلقة، حتى في أكثر القطاعات عصرية. فالمطلّقة التي تعيش بمفردها تحظى بمكانة

العاهرة من الناحية العملية. لا أريد أن أفقد الأمل لكن اليأس بدأ يتسرّب إلى نفسي. لقد كنت أقوى مني...

لبثت جالسة على المقعد شبه مشلولة من الحزن. أخيراً وضعت الرسالة في صندوق كرتوني أحفظ فيه مشطاً قديماً مصنوعاً من ترس سلحفاة ومجموعة تسريح للشعر أعطتني إياها باري عندما كنا في الأهواز. كان غطاء العلبة مزيّناً بتصاميم لفتاة ممشوقة تجلس قرب أحد الجداول. وقد كتبت عليه اسم 'باري'.

بعد عدة أشهر، وصلتني رسالة ثانية.

ناهيد، أنا حامل في الشهر الثاني. كنت آمل ألا أحبل، لكن ها أنا حامل بجنين ينمو في أحشائي. أصارحك القول يا عزيزتي بأنّني لست سعيدة بهذا الحمل. فهو يقتل آمالي بفسخ هذا الزواج. إنّني واثقة من أنّ طاهري يخرج مع عاهرات، على الرغم من حرصه على الإبقاء عليّ. فأنا أشم روائح مختلفة عالقة عليه. لم أستطع يوماً أن ألجم نفسي فواجهته. أنكر الأمر بشدّة. وحاول بعد ذلك كالعادة أن يرضيني بالهدايا الفاخرة.

من الأمور الجيدة في حياتي صداقتي مع أزار ميرشاهي. إنّها تقيم في منزل في الجهة المقابلة من الشارع. وهي في مثل سني تقريباً، ومتزوّجة من رجل أعمال يعمل في شركة لتعليب الكافيار، ولديها ثلاثة أطفال. أزورها في منزلها حيث نشرب الشاي ونتبادل الأحاديث. قالت لي بالأمس شيئاً أزعجني كثيراً. سألتني إذا كنت أعرف شيئاً عن ماضي طاهري. افترضت أنّها تشير إلى خروجه مع العاهرات، لكنها قالت إنّ هناك أمور تتعلّق به يجدر بي أن أعرفها بنفسي، إذ إنّها أقسمت على إبقاء الأمر طي الكتمان. إنّني أشعر بالخوف بشأن ذلك. سأحاول استخراج المعلومات منها.

في أسفل الرسالة كتبت باري قصيدة "الدمية المعبّأة" للشاعرة الإيرانية الشهيرة فوروخ فرّوخزاد. كانت فروخزاد، وقد قضت فترة من الزمن في الأهواز، تحظى بإعجاب الشعب وانتقاده على السواء لصراحتها غير المعهودة في تناول قضايا المرأة ورغباتها الخصوصية المكبوتة جداً في إيران.

تنظرين متجمّدة جمود ميت
تحدّقين في الدخان المنبعث من سيجارة
في فنجان
في نقش مضمحل على الجدار
وبأصابع متجمّدة تدفعين الستارة جانباً عن النافذة
تقفين هناك دون حراك ومثل دمية معبّأة
ترين العالم بعينين من زجاج
تراقبين المطر يهطل على الزقاق
طفل يقف عند الباب، يطيّر طيّارات ورقية ملوّنة
وفي الليل تحيط بك ذراعا رجل متغطرس في الفراش
تصرخين بصوت زائف وبعيد، "إنّي أحب..."
تنامين سنوات مزيّنة بنسيج مخرّم وخيوط معدنية، جسمك محشو بقش
انهضي وطالبي بحرّيتك يا أختاه
لمَ أنت ساكنة؟
طالبي بحقوقك يا أختاه
انفصلي عمن يقعدونك في ركن في المنزل
لكي تتحرّر حياتك.

أصبحت حياة باري مع زوجها الطاغية تلازمني الآن، لكن المسافة التي تفصلني عنها أبعد بكثير من المسافة بين الأهواز وطهران. كانت تأمل في أن تجد الحرية في طهران، لكنّها أبدت سذاجة في الاعتقاد بأنّ طاهري سيدعها تتابع ما تشاء. فأسدلت حجاباً من خداع الذات على وجهها لكي تحتمل الزواج منه.

أحسست برغبة ملحّة في التحدّث إلى باري لسماع صوتها. فقرّرت استخدام الهاتف العمومي في قاعة مبنى المنامة. كانت الساعة تشير إلى العاشرة صباحاً في سانت لويس، أي التاسعة مساء في طهران. غير أنّ

الخطوط الدولية بقيت مشغولة مدة طويلة. وعندما حصّلت الخطّ، رنّ هاتف باري كثيراً دون أن يرفع أحد السمّاعة. وحدث الأمر نفسه في الأيام التالية. وكلما فشلت في التحدّث إليها، انتابني إحساس شديد بخوف لا قرار له.

فكّرت في زيارتها. لكنّني بحاجة إلى رسالة إذن من والدي تسمح لي بالخروج من إيران والعودة إلى الكلية. ماذا لو قرّر إبقائي في إيران وإرغامي على الزواج؟ كما أنّني لا أملك المال اللازم للسفر وأعرف أنّه لن يدفع تكاليف الرحلة إذ إنّه لم يرسل المال لشقيقيّ للزيارة البتة. فقد جعل سعر الصرف غير المواتي للتومان مقابل الدولار تذكرة الطائرة باهظة الثمن. ولا تستطيع باري زيارتي لأنّ طاهري لن يسمح لها بالسفر إلى أميركا، فالقانون الإيراني ينصّ على أنّ الزوج (لا الأب) هو الذي تحتاج إلى رسالة إذن منه للسفر.

بدأت أحلم بباري. في أحد الأحلام كنت في بيت مريم، وكانت باري هناك أيضاً، وثلاثتنا جالسين حول السفرة نتناول الطعام. تسلّلت الألوان الخضراء والصفراء والكهرمانية إلى الغرفة. وفجأة قطّبت مريم جبينها وقالت، "هذه ليست باري. وهذا ليس فنائي". تفحّصتُ باري ولاحظت وجود اختلافات واضحة. وكان الفناء مليئاً بأزهار ورقية لا حقيقية.

استيقظت من نومي مبلّلة بالعرق.

وفي الليلة التالية حلمت بأنّني جالسة داخل جذع الشجرة الأجوف الموجودة في فناء بيت مريم. كان يوماً صافياً وكل شيء حولي واضح وحيوي. فجأة تغيّر الهواء، فهبّت ريح شديدة وسرعان ما تحوّلت إلى إعصار. كان أحدهم يسير نحوي في الهواء المكفهرّ ويدعونني بالاسم طالباً المساعدة. قفزت من الشجرة وأسرعت نحو ذلك الشخص الذي أصبح صوته أكثر يأساً وهو يحاول التقدّم نحوي دون أن يفلح في ذلك. أدركت أنّ باري هي ذلك الشخص، لكنّها أصغر حجماً وسناً. وما لبثت أن غاصت في الأرض قبل أن أصل إليها.

ولدت باري في مستشفى روسي حديث وجيّد التجهيز في طهران. وبعد

إفاقتها من البنج، وجدت طاهري جالساً بجوارها على كرسي قرب السرير، وهو ينظر إليها بحنوّ ومحبّة. قبّلها وقال لها، "لقد منحتنا ولداً جميلاً". لكنّ باري كانت تعرف أنّ هذا السلوك الجديد لن يدوم طويلاً، فتحت هذا السلوك اللائق والمحبّ توجد رغبة في السيطرة والاستحواذ. وستعاود الظهور ثانية. تفحّصت ممرّضة ثديي باري لترى إذا كان فيهما ما يكفي من الحليب للإرضاع. حاولت إرضاع بيجان لكنّها شعرت بألم شديد دفعها إلى البكاء. فكّرت باري في إرضاع بيجان بالقنينة، كما تفعل بعض الأمهات العصريات في طهران، لكنّ طاهري عارض الفكرة.

بعد يومين من الولادة في المستشفى، اصطحب طاهري باري إلى البيت. وكانت شقيقاته الثلاث بانتظارهما في البيت. وتدفّق على البيت للزيارة يومياً أفراد آخرون من الأقارب، بعضهم لم تلتق بهم باري من قبل. وكان كثير من أقارب طاهري مسلمين متزمّتين يأملون في أن يمنح طاهري بيجان اسماً مثل محمد أو حسين. وأصرّوا على أن يبدأ هو وباري بالصلاة يومياً ليكونا مثالاً صالحاً لطفلهما. كان طاهري يصلّي عندما يكونون موجودين، ويجبر باري على القيام بالمثل. وكانت باري تتصنّع. لم يزر والدي ومحترم باري إذ إنّهما كانا مكبّلين بمسؤوليّتهما في البيت. فقد كانت فارزين تصاب بنوبات يصعب السيطرة عليها بالأدوية. لم تكن تستطيع الكلام فينتابها غضب شديد. ولم تكن تستطيع الالتحاق بالمدرسة، لذا استخدما معلّمين خصوصيين لمتابعتها.

الفصل الثاني والعشرون

في ذلك الخريف، استدعتني موجّهة الطالبات الأجنبيات إلى مكتبها. سألتني، "ما هو التخصّص الذي تريدين متابعته"؟

"أريد أن أكون كاتبة".

قالت عابسة، "تعرفين أنّ هذا الاختصاص غير موجود لدينا. كما أنّ الكتابة غير عملية. كيف ستعيلين نفسك؟ هل أنت مخطوبة إلى رجل غني أو هل يرغب والداك في مساعدتك في أثناء رحلة الكفاح"؟

هززت رأسي.

"لمَ لا تتخصّصين في علم النفس؟ إنّه حقل عملي ويتعلّق بالناس، مثل الكتابة. وبعد أن تحصلي على شهادتك، يمكنك أن تقدّمي طلباً للالتحاق بكليات الدراسات العليا".

أعجبتني اقتراحاتها، على الرغم من أنّني لم أكن أعرف كيف يمكنني أن أتدبّر الذهاب إلى كلية للدراسات العليا. شُغفت بالعلاقة بين الأم والطفل. فأخذت أقرأ بنهم عن المراهقات، وكيف تتمرّد الفتيات في سنّ المراهقة وما قبل المراهقة على أمهاتهن، أو تكرههن. إنّهن يفكّرن بأنّ أمهاتهن يقيّدنهن وأنّهن حساسات لأقل انتقاد. كما أنّهن ينتقدن كل ما تفعله أمهاتهن: ثيابهن، وطريقة تحدّثهن، وتسريحة شعرهن. ذكّرني ذلك بموقفي من محترم التي عشت معها في تلك السنين المتمرّدة.

بدأت أدرس كل ما يتعلّق بقضايا الأم والطفل، بما في ذلك حقوق الوالد البيولوجي مقابل الوالد بالتبنّي، والقتال الشديد الذي يقع بينهما في الغالب.

في أغلب الأحيان تتخلّى الأم عن طفلها للتبنّي بسبب مشاكل مالية أو نفسانية. لكن لم يكن لدى محترم أي من هذه المشاكل.

كنت أشاهد برنامج تلفازي ذات مرة في قاعة الجلوس عن أم أمضت بضع سنوات وهي تحاول استعادة الوصاية على طفلتها التي تخلّت عنها للتبنّي. اغرورقت الدموع في عيني وسالت على خدي. كانت جانيس، وهي طالبة مقيمة معي في الدور نفسه، تنجز فرضها على الكنبة. فسألت، "هل هناك ما يزعجك"؟

أجبت، "أمي مصابة بالسرطان"، ونهضت من فوري عائدة إلى غرفتي حيث تابعت البكاء.

وجد لي برويز عملاً في الصيف كمساعدة طبيب نفساني في المستشفى التي يمضي فيها سنة التمرّن. وكان برويز نفسه يعتزم مغادرة سانت لويس إلى ولاية أخرى ليتابع دراسته كطبيب مقيم. وقد طمأن والدي، "لا تقلق، سأواصل تفقّد ناهيد".

عشت في سانت لويس مع زميلتي في الغرفة آمي التي نادراً ما كنت أراها. عصر ذات يوم، فيما كنت أنتظر الحافلة، اقترب مني شاب وسأل، "هل أنت مغنية"؟ كان يحمل علبة غيتار.

ربما دفعته طريقة لبسي إلى هذا التساؤل، قميص تي شيرت أحمر عليه صورة شفتين داكنتين، وتنورة من الكتان الأبيض ونظارة كبيرة داكنة (أنت اسعى إلى أن يكون لي أسلوبي).

"هل ارتدت نادي ليبارد للجاز"؟

قلت، "لا".

قال، "ظننت أنّني شاهدتك هناك. إنّني أعزف على الغيتار هناك". كان شعره أشعث طويلاً، منسدلاً على كتفيه. كان شديد الاختلاف عن الشبان الحليقين الذين يأتون إلى كليتنا لاصطحاب فتياتهن. قال إنّ اسمه جاك

بروهل. وقبل قدوم الحافلة دعاني إلى نادي الجاز في تلك الليلة وعرض أن يقلّني من شقتي.

جرّبت ملابس مختلفة في تلك الليلة، وسرّحت شعري بطرق مختلفة، وأنا أشعر بالقلق بشأن أول موعد لي مع أحد الشبان في أميركا.

أوصلني جاك إلى النادي بسيارته الرياضية المكشوفة الممتازة. رافقني إلى إحدى الطاولات وطلب لي جعة قبل أن ينضمّ إلى الموسيقيين على المسرح.

ظهرت على المسرح شابة قادمة من غرفة خلفية ووقفت خلف الميكرفون. قدّمها صاحب المكان باسم مارثا. كانت طويلة جداً، ذات شعر قمحي اللون وعينين زرقاوين. بعد تراجع صوت التصفيق، بدأت تغني بصوت شجي:

هل أنا كئيبة، هل أنا كئيبة، ألا تخبرك الدموع في مآقيّ...

جاء جاك في الاستراحة حاملاً كوباً من الجعة. سألني، "ما رأيك بمارثا"؟

"إنّها جيدة جداً".

"أصارحك القول بأنّنا كنا نخرج معاً - بين الحين والآخر. وقد شهدت علاقتنا كثيراً من الصعود والهبوط. ونحن الآن في مرحلة هبوط". أخذ يتلاعب بقنينة الجعة ويفتلها حول الطاولة.

شعرت بالتشوّش. لمَ يبلغني كل ذلك؟

كانت الساعة تشير إلى منتصف الليل عندما انطلقنا بسيارته إلى شقتي. قبّلني جاك في غرفة الجلوس.

همس لي وشفتاه قريبتان من أذني، "لديك بشرة وشعر رائعان".

بدأ يجرّدني من ثيابي في غرفتي. دقّ قلبي بقوّة ولهفة.

لكن على الرغم من رغبتي في الانفتاح، تجمّدت، مثلما حدث مع بيل. غمغمت قائلة، "ليس الليلة".

"ما الأمر"؟

قلت، "لا أستطيع ذلك".

"لا تتلاعبي بي".

"إنّني آسفة. ربما في مرة أخرى".

ضغط على صدري بشدّة مبدياً علامات الغضب ونهض. ثم غادر المكان وصفق الباب خلفه.

لبثت هناك أستعيد كل الملاحظات والتنبيهات التي سمعتها عن الجنس في إيران، ملاحظات عبّرت عنها مريم وجاراتها، فضلاً عن أشخاص عصريين مثل والدي وأشخاص في المدرسة. قالت إحدى جارات مريم لابنتها، "الجنس وسيلة للإنجاب فحسب". وألقت مديرة المدرسة الثانوية علينا محاضرة قالت فيها، "الرجال يحسنون معاملتك إلى أن يقضوا وطرهم ثم يهجرونك". من المدهش أنّني حاولت اتباع نموذج النساء الأميركيات في الأفلام السينمائية والكتب، لكن أقعدني رجع أصوات ماضيّ. فكّرت أنّني الآن هنا في أرض الحرية، ومع ذلك فإنّني غير حرة في حياتي. وعلى الرغم من تمرّدي، كان الخوف العميق من فقدان عذريّتي يلازمني. ولا يزال تقبيل جيمس بعد ظهر ذلك اليوم في الأهواز، وهي خطوة جريئة جداً في تلك البلدة المتزمّتة، أقصى ما سمحت به لنفسي. لو كنت فتاة أميركية، ونشأت في أميركا، هل كنت استسلمت؟ هل ذلك ما عناه والدي عندما حذّرني من أن أصبح مثل الفتيات الأميركيات؟ أحسست بالتشوّش بشأن هويتي. فقد كنت راغبة في خوض تجارب جديدة، لكنّني شعرت بانعدام الاستقرار ووجوب الحذر.

في ذلك الصيف تسلّمت رسالة من مريم. لقد تزوّجت رهبار وأقامت معه في دبي. لم تزوّدني بعنوان أراسلها عليه قائلة إنّهما دائما التنقّل بسبب عمله الذي يتطلّب السفر إلى مدن مختلفة في الشرق الأوسط. تذكّرت التماع وجهها عندما تحدّثت عنه، وسررت لأنّها حظيت به.

الفصل الثالث والعشرون

في طهران، انضمّت باري إلى مجموعة من النساء بترتيب من صديقتها أزار. وأخذت باري تحضر لقاءاتهن فيما تقوم بهجت، شقيقة طاهري، بمجالسة الصغير.

كنّ يتحدّثن في اللقاءات عن كيفية تحسين القوانين الخاصة بالمرأة. كانت شيرين، شقيقة أزار، تعمل سكرتيرة في مكتب للمحاماة وقد درست كل القوانين المتعلّقة بالمرأة وتعتقد أنّها غير منصفة. ثمة خمس نساء في المجموعة: باري، وأزار ميرشاهي، وشقيقتها شيرين تافالودي، وزهرة نجومي، ولطيفة أحكمي. كانت شيرين متزوّجة لكنّها تفكّر في الطلاق. وكانت لطيفة العزباء تعيش مع أمها التي تعاني من نوبات من الاكتئاب. فهي تعتقد بأنّ زوجها الراحل سمّمها وأنّ السمّ لا يزال يسري في جسمها. كانت لطيفة تظنّ أنّ هناك شيئاً من الصحة في مخاوف أمها، لأنّ والدها كان عنيفاً ومسيئاً لها في المعاملة. وها هي أمها الآن تنام معظم النهار في غرفة خلفية من المنزل. ولم تكن لطيفة نفسها سعيدة في زواجها ولم تجد جدوى في إنجاب أطفال إلى هذا العالم البائس. وتزوّجت زهرة مدة قصيرة قبل أن يغادر زوجها البلاد دون أن يعثر له على أثر. وهي تعيش مع خالتها وتعمل في وكالة سفر، وتعرف الكثير عن شؤون العالم. كانت المجموعة تلتقي دائماً في بيت زهرة لأنّ خالتها المسنّة تمكث بمفردها في غرفة في الجانب الآخر من الفناء.

بعد بحث مختلف القضايا، ينتهي بهن الأمر إلى قراءة الشعر. وإذا كان الطقس جيّداً يجلسن في الفناء تحت الأشجار قرب البركة. يقرأ بعضهن

قصائد كتبنها بأنفسهن. فكتابة الشعر شيء تمارسه كثير من النساء، دون أن يكون لديهن نيّة بنشره. في أحد اللقاءات، قرأت باري إحدى قصائد فروخزاد التي كتبتها قبل أن تترك زوجها:

تراودني أفكار متزايدة

بأن أنشر جناحيّ فجأة

وأطير فوق هذا السجن ساخرة من سجّاني

وفي إحدى الرسائل، كشفت لي باري ما يخفيه ماضي طاهري وألمحت إليه أزار ذات مرة.

قالت شيرين لباري بعد أحد اللقاءات، "تعتقد أزار أن من الإنصاف أن أبلغك بما أعرفه عن ماضي طاهري".

حدّقت فيها باري وهي تنتظر متلهّفة، "ما هو أرجوك"؟

"هل تعرفين أنّه أمضى في السجن عاماً قبل تسعة أو عشرة أعوام".

"لا، ليس لدي أدنى فكرة. ماذا فعل"؟

"كان يركب درّاجة نارية خفيفة بشكل طائش فدهس إحدى النساء. لو سعى إلى مساعدتها على الفور فربما بقيت على قيد الحياة. لكنّه أسرع في الهرب من المكان، وتركها تنزف على الأرض. دخلت في غيبوبة وتوفيت بعد أسبوع. حُكم على طاهري بالسجن عشر سنوات. لكن والده رشا بعض الأشخاص وأخرجه من السجن بعد عام. يعمل ابن عمي في محل للمصابيح في الشارع الذي دهس فيه زوجك تلك المرأة. كما أنّه يعرف عائلة تلك المرأة معرفة وثيقة. أرجوك لا تبلغي زوجك أنّني أخبرتك بذلك".

فكّرت باري في تهوّر طاهري في القيادة، وغضبه الدائم وقناعته بأنّ الطريق من حقه. وكيف أنّه عندما يريد التشديد على نقطة ما يضغط على قبضته بشدة حتى تبيضّ براجمه، وبعد ذلك يلتقط زهرية أو طبقاً ويرميه على الحائط. ثم يترك الحطام على الأرض ويسرع إلى الخروج من المنزل. صحيح أنّه يندم لاحقاً على سلوكه - كان يجثو على ركبتيه ويطلب الصفح باكياً، ويعلن عن حبّه لها. لكن ما جدوى كل ذلك؟ لقد أصبحت تكره هداياه

لأنّها تشعرها بأنّه كفّارته. بعد أن افترقت عن شيرين وسار كل في طريقه، أسرعت باري في العودة إلى المنزل، مدفوعة بالقلق والغثيان والخوف، وكادت أن تتعثّر.

خطر ببالها أنّها إذا عثرت على دليل على أن طاهري كان مسجوناً وما هي الجريمة التي اقترفها، فربما تمكّنها هذه المعلومات من الحصول على الطلاق دون أن تفقد وصايتها على ابنها وحقّها في الحصول على مهرها. إذا كان هناك أي مستندات في المنزل تشير إلى الذنب الذي اقترفه طاهري، فستكون في خزانة الملفات السوداء المقفلة دائماً في الدور السفلي. فقد نزلت قبل وقت غير بعيد إلى الدور السفلي الذي تعمّه الفوضى ورتّبت كل الأشياء غير الضرورية في صناديق ـ ملابس قديمة، وأطباق وأواني طهي، وثريات مكسّرة، وغير ذلك. واستعانت بمن جاء ونقلها بعيداً. في يوم آخر بحثت في الملفّات الموضوعة في الخزائن. كانت تحتوي على مستندات تتعلّق بشؤون عائلية قديمة فتركتها وشأنها. كانت إحدى الخزائن مقفلة. فسألت طاهري عما يوجد فيها. فقال إنّها تحتوي على مستندات تتعلّق بأعمال مهمة وطلب منها عدم الاقتراب منها.

عندما وصلت إلى المنزل، توجّهت إلى الدور السفلي على الفور وحاولت فتح القفل بسكين ومقص، لكنّها لم تفلح. فكّرت في استقدام مصلح أقفال لفتحها لكنّها خشيت من أنّه قد يبوح بالأمر. تركت الدور السفلي واتصلت بشيرين لكي تحضر ابن عمها لفتح القفل.

في الصباح جاءت شيرين وابن عمّها إبراهيم وقادتهما باري إلى الخزانة المقفلة. بعد أن فتح إبراهيم القفل، وجدا ملفين فقط. جلست باري وشيرين على كنبة قديمة وتفحّصتا كل الأوراق. ولم يمض وقت طويل حتى عثرتا على مستند مصفرّ وضعه محامٍ، وفيه يطلب من القاضي تخفيض حكم السجن. احتفظت باري بالمستند وأرجعت الملفين إلى مكانهما في الخزانة. ثمّ أعاد إبراهيم القفل. لن يكون بوسع طاهري أن يعرف بالأمر.

كتبت لي باري تقول، *يتعامل والدا طاهري وشقيقاته معه كأنّه إلّه. لكنّه يظهر اكتئاباً عميقاً جداً. ربما يرجع ذلك إلى أنّه يكره الضعف والحاجة في نفسه. وربّما يشعر بذنب دفين في داخله. يظهر هذا الاكتئاب إلى العلن في بعض الأحيان، ما يجعله عنيفاً. فيتحوّل من رجل لطيف باكٍ إلى شخص رهيب، ثم يرجع إلى سيرته الأولى.*

قرّرت باري أن تذهب إلى بيت والديها في الأهواز وتعرض المستند على والدها. فطاهري يعتزم التوجّه في رحلة عمل بعد أسبوعين، وسيكون ذلك توقيتاً جيداً لتنفيذ ما تعتزمه. فلا شكّ في أنّ والدي سيتفهّم سبب رغبتها في تركه بعد أن يطلع على ما اكتشفته. وربما تقف محترم إلى جانبها هذه المرة.

لاحظت باري في تلك الليلة على العشاء أنّ طاهري متوتّر وغير مرتاح، كما لو أنّه أحسّ بما اكتشفته عنه. هل يبدو عليها أي أمارة على ذلك؟ صحيح أنّها عندما تنظر إليه تفكّر بأنّه قتل امرأة بريئة، لكن هل يفصح ذلك عما تكتمه في نفسها؟

نامت باري في غرفة الضيوف في تلك الليلة، متحجّجة بأنّها تشعر بصداع شديد وتريد النوم بمفردها في السرير. كانت باري تنتظر سفر طاهري، وبعد ذلك ستأخذ بيجان وتتوجّه إلى بيت والديها. كانت تخشى أن يلغي طاهري رحلته ويبقى في المنزل لمراقبتها إذا أدرك بشكل مبهم أنّها عرفت شيئاً.

وقد أدرجت في رسالتها قصيدة أخرى لفروخ فروخزاد.

إذا حاولت يوماً الطيران هرباً من سجني

كيف سأتمكّن من تفسير ذلك لطفلي الباكي؟

سمعت وقع أقدام الفتيات خارج غرفتي في مبنى المنامة، وهمسات وقهقهات. ولزمت غرفتي بمفردي تصحبني رسالة باري.

جاءت رسالة باري التالية من الأهواز. قبل أن تأخذ بيجان وتنطلق في رحلتها، نزعت خاتم الزواج ووضعته على طاولة الطعام دون أن تترك أي رسالة. وعندما وصلت إلى البيت، تناوب والدي ومحترم على حمل بيجان وتدليله وتقبيله قائلين، "يا حفيدي الوحيد" أو "يا صغيري الجميل".

في وقت لاحق أطلعت باري والدي على المستند.

قالت له، "ربما عاشت المرأة لو لم يهرب طاهري بعد أن داسها. هل تمنحني المحكمة الطلاق وتدعني أحتفظ ببيجان وأحصل على مهري أيضاً إذا أطلعتها على هذا المستند"؟

قرأ والدي المستند بعناية وقال، "إنّه لا يقول شيئاً عن الهرب من مكان الحدث، كما أنّه خرج من السجن بعد وقت قصير. لديك الآن هذا الولد الرائع يا باري، يجب ألا تفكّري في ترك زوجك".

"كان ابن عم صديقتي في مكان الحادث ورأى كل شيء. ربما يعرف آخرين كانوا هناك أيضاً".

قال والدي، "إنّني أعمل في القانون منذ سنوات. ليس للشهود وزن كبير، لا سيما بعد سنوات من وقوع الحدث".

"أبي، حاول أرجوك. لا أطيق العيش مع هذا الرجل. إنّني أخافه".

قال وهو مغادر، "سأفكّر في الأمر".

في الصباح نظر والدي إلى باري، كان القلق بادٍ على وجهه.

"تصوّري وصمة العار التي ستلحق بنا جميعاً إذا حصلت على الطلاق".

قالت باري، "ألا يحقّ لي الحصول على بعض السعادة الشخصية".

"إنّك واقعة تحت تأثير الأفلام السينمائية الأميركية يا باري. إنّ فكرتها عن السعادة الشخصية تتسم بالأنانية، وقد أضرّت بإحساسهم بالعائلة. لذا يشعر كثير من الأميركيين بالتعاسة والوحدة ويقتلون أنفسهم بالعقاقير والكحول. ما لدينا أرقى، على كل فرد أن يفكّر في سعادة الجميع".

قالت محترم وهي تضع بيجان في حضنها، "انظري إلى هذا الطفل الرائع. ربما لا ترينه ثانية إذا حصلت على الطلاق. المحكمة ستحكم لطاهري بالاحتفاظ به لأنّ عمره سنتان ولا يحتاج إلى رضاعة. إنّه القانون. وأكثر ما يمكن أن تحصلي عليه حقّ الزيارة. وطاهري يعيش في مكان بعيد من هنا، وهو سيحرص في أي حال على إبعاد بيجان عنك". وران الصمت على الجميع.

سألت محترم، "هل تريدين الوقوف في الموقف نفسه الذي تعاني منه النساء المسكينات الوحيدات غير القادرات على إيجاد زوج"؟

"لكنّني متزوّجة بالفعل".

"ستغدين غير متزوّجة ثانية إذا أصررت على موقفك".

عرف طاهري من شقيقاته أنّ باري أخذت بيجان وتوجّهت إلى بيتها على الأرجح، لذا قطع رحلته وعاد إلى الأهواز على الفور. عندما وصل طاهري، كانت باري في الفناء مع بيجان. حمل بيجان وقال، "احزمي أغراضك لنرحل، وإلا سآخذ ابني بدونك".

دخل والدي الفناء قادماً من الشارع وحاول انتزاع بيجان من يدي طاهري.

صاح طاهري، "إنّه ابني وسيأتي معي. لقد أفسدت ابنتك فلم تعد مناسبة لتكون زوجة أو أماً. عليك أن تعيد تربيتها". خرج طاهري من الفناء وبيجان يبكي بين ذراعيه.

لم يلحق به والدي، إذ لا جدوى في ذلك. أبلغ باري بأنّ عليها العودة إلى زوجها وطفلها. بقيت باري على الرغم من أنّ والدينا لم يكونا مرحّبين وأنّها اشتاقت كثيراً إلى بيجان. انتقدها والدي ومحترم لأنّها تركت زوجها في المقام الأول. ولم يقرّ والدي سوى بأنّ طاهري، "أدنى من عائلتنا فكرياً وثقافياً".

تزوّج مجيد وأقام في أصفهان، حيث يمارس التعليم ويعمل مساعد مخرج في استديو للأفلام. سمعت باري من صديقتها غلناز أنّ أمه اختارت له

عروساً. وأخبرتها غلناز أيضاً بأنّ مجيد يجد زوجته "عادية جداً"، وليست امرأة يستطيع التحدّث إليها أو مشاركتها في أفكاره. وقالت غلناز إنّ ما يتوقّعه مجيد من الزوجة مختلف عما يتوقّعه معظم الرجال. وأملت باري أن يعرف مجيد بأنّها موجودة في الأهواز ويأتي للبحث عنها، ويدسّ رسالة في يدها، ويرسل إليها الأزهار كما اعتاد أن يفعل. وكانت لا تزال تحتفظ ببتلات الأزهار المجفّفة في أدراج مكتبها. لكنّ كآبة مزاجها دفعتها إلى تعذيب نفسها بصور مجيد وهو يتقاسم المكان نفسه مع زوجته ويبادلها الأحاديث الحميمة واللمسات.

لم تكفّ عن التفكير في اللقاءات المسروقة التي جمعتها بمجيد ـ حيث كانت تنقطع أنفاسهما ثم يعودان إلى حيويتهما على إيقاع الرغبة. وكانت تأمل في أن تبثّ تلك المشاعر في زواجها لكنّها لم تفلح بالطبع.

كانت مانيجة تتردّد على البيت، دون زوجها، وتمكث فيه بضعة أيام كل مرة. لم تخطر مانيجة لي على بال منذ مدة طويلة، وقد أعاد مجرّد رؤية اسمها في الفقرة الأولى من رسالة باري كل التوتّر غير المحلول فيما بيننا. قالت باري إنّ ثمة تغيّراً قد طرأ عليها. ربما تغيّرت باري أيضاً وصار بوسعها أن تنظر إلى مانيجة نظرة متعاطفة. والآن أخذت مانيجة تبوح بأسرارها إلى باري، فأخبرتها أنّها مقتنعة بأنّ زوجها يحب امرأة أخرى. كانت تحنّ إلى جواره، وتريد إنجاب الأطفال، لكن جواداً لم يكن يقبل عليها. وفي معظم الليالي يعود إلى البيت في وقت متأخّر ويخرج في الصباح الباكر. وعندما سألته عن حاله ادّعى بأنّه منشغل جدّاً بالعمل في مستشفى المصفاة. وفي المناسبات القليلة التي كانا يخرجان فيها معاً كزوجين، لاحظت مانيجة أنّه يتبادل النظرات باستمرار مع شهلة، وهي ممرّضة تعمل في المستشفى نفسه. ورأتهما يمسكان سراً أحدهما بيد الآخر تحت الطاولة. وكان جواد الذي يتحدّث باحتقار عن معظم النساء يمتدح شهلة باستمرار. وقد استغربت مانيجة ذلك لأنّ الآخرين ينتقدون شهلة قائلين إنّ أخلاقها سيّئة وعائلتها غير معروفة، كما أنّ أباها اعتُقل مرّة لتهريب المخدّرات إلى داخل البلد. وصار لدى مانيجة قناعة بأنّ جواداً كان يريد أن يتزوّج شهلة لكنّه تزوّجها بدلاً منها حفاظاً على المظاهر وبضغط من والدته. ولم يصرّح لمانيجة قطّ بأنّه يحبّها.

لم تصدّق محترم أنّ جواداً أو أي رجل يمكنه أنْ يتجاهل مانيجة، ملاكها. واعتقدت أنّ السبب ربما يعود إلى أنّ مانيجة تنأى بنفسها عنه. ونصحتها قائلة، "أظهري له كم تهتمين به. انتظري وسترين أنّه سيتيّم بك متى بدأ ينظر إليك حقاً".

قالت محترم إنّ والدة جواد مغرورة ومتكبّرة، ولولا ذلك لبحثت الأمر معها. فعندما قدمت السيدة غولستاني لتطلب يد مانيجة لابنها، لم تكثر الكلام كأنّها تريد تبديد الكلام.

دُهشت باري لأنّ مانيجة ألقت باللائمة على محترم لأنّها لم تعدّها للحياة الحقيقية، وبالغت في تدليلها وحمايتها. فمانيجة التي كان أدنى صداع تشعر به يحفز محترم على حملها إلى الطبيب، وأي عبسة منها تملؤها بالغضب من نفسها، تتوقّع من أمّها الآن أن تصلح لها حياتها. ومع ذلك لم تكن مانيجة تعتزم طلب الطلاق. كانت تأمل في أن يثوب جواد إلى رشده ويحبها. كما أنّها تحبّ فكرة أن تكون متزوّجة. كانت تحبّ أن يخاطبها علي والآخرون الذين يأتون للزيارة أن يخاطبوها باسم السيدة غولستاني. وكانت ترفع يدها بحيث يظهر خاتم الزواج فيها.

قال والدي لباري ومانيجة، "المشكلة تكمن فيكما. إنّكما تتوقّعان الكثير وقد أفسدكما الدلال".

كان والدي ومحترم قلقين أيضاً على مستقبل فارزين. من سيتزوّجها عندما تصل إلى سنّ الزواج؟ وكانت محترم تعزّي نفسها قائلة، "إنّها جميلة وذات عينين زرقاوين رائعتين". وتضيف بمرح نادر، "في النهاية، الفكر عند النساء ليس من أولى الأولويات لدى الرجال".

ذات يوم رأت باري والدي واقفاً على الشرفة وهو يبكي.

الفصل الرابع والعشرون

أبلغني برويز في رسالة تلقّتها منه أنّ والدي سيرسل لي تذكرة سفرة بالطائرة عندما أتخرّج.

في سنتي الأخيرة في الكلية، 1968 ـ 1969، تواصل الاضطراب في إيران، وساد التوتّر كما كان الحال في سنين دراستي الثانوية. فمنذ أواخر الستينيات، درّ ارتفاع أسعار النفط مليارات الدولارات على الاقتصاد الإيراني، لكن الناس كانوا يعتقدون أنّ معظم هذه الأموال تذهب إلى جيوب الشاه، أو الدائرة المحيطة به، أو تنفق على الجيش. وكان الخميني يرسل من منفاه في العراق، بعد أن غادر تركيا، رسائل إلى الإيرانيين تدعو إلى إحلال نظام إسلامي ديمقراطي محل حكم الشاه الفاسد وتحالفه مع الولايات المتحدة. ويحضّ الشعب على النزول إلى الشارع تأييداً له. وأدى ذلك إلى حملة اعتقالات واسعة في صفوف المتظاهرين.

كان وضع عائلتي المؤلم يضيف مزيداً من الضغوط علي إلى جانب الوضع السياسي في إيران. وعلى الرغم من تقلّب أحوالي بين المُرْضية والمزعجة، فإنّني أريد البقاء في أميركا. لكن تأشيرتي تنتهي خلال ستة أشهر بعد تخرّجي ما لم أواصل الدراسة في الجامعة. في سنواتي الثانية والثالثة، تحسّنت درجاتي كثيراً، إلى جانب لغتي الإنكليزية، لكن علي أن أحل مشكلة إعالة نفسي في أثناء متابعة بالدراسات العليا. فما من جدوى من طلب المساعدة من والدي.

اتصلت بليندا، صديقتي التي انتقلت إلى مدينة نيويورك. أبلغتني عن "نيو سكول"، وهي جامعة تسمح للطلاب بالتسجيل نصف دوام والعمل

نصف دوام. ولا حاجة إلى طلبات رسمية. وكانت تعتزم الانتقال إلى خارج نيويورك بعد بضعة أسابيع ـ إلى تاوز مع صديقها الرسام لكي يوفّرا بعض المال ويركّزا اهتمامهما على الرسم. فكّرت في أنّني إذا توجّهت إلى نيويورك دون أن أبلغ والدي، فسيكون من الصعب عليه مكان وجودي، ولن يتخلّى عن كل شيء في حياته المعقّدة للقدوم إلى هنا والبحث عني.

في يوم التخرّج كانت أشجار الزيزفون مزهرة في حرم الكلية. وكنت أرتدي عباءة التخرّج وقلنسوته وأقف إلى جانب الفتيات الأخريات على المرج الأخضر في الكلية، لكنّني الوحيدة التي لم يحضر أي من أفراد عائلتها هذه المناسبة.

بعد الحفل، قفلت عائدة إلى غرفتي، فيما لا يزال الجوّ مليئاً بعبارات التهنئة. كنت أعتزم ركوب الحافلة إلى نيويورك في اليوم التالي. كتبت رسالة إلى والدي في تلك الليلة أبلغه فيها بأنّني قرّرت متابعة دراساتي العليا والعمل بدون تفرّغ، وأنّني لن أعود إلى الوطن. ولم أقدّم أي معلومات عن اعتزامي التوجّه إلى نيويورك. كان إسقاط تلك الرسالة في صندوق البريد أشدّ إيلاماً وإثارة للخوف مما توقّعت. كأنّني متدلّية من حبل يمسك به والدي وانقطع.

وصلت الحافلة إلى محطة سلطة الموانئ في نيويورك في السادسة صباحاً. شعرت بالترنّح والضياع، فجلست في مطعم في المحطة لتناول الفطور والتفكير في تدبير أموري. فقد انتقلت دون التخطيط مسبقاً لمكان إقامتي، ولم يكن لدي عمل.

سألت امرأة تجلس إلى طاولة قريبة من طاولتي، "هل تعرفين فندقاً آمناً وغير مكلف في نيويورك"؟

قالت وهي ترفع نظرها عن جريدتها، "ليس هناك شيء غير مكلف في هذه المدينة".

كان لدي حقيبة واحدة ومبلغ 755 دولار باسمي. وكانت الشوارع خارج المحطة تعجّ بالناس والسيارات، بحيث خارت عزيمتي.

أخذت أمشي ببطء في الشارع مع اتجاه تنازل الأرقام، وكنت أتوقّف بين الفينة والأخرى لأنزل الحقيبة الثقيلة وأستريح قليلاً. دخلت ردهة فندق حديث.

سألت المرأة خلف المنضدة، "هل لديك غرفة مفردة لهذه الليلة"؟ تفحّصت سجلاً كبيراً أمامها وقالت، "نعم"، ثم ناوَلتني ورقة الأسعار. فوجدت أنّ الأسعار تبدأ بمئة دولار في الليلة.

غادرت المكان وأخذت أمشي ثانية. عندما وصلت إلى شارع تبدأ أرقامه بالعشرينات، لاحظت فندقاً لوحة على الباب بأنّه نزل للسيدات. كانت الردهة صغيرة وحقيرة، ذات جدران ملطّخة وأزهار اصطناعية موضوعة في أماكن مختلفة.

سألت المرأة عند المنضدة، "ما هي أسعار الغرفة المفردة"؟

قالت، "مدة الإقامة الدنيا أسبوع، وأسعارنا تبدأ بـ 350 دولاراً في الأسبوع".

"هل لديك أي غرفة بـ 350 دولاراً"؟

أومأت برأسها وطلبت ما يثبت أنّني فوق الثامنة عشرة. أريتها جواز سفري، وناولتها 350 دولاراً مقدّماً وسلّمتني إيصالاً ومفتاحاً.

بعد الاستراحة قليلاً في الغرفة الصغيرة الداكنة، خرجت للمشي.

تناولت سندويشاً في مطعم قريب، وقرأت في أثناء ذلك إعلانات في الجريدة عن أعمالاً متوفّرة. كانت صفحات الإعلانات التي تطلب كثيرة، لكنّ معظمها يطلب تعليماً أعلى مما لدي وخبرة، ومهارات جيدة في الطباعة على الآلة الكاتبة على الأقل. علّمت على القليل منها وتوجّهت إلى هاتف عمومي، وبدأت أجري الاتصالات.

الفصل الخامس والعشرون

تمكّنت من إيجاد عمل في نيويورك كجليسة لطفلة مقابل المنامة والطعام. كانت ناتاشا في الثامنة من العمر، ووالداها فنّانين من قرية غرينتش. وكنت بعد وضع الفتاة في الفراش كل ليلة أسترق قليلاً من الوقت للكتابة.

كتبت قصة عن قدوم أردفاني لزيارة والدي. وقد أعطيتها نهاية مختلفة أكثر كآبة.

... سارت مينا بهدوء، وعندما وصلت خلفها همست، "سيمين".

التفتت سيمين ونظرت إليها نظرة حالمة برهة. "هذه أنت". أمسكت بيد مينا تلقائياً ثم تركتها.

قالت مينا، "أشعر بالسعادة لأنّني وجدتك هنا. كنت ضجرة طوال اليوم".

"أين أسرتك"؟

"هناك".

"أسرتي في الجانب الآخر، ولذلك لم نلتقِ من قبل". رفعت سيمين قصبة الصيد وأخرجت الصنارة من الماء، ثم وضعتها على الأرض وقالت، "أريد الجلوس. لقد تعبت".

جلست على ضفّة النهر المعشبة، وجلست مينا قربها. كان البعوض يئزّ على الأشجار المتفرّقة حولهما والهواء عابقاً برائحة نتنة.

سألت مينا بعد لحظات، "قولي لي لماذا تتجنّبينني"؟

"ما من سبب معيّن".

"أخبريني أرجوك".

وضعت سيمين يدها على رأسها بحيث لم يعد بوسع مينا أن ترى سوى نصف وجهها وقالت، "تريدين أن تعرفي. السبب هو ما حدث في ذلك اليوم مع أردفاني. فقد بدا ما كتبه لك عفوياً، وحسدتك كثيراً عليه. وكان عليّ أن أتجنّبك إلى أن يتلاشى ذلك الشعور". بدا صوتها أجوف وقادماً من بعيد. وأحسّت مينا برعشة وهي تستمع إلى صوت ما عادت بوسعها أن تميّزه.

قالت بعد لأي، "لا تكوني سخيفة".

تابعت سيمين، "عندما كنت في الغرفة معه، وددت بشدّة ألا تكوني موجودة معنا أنت ووالدك. أردت أن أكون مع أردفاني بمفردي".

تذكّرت مينا أنّ الأفكار نفسها راودتها عندما وقفت في الغرفة وشعرت أنّ أردفاني تجاهلها. لكنّ تلك الأفكار اختفت بسرعة، كالشرر. أخفضت رأسها لكي لا ترى سيمين الدموع تغرورق في عينيها.

قالت بعد لحظة، "لقد مضى كل ذلك الآن". شعرت بالأمل قليلاً، لكنّها لاحظت بعد برهة أنّ الفجوة التي تفصل بينهما أخذت تتسع. وزاد ذلك الاعتراف الأمر سوءاً بدلاً من أن يحسّنه. واكتنفها إحساس بالكآبة أعمق من ذي قبل.

ذات يوم، راقبت أم ناتاشا وهي تحمل ابنتها وتقول لها، "أنت الفتاة الأجمل والأكمل، وفرح حياتي وبهجتها". فعرفت أنّ علي الرحيل. كنت أكبرها بعام واحد عندما قدم والدي إلى فناء المدرسة في ذلك اليوم. ففتح جرح في داخلي، وما عدت أطيق النظر إلى ناتاشا البتة.

بعد أن عملت فترات وجيزة كنادلة ومساعدة في مستشفى، دخلت دار "جودسون هاوس"، وهو مبنى لإقامة الطالبات في قرية غرينتش، يحصل على مساعدة من كنيسة مجاورة. كنت قد سجّلت للتوّ ثلاثة مقرّرات في "نيو سكول" لفصل الخريف، اثنين في علم النفس، والثالث في الأدب الإنكليزي.

قال لي المدير عندما جلسنا في مكتبه الصغير المطل على شارع تحفّ

به الأشجار، "مع أنّنا ننتمي إلى إحدى الكنائس، فإنّنا لا نميّز على أساس الدين أو لدينا أي نوع من الحصص. لدينا يهوديات ومسيحيات وبوذية واحدة".

"أنا قادمة من بيئة إسلامية".

فقال، "والآن مسلمة".

أحسست على الفور بالارتياح للمكان. إنّه لطيف مع أنّه ليس فاخراً، تتصاعد رائحة القهوة من مطبخه على الدوام، ويسمع فيه صوت الموسيقى عندما يعزف أحدهم على البيانو القديم في غرفة الطعام. عند الفطور، المشمول في سعر الإقامة، تحدّثت إلى بعض المقيمات، وهنّ طالبات من جامعات في الجوار. كنّ مختلفات عن الفتيات في ليندنغروف. كانت إحداهن تدرس الإخراج السينمائي، وأخرى الأنثروبولوجيا، وثالثة الطب، ورابعة إدارة الأعمال. ولم يكن معظمهنّ من نيويورك. وكثير منهنّ قدمن إلى هذه المدينة الكبيرة هرباً من قيد البلدات الصغيرة أو تاريخ من الصعوبات العائلية.

بعد بضعة أسابيع، بدأت أشعر أنّ عدم إبلاغي والدي عن مكان وجودي (وذلك يعني أيضاً أنّني لا أستطيع الوصول إلى باري) أصعب من إبلاغه به، لذا انتزعت قطعة ورق من دفتر وكتبت رسالة قصيرة دوّنت فيها عنواني وطمأنته بأنّني أقيم في مكان جيّد وآمن وأتابع دراستي. وفي الصباح، انتابني التردّد عندما وقفت قرب صندوق البريد في الشارع حاملة رسالة والدي بيدي. حاولت أن أطمئن نفسي بأن ليس لديه سلطة علي لإعادتي إلى إيران حتى إذا جاء بحثاً عني، وأنّني أقيم في بلد مختلف ذي قوانين مختلفة. وأخيراً أسقطت الرسالة.

في تلك الليلة، فيما كنت أكتب رسالة إلى باري في غرفتي، اكفهرّت السماء وبرد الهواء. وكان بوسعي أن أسمع أغنية جودي غارلند "فوق قوس قزح" من الغرفة المجاورة.

في مكان ما فوق قوس قزح
تحلّق الطيور
تحلّق الطيور فوق قوس قزح

فلماذا لا يمكنني التحليق؟

بكيت بكاء مرّاً هزّ كل كياني.

بحصولي على عمل ثانٍ بدوام جزئي في مكتب القبول بكلية نيو سكول، والإقامة في مسكن جودسون هاوس المدعوم، وحصولي على قرض طالبي، والاقتصاد في المعيشة، تمكّنت من تدبّر أموري. وشعرت بالراحة، لا في جودسون هاوس فحسب، وإنّما في المدينة بأكملها، بتنوّعها الإثني ولغاتها المختلفة. لم أكن مميّزة كأجنبية في نيويورك كما كان الحال في ليندنغروف.

لم أسمع شيئاً من والدي. وهو لم يراسلني قط من قبل، لكنّني توقّعت أن يكون الأمر مختلفاً هذه المرة.

الفصل السادس والعشرون

ذات يوم، تناولت رسالة من باري من صندوق بريدي وقرأتها فيما أنا واقفة في غرفة البريد الصغيرة.

لقد تمكّنت أخيراً، بمساعدة والدي على مضض، من الحصول على الطلاق. لكنها لم تنل حريتها من طاهري إلا على حساب مهرها وابنها. ومع أنّها منحت حقّ زيارة بيجان، فإنّها لم تنجح في رؤيته حتى الآن. فكما حذرتها محترم، أدّى بعد المسافة وصعوبات إجراء الترتيبات مع طاهري إلى جعل هذا الأمر مستحيلاً. وقد توجّه والدي إلى طهران عدة مرات وحاول استخدام نفوذه لدى قاضٍ يعرفه منذ أيام الدراسة في كلية الحقوق للتمكّن من إحضار حفيده للعيش معهم، لكن القاضي قال إنّه لا يملك صلاحية تغيير القوانين. وذكر والدي جريمة طاهري، لكن كما كان قد توقّع من قبل، مضى وقت طويل على الحادثة، وليس لديهم دليل على سبب وفاة المرأة. عاد والدي يائساً، ثم غاضباً من باري لأنّها أرادت الطلاق في الأصل. وشعر والدي ومحترم بالخزي لأنّ باري حصلت على الطلاق.

إنّ انتقاداتهما تزيد من شعوري بالذنب. هل ارتكبت خطأ لأنّني لم أتسامح مع طاهري لكي أبقى مع بيجان؟ إنّني أفتقد لابني الحبيب كثيراً. أسمع صوته يناديني، ويطرح علي أسئلة. أخشى أن يؤثّر عليه طاهري ويصبح مثله. وترتعد فرائصي من مجرّد التفكير في حدوث ذلك.

أختي العزيزة، أشعر بوحدة شديدة بدونك، بالحاجة إلى التحدّث إليك ومشاركتك الآمال والأحلام، لكنّني سعيدة لأنّك بعيدة عن البيت. فالكآبة والتوتّر يخيّمان على المكان. ليس لي صديقات في الأهواز سوى الآنسة

بارتوفي وغلناز. كل صديقاتي السابقات استهجنّ إقدامي على ترك زوجي على حساب الفراق عن ابني. كيف لا وهن لا يسعهن التفكير في الطلاق حتى إذا كن غير سعيدات مع أزواجهن. وسيبقين على الزواج حفاظاً على كرامة عائلاتهن واحتفاظاً بأطفالهن.

في البيت أقدّم المساعدة في رعاية التوأمين، وألاعبهما. وأتوجّه إلى المدرسة الثانوية مرتين في الأسبوع بعد الظهر للمساعدة في المسرحيات المدرسية. أقرأ أنا والآنسة بارتوفي المسرحيات، ونناقشها ونختار منها ما نعتقد أنّه يمكن إقراره. أتقاضى أجراً على ذلك، لكنه ضئيل جداً، مجرّد مصروف جيب. والآن بعد أن حصلت على الطلاق، أصبح ذهابي إلى أميركا متوقّفاً على أبي. فكّرت في طلب ذلك منه، لكنّني أعرف أن لا جدوى من ذلك. سألت إذا كان يمكنني الذهاب إلى هناك في زيارة قصيرة وكان ردّه رفضاً صريحاً. لا يزال السفر مكلفاً بسبب سعر صرف التومان غير المواتي، لكن الأهم إشارته إلى أنّ مغادرتي ولو لفترة قصيرة قد تفقدني بيجان. وهو لا يزال يحاول أن يسمح القاضي بأن يعيش بيجان معنا. أحياناً أشعر بالتفاؤل، وفي أحيان أخرى أشعر أنّني واقفة خلف باب زجاجي سميك، أطرق وأطرق ولا أحد يفتح. وفي الجانب الآخر يوجد بيجان والتمثيل ومجيد.

كان بوسعي أن أشاهد عبر نافذة غرفة البريد هبوب ريح قوية وحركة المرور المتواصلة. وكان المقيمون في جودسون هاوس يسرعون في الدخول والخروج. وقفت ساكنة وأنا أمسك بالرسالة.

الفصل السابع والعشرون

في فصلي الثاني بكلية "نيو سكول"، لاحظت شاباً ذا شعر كثيف داكن وعينين زرقاوين في صف علم النفس. كان في كل صفّ يقف في الباب ويتفحّص الغرفة قبل أن يجلس على المقعد الفارغ بجواري.

في أعقاب أحد الصفوف، تبعني إلى الخارج وطلب مني أن أتناول العشاء معه إذا لم أكن قد أكلت بعد. وعندما تردّدت قال، "إنّني أدعوك على حسابي". لم يكن الأمر يتعلّق بعدم قدرتي على تحمّل نفقات الأكل في الخارج، بقدر ما كان حذري من الخروج مع الرجال، إذ انتهت عدّة مواعيد نهاية سيئة.

كان الجوّ ماطراً وقد ذهبنا إلى مطعم صيني عند ناصية الشارع.

كان هاوي يكبرني بأربع سنوات ويحمل شهادة في الهندسة الميكانيكية من جامعة كوبر يونيون. وقد عمل مهندساً مدة عام، لكنّه تخلّى عن العمل لأنّه وجد العمل مملاً. نفّره منه اضطراره لارتداء البدلات والعمل من التاسعة حتى السادسة في المكتب. وكان قد التحق بالدراسات العليا في الفلسفة في جامعة كولومبيا، لكن ترك هذا الاختصاص أيضاً بعد عام. وها هو الآن يدرس علم النفس. أخبرته أنّني أدرس علم النفس لأكون عملية وأنّ حلمي الحقيقي أن أصبح كاتبة.

قال لي إنّ آخر علاقة له بفتاة انتهت قبل عدة أشهر. "كانت فتاة يهودية جيّدة. كانت والدتي ستسرّ لو نجحت العلاقة".

"أسرتي تريدني أن أتزوّج مسلماً من إيران".

"إذا لن يرضوا عن خروجي معك، أنا اليهودي الأميركي".

أومأت برأسي. "وينطبق الأمر نفسه لو كنت مسيحياً".

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل عندما أوصلني مشياً إلى جودسون هاوس. فقد توقّف المطر وظهر القمر في السماء. قبّلني بسرعة ودخلت.

بعد ذلك كنا نلتقي كلما أمكن ضغط جدولينا لكي يتوافقا ـ خمس دقائق في بهو مبنى كلية الدراسات العليا، وعشرون دقيقة في مطعم الجامعة، وساعة في المساء في مطعم قريب من الكلية يقدّم وجبات سريعة. وربما جلسنا في المكتبة لأداء واجباتنا. كنت أشعر مع هاوي بحرية أكبر مما أشعر به مع الشبان الآخرين. ربما يرجع ذلك إلى أنّني شعرت بالانجذاب نحوه على الفور ووثقت به، أو لأنّني شعرت بالتوافق معه. كان بوسعنا التحدّث معاً ساعات، مع أنّنا من بيئتين مختلفتين، أو تبادل الآراء، أو الجلوس بصمت للقراءة وأداء الواجبات معاً. أخذته إلى مطعم إيراني. اشترى لي باقة أزهار من بائع دخل المطعم، فسرحت أفكاري بباري ومجيد.

بعد العشاء في مطعم قريب من الجامعة ذات ليلة، أمضيت الليلة معه في شقته. كان زجاج نافذة الحمام فيها ملوّناً، يلقي بأشعة الضوء المختلفة الألوان على كل شيء، ما جعلني أفكّر في طفولتي ببيت مريم. ومع أنّ الشقة كانت صغيرة، فإنّها كانت تسمح بتدفّق الكثير من الضوء. كانت الرفوف المحيطة بالغرف مليئة بالكتب والأسطوانات.

في الصباح اضطر كل منا إلى التوجه إلى موعد مختلف، فكان الفراق صعباً على كلينا.

بعد ذلك تحرّك كل شيء بيننا بسرعة.

قال لي بعد أن عرض علي الزواج في مطعم على ضوء الشموع، "أريد أن أعرّفك على والديّ". فقبلت دون تردّد. "لا تقلقي، لا يوجد شيء مما قد يقولانه أو يفعلانه يمكن أن يؤثّر علينا".

توجّهت أنا وهاوي بالسيارة إلى منزل والديه في يونكرز.

سألت غوسي، والدة هاوي، "كيف يمكن أن يتخالط يهودي ومسلمة"؟

نظرت إلى أطباق الروستو وكعكة البطاطا وسلطة الملفوف وحاولت التفكير في إجابة عن السؤال.

قال هاوي لأمه، "لست شغوفاً بالدين، وتعرفين ذلك".

سأل إيرفنغ، والد هاوي، "ألن تشتاقي إلى وطنك وترغبين في أخذ ابنك إليه أيضاً؟ لن يكون له مكان في بلدك".

قلت بحياء، "لا أنوي العيش هناك".

قال هاوي، "اليهود في إيران محترمون. لديهم أعمال مرموقة، وبعضهم مقرّب من الشاه".

غادرنا بسرعة بعد تناول الحلواء.

سألت هاوي في طريق العودة إلى البيت، "هل أنت مستاء"؟

"ماذا"؟

"بشأننا"؟

"بالطبع لا. أحبّ والديّ، لكنّني لا أشاركهما قيمهما". طوّقني بذراعه ليبعث فيّ الاطمئنان.

تابعت المشاهد الطبيعية ونحن عائدان بالسيارة إلى مانهاتن، وفكّرت في حالنا. ما أغرب أن يقع هذا الرجل القادم من ثقافة ودين مختلفين في حبي أنا الإيرانية المسلمة!

استرجعت ما كانت مريم قد قالته لي عن القدر قبل سنين طويلة، كما كنت أفعل في الغالب عندما أواجه انعطافات حاسمة في حياتي. هل ستنزعج، وهي المؤمنة بالأقدار، إذا ما تزوّجت رجلاً من غير ديني؟ غالباً ما كانت معتقداتها ومشاعرها متناقضة. تذكّرتها وهي تقول لشقيقاتها إنّ لليهودية نسباً مشتركاً مع الإسلام، وإنّ القرآن يجلّ الكتاب المقدّس كأحد مصادره، وإنّ المسيحيين واليهود يدعون "أهل الكتاب".

تزوّجنا في البلدية. كان والديّ في إيران. ولم يستطع سايرس، الذي تزوج صديقته ملدريد، القدوم لأنّ زوجته في أيام حملها الأخيرة. وكان برويز في إيران، بعد أن قبل العمل لمدّة عام في مستشفى في قاراخ، وهي قرية بحاجة ماسّة إلى أطباء مؤهّلين. ولم يحضر والدا هاوي.

كنت سعيدة لعدم وجود عيون ترقبني، فلن يتفحّص أحد ملاءات السرير في الصباح التالي بحثاً عن دم العذرية.

الفصل الثامن والعشرون

أخيراً كتبت إلى والديّ وباري أخبرهم بنبأ زواجي. ردّت باري فقط وهنأتني وأضافت:

يذكر أبي اسمك ويهزّ رأسه غضباً وخيبة. لكنّني أعتقد أنّه سعيد من ناحية ما لأنك لست هنا لتضيفي المزيد إلى مشاكله.

طرأت تطوّرات جديدة في حياة باري. جاءها خاطب يدعى منصور بهبهامي، وهي تفكّر في الزواج منه. انتقل منصور إلى الأهواز منذ بضعة أشهر للعمل (أرسله رئيسه في شركة البتروكيمياويات الإيرانية الوطنية في طهران للمساعدة في عمل ما). كان مقيماً في فندق بهلوي قرب بيتنا فشاهد باري وهي مارّة من هناك. فسأل عن عائلتنا، ثم كتب رسالة إلى باري يعبّر فيها عن اهتمامه ودسّها في يدها عندما كانت مارّة قرب الفندق.

أستيقظ كل يوم على أمل أن تقبليني، امرأة جميلة من عائلة ممتازة. من الصعب عليّ أن أعبّر بكلمات عن المشاعر التي تنتابني عند رؤياك. ما إن وقعت عليك عيناي أزهر يباب نفسي التي حطّمتها المآسي والخسائر. ألحظ بعض الأسى في عينيك أيضاً وآمل أن ينتج الاتحاد بين نفسين متماثلتين تربة خصبة تنعش روحينا. لقد منّ الله عليّ بفضله فأتاح لي اللقاء بك. أشعر بحاجة ملحّة إلى أن أتحد معك وأن يحرس كل منا الآخر إلى آخر العمر. إنّني أؤمن بأنّ الزواج يجب أن يعطي الزوج والزوجة مسؤولية متساوية.

سرّت باري بلغة الرجل المنمّقة في البداية، ثم انتابها القلق والحذر. ذكّرها بطاهري وطريقة تصرّفه عندما بدأ يتودّد إليها.

لم ينتظر منصور ردّ باري. فسرعان ما قدم إلى البيت بعد كتابة الرسالة وطلب يدها. (جاء بنفسه إذ لديه أقرباء في الأهواز). لم يكن غنياً كطاهري، ولا أفضل تعلّماً منه أيضاً، لكن والدي اعتقد أنّ باري يجب أن تعتبر نفسها محظوظة لكي يهتم بها، بعد طلاقها، رجل لطيف من عائلة محترمة. وقدّر والدي استعداد منصور قبول باري دون جهاز كبير لأنّها تتزوّج للمرة الثانية.

أملت باري أن يأخذها منصور إلى طهران - فهي لا تزال تريد متابعة التمثيل، لكن دافعها الأساسي الرغبة في أن تكون في قريبة من ابنها. بدا منصور متعاطفاً ومتفهّماً وأبلغها أنّه سيرحّب ببيجان ويعامله كابنه.

رسمت باري صورة لمنصور يظهر فيها أنّه ينتمي إلى فئة من الرجال كنّا نصنّفها بأنّها "مختلفة" وغير متسلّطة. وكان منصور يشبه مجيد قليلاً، بعينيه المتباعدتين وجبينه العريض، كما قالت باري، لكنّه يفتقر إلى جاذبيته. وكانت تبدو عليه مسحة من حزن.

تزوّج مرّة من قبل، لكن زوجته توفيت باللوكيميا وهي حامل بطفلهما الثاني. وتوفّي ابنه بعد ذلك في حادث لحافلة المدرسة، وهو في الخامسة من العمر. وسرعان ما استسلم لأفكار باري عن الحياة التي يجب أن يحيوها معاً بمحبة وانقياد.

لم تكن باري تعرف منصور جيّداً، فقد انحصر اتصالها به بالساعات القليلة التي كانا يمضيانها معاً في الصالون في البيت. مع ذلك تزوّجته.

في رسالة أخرى بعد بضعة أسابيع، كتبت باري أنّها وزوجها يبحثان عن منزل آخر. فسرعان ما أدرك منصور أنّ بيتهما، وهو البيت الذي كان يقيم فيه مع زوجته وابنه الراحلين، يذكّره بمآسيه.

انقطع اتصالي بباري في تلك السنة، 1971، عندما أقام الشاه الاحتفال الباذخ بمناسبة مرور 2500 سنة على قيام داريوس ببناء بيرسيبوليس، وهي مدينة

في ضواحي شيراز. فدخلت إيران في حالة من الاضطراب. واختفت الرسائل معها.

سلّطت المبالغ الطائلة التي أنفقت على الاحتفال الضوء على الملكية المبذرة، فيما يعيش قسم كبير من الناس في الفقر. وفي الخطابات، كان الشاه يشير إلى نفسه بأنّه آخر وريث لنظام ملكي يرجع 2500 سنة إلى الوراء، إلى داريوس الأكبر أول أباطرة العالم. ولإثارة إعجاب الشخصيات الأجنبية الرفيعة، أنفق ما يقرب من ملياري دولار على ذلك الاحتفال.

واصل سلاح الجو الإيراني الإمبراطوري رحلاته المتكرّرة بين شيراز وأوروبا مدة ستة أشهر لجلب الخيم المكيّفة، وكريستال بكارات، وخزف ليموج، وملاءات بورثولت، وخدمات روبرت هافيلند الحصرية، بالإضافة إلى خمسة آلاف قنينة من النبيذ. وكانت هذه الأشياء تحمّل بعناية في شاحنات الجيش وتنقل إلى بيرسيبوليس.

كانت حمولات الواردات تنقل كلّ شهر عبر الطريق الصحراوي. زيّنت الخيام بأساليب مختلفة كلاسيكية وحديثة. وكسيت جدران قاعات الاحتفالات بالمخمل المخيط في فرنسا. واستخدم الشاه فرقاً من العمال للتخلّص من آلاف الأفاعي السامة والعقارب التي كانت تعجّ بها الصحراء حيث تقام الخيام، وبناء نوافير ماء للزينة قربها، وطرق جديدة تحف بها فدادين من أشجار الصنوبر الصغيرة. وأقامت شركة النفط الإيرانية الوطنية مشاعل تستوقد من براميل النفط. وصنعت مئات الآلاف من الملصقات والطوابع والنقود المعدنية احتفاء بتلك المناسبة. وجرفت فرق من الجرّافات بعض المنازل القروية القديمة في تلك المنطقة، ونُظّفت بلدة شيراز بأكملها، وأعيد طلاء واجهات المحلات والمباني. وأنشأت إليزابيث آردن منتجات جديدة من أدوات التجميل أطلقت عليه اسم فرح، نسبة إلى الملكة فرح. وقاد مطعم مكسيم الباريسي فريق الطباخين ومتعهدي تقديم الطعام. وقد استُقدم كل الطعام من باريس، باستثناء الكافيار الإيراني الذي قدّم في بيض طائر السمان. واستقدم الراقصون الأجانب، وأنتج أورسون ويلز فيلم "نيران فارس" احتفاء بالمناسبة.

في أثناء الاحتفالات، اعتُقل العديد من الطلاب بتهمة كتابة شعارات معادية للشاه، مثل "الشاه اللص يسرق الشعب الجائع". وأطلق الخميني، وكان لا يزال في منفاه في العراق، على احتفال الشاه اسم "احتفال الشر". وأخذت الصحافة الليبرالية في إيران تنقد الشاه علناً الآن. فصدرت بعناوين عريضة مثل، "بذخ على حساب الشعب الجائع"، أو "تقديم الطعام الفرنسي إهانة لثقافتنا".

هاجم الإرهابيون عدداً من المصارف، واغتالوا مسؤولين في الشرطة، ونسفوا دور السينما. وهدّد رجال حرب العصابات بجعل احتفالات بيرسيبوليس حمام دم. أوقف السافاك 1500 مشبوه على الأقل، وتبعهم المزيد. وفي أعقاب الاحتفال، فجّرت القنصلية الإيرانية في سان فرانسيسكو، وادعى اتحاد الطلاب الإيرانيين مسؤوليته عن الحادث.

الفصل التاسع والعشرون

انتقلنا إلى كمبريدج عندما التحق هاوي ببرنامج الدكتوراه في علم النفس بجامعة هارفرد. كنت أعمل ككاتبة لنشرة طبية في مستشفى محلي في النهار، وأكتب في الليل. قرّرنا الانتظار حتى تتحسّن ظروفنا المالية قبل إنجاب الأطفال. لكن اشتدت رغبتي في إنجاب طفل واحتدمت، فقرّرنا المحاولة.

عرفت أنّني حامل قبل أن أجري الفحص. كنت جالسة على مقعد خشبي في منتزه صغير غير بعيد عن مكان عملي.

حلمت أنّني في بيت مريم، وأنّ خالاتي ومحترم جالسات في غرفة الاستقبال الواسعة يتناولن المعجّنات ويتبادلن الحديث. ابتسمت مريم لي فجأة وقالت، "ها قد التمّ شملنا ثانية".

لم أنم في الصباح البتة من قبل، فعرفت أنّ ثمة شيئاً جديداً طرأ عليّ. لم يكن حملي سهلاً. فغالباً ما كنت أصاب بغثيان الصباح، وغثيان ما بعد الظهر أيضاً، ما اضطرني إلى ترك عملي الجزئي وملازمة المنزل.

بحثت في الأسماء مع هاوي. كان ليلى اسماً فارسياً شبيهاً بلينا، اسم جدة هاوي، في آن معاً. وسايرس أيضاً اسم فارسي وشبيه بتشارلز، اسم جدّ هاوي. ففي النهاية لم يكن أي منّا منفصلاً تماماً عن بيئته.

أحسست بآلام المخاض في منتصف الليل. كانت ليلة باردة من ليالي كانون الأول/ديسمبر، وكان الثلج يغطي الأرض عندما قادني إلى المستشفى.

جاءت الطفلة كبيرة الحجم مقارنة بحجمي الصغير، حيث بلغ وزنها

أربعة كيلوغرامات. وكانت عيناها زرقاوين (كوالدها) ومفتوحتين تتفرّسان فيما حولها بفضول. ويعلو رأسها شعر بني ملتوٍ. كيف أربي ابنتي؟ لم يكن بوسعي التطلّع إلى محترم كقدوة لي. أردت أن أكون مثل مريم، ليّنة وكثيرة المديح.

كانت ليلى طفلة هنيئة وسرعان ما بدأت تنام طوال الليل. لم تكن تبكي كثيراً، بل دائمة الابتسام. راقبت كل التغيّرات التي طرأت عليها والمفاجآت التي حملتها بافتتان. الطريقة التي تدير فيها رأسها للنظر إلى شيء أو شخص ما، والابتسامة على وجهها الوضّاء عندما تتعرّف إلى ما تنظر إليه، وكلمتها الأولى، والخطوات الأولى التي خطتها دون أن تقع.

بعد ذلك جاءت فترات من الملل. فكّرت في أمي وهي تعتصر الحليب من ثديها لتعطيه إلى جدّتي من أجل إطعامي في الرحلة الطويلة إلى طهران. وفكّرت في مريم أيضاً وأيضاً، وهي تأخذني إلى المسجد حيث كانت تصلّي بين الحين والآخر. وتمسك بيدي فيما نرتقي الدرجات عند المدخل. كانت ترتدي شادورها الأسود فيما كنت أضع غطاء على رأسي استعرته من ابنة خالتي لتلك المناسبة. تساقط مطر خفيف مع أنّ الجو كان مشمساً. نظرت إليها عبر ستار الرذاذ الملتمع وظننت أنّني رأيت الدموع في عينيها وهي تقول، "أدعو الله ألا تُنتزعي منّي". كانت الحجرة مضاءة بالشموع. تناولت شمعة من صينية نحاسية موضوعة على إحدى الطاولات، أضاءتها من شمعة مضاءة، ووضعتها في أحد الشمعدانات غير الممتلئة بالشمع. أغمضت عينيها، وبعد لحظة صمت، جهرت بالدعاء.

عندما أصبحت والدة زوجي جزءاً من حياتنا، متقبّلة زواجنا بفضل الطفلة، شعرت بالذنب لأنّ مريم ليست من يشاركنا ليلى. وعندما صارت ليلى تركض نحوي لتطرح علي أسئلة أو تحصل على عناق أو قبلة، كنت أتذكّر كيف كنت أركض إلى مريم.

ذات يوم تسلّمت رسالة غير منتظرة من مريم. كان المناخ السياسي في إيران يمر في فترة من الهدوء ووصلتني الرسالة دون تأخير.

لقد طلّقت رهبار وعادت إلى بيتها في طهران. لم توضح في الرسالة ما الذي أدى إلى الطلاق، بل ذكرت أنّها تمكّنت من الحصول على تأشيرة زيارة مؤقّتة لمدة شهر. لم تكن بحاجة إلى إذن من أحد في إيران للسفر لأنّها غير متزوّجة وأباها متوفّ. ومن حسن حظها أنّ لدى إحدى جاراتها ابناً حصل على قبول في إحدى الجامعات في الولايات المتحدة، وسيرافق مريم طوال الطريق إلى شقتي في كمبريدج - وهو أمر لا تستطيع مريم أن تفعله بمفردها لأنّها لا تتحدّث الإنكليزية.

أعددنا سريراً لها في غرفة الجلوس. ولأنّني أعرف أنّها لا تتناول اللحم إلا إذا ذبح الحيوان ذبحاً حلالاً، اتصلت بمطعم شرق أوسطي وجدته في دليل الهاتف وسألت الطبّاخ إذا كان يعرف لحاماً يذبح ذبحاً حلالاً. أعطاني رقم هاتف أحدهم في بوسطن، فطلبت دجاجاً وضأناً.

فتحت الباب لمريم وبهمن عصر ذات يوم، فتعانقنا بشوق وتبادلنا القبلات. قال بهمن إنّ عليه الرحيل على الفور، لذا اقتصر حديثي معه على شكره على إيصال مريم.

قالت مريم وأنا أقودها إلى غرفة الجلوس، "كنت أخشى ألا ألقاك ثانية، وأحمد الله أن أمدّ بعمري لأسعد برؤيتك في بيتك الجديد".

"كنت أترقّب ذلك بفارغ الصبر".

جاء هاوي من غرفة النوم، حيث يوجد مكتبانا، ورحّب بمريم.

قمت بترجمة الحديث بينهما.

قال هاوي، "مرحباً، كانت ناهيد تترقّب زيارتك بشوق".

فقالت، "أرجو أن تعذرني إذا تسبّب لك قدومي إلى هنا بالإزعاج".

بعد بضع دقائق، عاد هاوي إلى غرفة النوم لكي تتمكّن مريم من خلع شادورها ونتكلّم على راحتنا بالفارسية.

كان من الصعب عليّ أنّ أصدّق أنّ مريم تجلس معي في شقتي في كمبريدج. بدت مريم شابّة مع أنّها في الخمسين. فقد غطت خصل الشيب في شعرها بالحناء، ما منح شعرها اللامع المتماوج خصلاً من الشعر الفاتح. وبدا وجهها خالياً من التجاعيد تقريباً وبنيتها جيدة. كانت ترتدي فستاناً كحلياً مزيناً بتصاميم أوراق الشجر، وتفوح منها رائحة ماء الزهر.

أحضرت ليلى من غرفة نومها الصغيرة المجاورة. وضعت مريم صغيرتي في حجرها وعانقتها وقبّلتها والدموع تترقرق في عينيها، وقالت، "لقد لطفت بك السماء ومنحتك هذه الطفلة الجميلة".

بعد قليل عادت ليلى إلى غرفتها، وحاولت ببطء أن أصل ما انقطع فيما بيننا.

عند غروب الشمس، توجّهت مريم نحو القبلة، وبسطت سجادة الصلاة على الأرض وصلّت.

قدّمت على العشاء أطباق اللحم الحلال التي اشتريتها.

قالت مريم والخجل بادٍ عليها، "أخبرني بهمن أنّهم يستعملون دهن الخنزير في الطهي في أميركا".

طمأنتها بأنّ كل ما أقدّمه حلال.

قالت، "آسفة على الإزعاج الذي أسبّبه لك".

قلت، "ليس هناك أي إزعاج". وابتسم هاوي مما فهمه من حوارنا.

بعد العشاء، نامت مريم للاستراحة من عناء السفر الطويل.

كانت مريم تستيقظ عند الفجر كل يوم، فتصلي وتتناول الفطور. وبعد الغداء تصلي، وتأخذ قليلولة، وبعد تناول العشاء، تصلّي ثانية. كانت تأخذ ليلى في حضنها وتقول لها كلاماً محبّباً. وبعد بضعة أيام، تولّت مهمة الطهي لنا - كوكو وخورش وكباب، وأصناف الأرز والسلطة الشيرازية.

كان برويز، بعد عودته من إيران مع زوجته بهيجة، ماراً ببوسطن، فعرّج علينا. التقى برويز ببهيجة في الأهواز عندما زار والدينا قادماً من قاراج. وبدا زواجه من إيرانية عرّفه عليها والدانا تحوّلاً مدهشاً بالنظر إلى مقدار تأمركه.

أخذ برويز وهاوي يشربان الجعة في غرفة الجلوس.

سألت مريم هامسة "ما الأمر"، بعدما لاحظت التوتّر عليها.

نظرت إلى الرجلين ثم إليّ، ففهمت ماذا تعني.

لاحظ برويز الأمر فقال، "آسف يا خالتي، لا نقصد أن نسيء الاحترام". وتوجّه هو وهاوي إلى غرفة أخرى لإنهاء الجعة.

تتحدّر بهيجة التي درست في الخارج من عائلة عصرية جداً، فبدت غير مرتاحة من التزام مريم المتزمّت بالإسلام. لذا توجّهت إلى الغرفة الأخرى للانضمام إلى زوجها وهاوي.

قال برويز لمريم فيما كان يغادر مع بهيجة، "سعدت جداً برؤيتك بعد كل هذه السنين".

فأجابت مريم، "وأنا سعيدة برؤيتك شاباً مع زوجتك".

بعدما غادر برويز وبهيجة، بدأت مريم بالبكاء وقالت، "آسفة لأنّني أفسدت الأمور".

بدا الحزن على وجهها الرقيق حتى كادت الدموع أن تنهمر من عيني وقلت لها، "لا عليك يا أمي، الأمر في غاية البساطة. ثم إنّ برويز كان سيغادر على أي حال".

قالت مريم فيما كنّا نسير مع ليلى، "كم أتمنى أن يعيش كل منا قرب الآخر، لكن قدرنا غير ذلك".

سألت مريم، "هل تذكرين يوم جاء والدي إلى مدرستي وأخذني"؟

أجابت، "كيف يمكنني أن أنسى؟ كان لدي تلميح إلى احتمال وقوع ذلك. فقد بعث برسالة إلى زوج خالتك رقية يقول فيها إنّه قادم إلى طهران في ذلك الوقت تقريباً. ثم أرسل زوج رقية رسالة أخرى يوم أخذك والدك من المدرسة. كأنّ الله تخلّى عني في ذلك اليوم".

"هل غضبت من محترم لأنّها لم تعدني إليك"؟

قالت مريم، "لِمَ أغضب ومنها وأنا أعرف أنّها واقعة تحت سيطرة والدك".

بينما كنا نمشي، أبدى العديد من الأشخاص دهشتهم من مظهر مريم التي كانت ترتدي شادوراً أسود طويلاً.

أخبرتني عن حياتها في أثناء سنوات البعد عن إيران، وزواجها وطلاقها. امتدحت رهبار ببلاغة، ووصفته بأنّه لطيف وحساس. بدا واضحاً أنّها تحبّه على الرغم من أنّها لم تقل ذلك البتة.

سألتها، "ماذا حدث"؟

تنهّدت وقالت، "بدأ يأتي إلى البيت مع صبي تلو آخر، فيدخلا إحدى الغرف ويمضيان الليل معاً. كان يقول دائماً، 'هذا ابن عمي'، أو 'هذا بن أخي'. أخيراً ضبطته. أبلغته أنّني أريد الطلاق وعرف لماذا. لم يحدث أي خلاف أو مواجهات. فقد كان من السهل علي الحصول على الطلاق بعد أن أطلع القاضي على ما يجري".

خانتني الكلمات، وأخيراً غمغمت، "غير معقول. أعتقد أنّك لم تعرفي عنه الكثير عندما تزوّجته".

هزت برأسها وقالت، "سأعود إلى النزل المجاور لمرقد الإمام الحسين في كربلاء. أشعر بسلام عندما أكون بجوار المرقد. ولدي صديقات طيّبات بين النساء اللواتي يعشن في تلك المنطقة".

لاحظت ثانية كم أنا قريبة من مريم في المشاعر وبعيدة عنها في نمط الحياة.

قالت بعد لحظات، "أرسلت أمّك خاتماً مع جدتك عندما أحضرتك إليّ،

كان يفترض أن أعطيك إياه عندما تتزوّجين، لكنّني فقدت أثره بعد كل السنين من التنقل. سأواصل البحث عنه".

"حقاً، خاتم، لم تذكري لي ذلك البتة".

"كنت أنتظر أن تتزوّجي".

إذاً كانت محترم تتوقّع أن أبقى مع مريم حتى زواجي. ذلك شيء لم أنظر فيه من قبل.

وعدتني مريم بتكرار الزيارة في اليوم الأخير من إقامتها عندي. فقد سارت الأمور بشكل جيد بينها وبين هاوي، كما أنّها كانت سعيدة جداً بليلى. لكن من الواضح أنّها لم تكن تشعر بالراحة في أميركا. فهناك كل القيود الغذائية، فضلاً عن أنّها لا تعرف أي كلمة إنكليزية ويلزمها سنوات لكي تتمكّن من التحدّث بطلاقة مع الآخرين. كما أنّها لا تستطيع القراءة أو مشاهدة التلفاز أو الاستماع إلى الراديو. ولم يكن يوجد كثير من الإيرانيين في المنطقة، ولا مجتمع تشارك فيه. الآسيويون الآخرون - اليابانيون والصينيون والهنود - لديهم إحساس أكبر بالانتماء إلى المجتمع، فقد أصبحت ثقافتهم جزءاً من أميركا ولديهم مطاعمهم وأحياؤهم.

شعرت بافتقاد حضور مريم في حياتي، فيما كنت أنا وهاوي عائدين بعد أن أوصلناها إلى المطار. وبدا الأمر كأنّه ترداد لما تكون عليه الحال عند مغادرتها الأهواز بعد زيارتنا.

الفصل الثلاثون

لم يفارقني ما قالته لي مريم عن الخاتم فترة طويلة بعد سفرها. فكّرت في الصائغ الذي حدّثتني عنه باري قبل عدة سنوات.

في البداية، كانت تتبادل النظرات مع الرجل عندما يتقابلان معاً في الشوارع.

أيعقل أن يكون الصائغ أعطاها الخاتم؟

ثم راودتني صورة أخرى للقصة. وفيها تسفر العلاقة الغرامية مع الصائغ عن طفلة. والطفلة أنا. وخوفاً من أن يكتشف والدي شيئاً عندما يراني، أعطتني محترم إلى شقيقتها. وربما هذا هو سبب برودتها تجاهي.

تخيّلت محترم وهي تدفع الطفلة ـ أنا ـ في عربة في زقاق ضيّق تحفّ به مبانٍ مرتفعة. تسمع أحداً ينادي عليها باسمها من الخلف. فتلتفت إلى الوراء وتشاهد الرجل قادماً نحوها. يسألها عن الطفلة، ويبلّغها حبّه. وفيما هو يهمس في حديثه همساً، أخرج علبة تحتوي على الخاتم ثم استدار واختفى بسرعة في الزقاق. تبقى محترم وحدها في الزقاق ومعها الطفلة والخاتم، غير قادرة على أن تفهم معنى هذا اللقاء. هل هو وداع أخير، أم دعوة إلى بدء حياة جديدة معه؟

قال لي هاوي ذات ليلة، "أنت تكتبين عن الماضي دائماً. اكتبي شيئاً عما يدور حولك الآن". وكان مقتنعاً بأنّ انشغالي بماضيّ ـ بمريم وباري ـ له علاقة، إلى حدّ ما على الأقل، في انصرافي عن حياتي الحاضرة.

لم يكن هاوي من يعتقد ذلك فحسب. فقد قالت لي صديقة ذات يوم، "أنت مسكونة بالماضي يا ناهيد، وأشعر بالأسى لحالك".

"أعرف أنّك محقّة".

دفعني ذلك إلى أن أبدأ بكتابة رواية قصيرة عن جيراني في البناية الذين نتقاسم وإياهم الفناء الخلفي. لكن بدت كلماتها على الورق باردة وميتة، فتخليت عن المحاولة.

عدت إلى إيران ثانية، واستحضرت المشاهد والشخصيات التي كانت جزءاً من ماضيّ.

بعد عدة سنوات عدت إلى طهران للزيارة. كنت جالسة في غرفة معيشة خالتي مريم (هي التي ربتني، لا أمي)، فيما هي تتحدّث وترسم صورة حيّة عن الذين عرفتهم في أثناء نشأتي.

"هل تعرفين أن بتول لديها اثنا عشر ولداً الآن؟ غرق ابنها الأصغر في البركة، ومنذ ذلك الحين والمسكينة تفقد وعيها عدة مرات في اليوم. يقول الجميع إنّ الطفل غرق لأنّها لا تزكّي". أو "أتذكرين حسن؟ انقلبت به الشاحنة التي كان يقودها ومات على الفور. لقد كان لئيماً، فلا عجب من أن يحدث معه ما حدث".

كانت تحاول في القصص التي ترويها ألا تترك شيئاً للمصادفة. مع ذلك كان يتردّد في كلماتها صدى المراوغة التي عشتها في نشأتي. فكّرت في الليالي المليئة بالنجوم وأنا متمدّدة على سطح المنزل إلى جانبها والصباح الذي خفت فيه من خيالي، والصمت الثقيل الذي يخيّم عصراً عندما يقيّل الجميع ويقف الحمام ناعساً في أقفاصه، والاهتمام الشديد الذي كان ينتابني عندما أستلقي قرب ابن خالتي تحت البطانية وأستمع إليه وهو يتحدّث عن الأولاد الآخرين في الحي. وعاودتني صورة المستأجرات في الغرف المحيطة بالفناء ـ المرأة التي اختبأت في غرفتنا هرباً من زوجها الذي يسيء معاملتها؛ والفتاة الشابة التي ماتت بشكل غامض في سريرها. ثمّ فكّرت في سلطانة، وهي امرأة طويلة ونحيلة ذات شعر أسود كثيف مجدول. تذكرت لمساتها الحانية عندما كانت تناولني بعض الأشياء ـ طبق أو باقة أزهار. وتذكرت التهامس عليها لأنّها غير متزوّجة.

قالت مريم، "تزوّجت أخيراً رجلاً من اختيارها شاب يعمل في مكتب. أنفق كل مالها، ثم بدأ يتخذ زوجات أخريات. لكن يبدو أنّه عمل لها عملاً. فعلى الرغم من كل الألم الذي ألحقه بها، فقد حنّت إليه عندما اختفى. بحثت عنه في كل مكان. وتوجّهت إلى الأماكن التي اعتقدت أنّ عمله يمكن أن يقوده إليها. وذات يوم عادت ولم تعد تذكر اسمه ثانية. لكنّها تغيّرت. حاولت أن تغرق ذات مرة في صهريج ماء. وكادت أن تلقي نفسها عن السطح في مرة أخرى. وذات ليلة أخذت تصيح وترمي أغراضها إلى الشارع. وضعوها في المصحّة مدة من الزمن وعندما خرجت قُيّدت بالسلاسل. إنّها تقيم في الدور السفلي، مقيّدة بعمود. ولديها ابنة أخت تزورها يومياً لتعتني بها".

في تلك الليلة كنت واقفة على حافة السطح أرقب فناء المنزل المجاور وأشجار الدلب القديمة والأقفاص المليئة بالحمام عندما لمحت سلطانة. كانت يداها مغلولتين بسلسلة خلفها فيما تمسك فتاة حسبت أنّها ابنة أختها بطرف السلسلة. كانت محدودبة، وبرزت ذقنها حتى كادت أن تلامس أنفها الطويل. غابت جدائل الشعر الأسود وحل محلها شعر أشيب أشعث. كانت تتحرّك بحذر، كمن تلقّى عدة ضربات ويتوقّع المزيد. لم يتبقَّ من مظهرها القديم سوى عينيها الداكنتين، لكنّهما بدتا مع ذلك ذاهلتين. راقبت الفتاة وهي تربط السلسلة بعمود على الشرفة وابتعدت عندما بدأت سلطانة تصيح كأنّها تجلد.

حاولت التفكير في عبرة أستقيها من سقوط سلطانة، لكنّني لم أتقبّل أياً من الأفكار التي راودتني.

وضعت هذه القصة القصيرة إلى جانب قصتين أخريين كتبتهما في السنوات الماضية - واحدة المرأة والطفلة العمياء، والأخرى عن القراءة لعلي. وبعد إجراء بعض التعديلات عليها، أرسلتها إلى بعض المجلات الأدبية.

جاء أول قبول أحظى به بعد بضعة أسابيع. فعاودني الشعور القديم الذي أحسست به من قبل عندما أذاعوا قصتي على الراديو.

تلقيت رسالة من فتاة من ليندنغروف، جودي كونراد، قرأت قصتي في المجلة. فقد ذكرت اسم الكلية التي درست فيها في المعلومات التي نشرت عني إلى جانب القصة.

لا أعرف إذا كنت تتذكرينني. كنت أقيم في غرفة قريبة لغرفتك في مبنى المنامة. ما الذي حال دون أن نكون صديقتين؟ كنا من دينين وبلدين مختلفين. لكن هل كان ذلك يهمّ بالفعل؟ أعرف الآن أنّه لا يهم... لقد وجّهت لي الحياة عدة ضربات. تزوّجت فور تخرّجي وانتهى ذلك الزواج أخيراً والحمد لله. لم نكن متوافقين البتة... وكما ترين من عنواني، أنا أعيش الآن في شيكاغو، وهي مدينة كبيرة. وألتقي بأشخاص من كل أنحاء العالم...

تذكّرت جودي. كانت هي الفتاة التي وضعت يدها على خصرها وقالت لي، "إنّنا جميعاً مسيحيون في هذه الكلية". على الرغم من أنّ الرسالة اعتذارية، فإنّها استحضرت المشاعر المتناقضة التي انتابتني على مر السنين في أميركا، حيث لم أكن هنا أو هناك.

التقيت في السوبرماركت فيما بعد بامرأة إيرانية اسمها نايرا. تبادلنا الحديث قليلاً ثم دعتني إلى الغداء في بيتها. كانت متزوّجة من طبيب إيراني. فقد رتّب والداها زواجها من ابن صديق للعائلة هاجر إلى أميركا. كان بيتها كبيراً وفاخراً، مبلّطاً بالرخام وتزيّنه أغلى أنواع سجاد الحرير الإيراني. كانت نايرا ترتدي خاتم زواج كبير من الماس، وخاتماً كبيراً من الصفّير في يدها الأخرى، ويتدلّى من أذنيها قرطين من الصفّير. قدّمت طعاماً إيرانياً أعدّته الخادمة، فسنغون، ودجاج برب الرمان والجوز المسحوق، وأرز بالزعفران، وسلطة شيرازية.

قالت فيما كنا نتناول الشاي، "أرجو ألا تمانعي سؤالي، لكن أليس من الصعب العيش مع رجل من ثقافة ودين مختلفين"؟

قلت، "لست شديدة التمسّك بثقافتي".

"لكن... من لا يتحدّث لغتك، لا يدرك من أين جئت".

لم أستطع التفكير في ردّ، وعلى الرغم من أنّ الحوار انتقل إلى موضوعات أخرى، لازمني سؤالها المحدّد. وحرّك فيّ المشاعر نفسها التي أيقظتها رسالة جودي. لقد خالفت العديد من التقاليد الإيرانية، بل أصبحت الآن مواطنة أميركية، لكنّني لا أشعر أنّني أميركية. فلدي لكنة، ولا أبدو أميركية، كما أنّ هناك كثيراً من الأشياء التي لا أفهمها عن الثقافة الأميركية.

صحيح أنّني وجدت حريتي في أميركا، لكن ثمة ثقب في داخلي، ونقص. فأنا لا أشعر بأنّني إيرانية أو أميركية على حد سواء.

بدأت أكرّس وقت فراغي لكتابة رواية تنقل هذه المشاعر. في رواية "الغريبة"، حاولت أن أوجه تلك الحالة العقلية ـ الشعور بالغربة في إيران وأميركا، إلى راوية. بطلة الرواية، فيري، شابة إيرانية قدمت إلى الولايات المتحدة بعد التخرّج من الثانوية للالتحاق بالجامعة. تزوّجت أميركياً وبقيت هناك. في مرحلة ما بدأ يراودها حنين إلى ماضيها. وبعد عدّة سنوات توجّهت إلى إيران للزيارة. شعرت في البداية أنّها غريبة ثم انهمكت في البحث عن أمها التي فقدها وهي طفلة. فعثرت عليها ثم بدأت تشكّك في سعادتها في الولايات المتحدة. وعند نهاية الكتاب لم تعد واثقة مما إذا كانت تريد العودة إلى أميركا.

شعرت فجأة بالحنين إلى العودة إلى إيران ومعاودة الاتصال بالمشاهد والأصوات والأشخاص الذين يلازمونني. وعرفت أنّ جزءاً من هوسي بالماضي يرجع إلى عدم الاتصال به.

لكن الاضطراب عاد للأسف إلى إيران ثانية وأخذ يزداد سوءاً. تشكّلت الأحزاب السياسية وحظرت بسرعة بقرارين متعاقبين من الشاه. وأخذت حركة الشباب، المتكوّنة من الطلاب الذكور تزداد حجماً يوماً بعد يوم. كانت تبعث برسائل إلى الشعب في إيران والخارج عبر نشرات إخبارية تتحدّث فيها عن فساد العائلة المالكة، وتفيد عن تعذيب آلاف السجناء السياسيين وإعدامهم، وقمع المعارضة، والرقابة المشدّدة على الكتب وعلى برامج الإذاعة والتلفزة والصحف والكلام. وعرضت صوراً فوتوغرافية لرجال ونساء عذّبوا في السجون. وقدّمت وصفاً لأساليب التعذيب ـ تعليق السجناء، الذكور والإناث، رأساً على عقب، ودسّ الخرق المبلّلة بالبول في أفواههم، وجعلهم يمشون على المسامير.

تجرّؤوا على الجهر بالدعوة إلى هزيمة السافاك، وسيّروا المظاهرات يومياً، لا في إيران فحسب بل في أميركا أيضاً ـ أمام السفارة الإيرانية، والأمم المتحدة وفي الجامعات ـ واتهموا أميركا بخيانة الثقة الإيرانية ولاموها على التلاعب في النظام السياسي.

ذات مرّة كنت أمرّ في ساحة هارفرد، والتقيت بمجموعة من المتظاهرين الذين يهتفون منادين بحقوق الإنسان والمساواة والديمقراطية. كان أحد الشبان يحمل كدسة من النشرات الإخبارية ويوزّعها على المارّة. أخذت واحدة وقرأتها فيما أنا أمشي. أشارت المقالة إلى الاعتقالات العشوائية والتعذيب والإعدام بدون محاكمة في إيران.

لما كان من المتعذّر تحديد كل الإيرانيين الناشطين في الخارج في معارضة حكم الشاه، فقد كان كل شاب إيراني عائد إلى إيران يؤخذ إلى غرفة جانبية عند النزول في المطار ويستجوب لمدة ساعات. كان العديد منهم يحتجز وتصادر جوازات سفرهم، ويزجّون في السجن، وربما يعدم بعضهم.

ذات يوم كنت أقرأ إحدى النشرات الإخبارية التي ناولني إياها شاب في ساحة هارفرد. تفحّصت صورتي شخصين أعدما، فغار قلبي. كان أحدهما ابن أخي عزت سادات، المرأة اللطيفة التي كانت مستأجرة عند مريم عندما كنت طفلة. وبعد عدّة أسابيع قرأت في نشرة مماثلة أنّ معلّمة الإنشاء التي أحببتها، السيدة سليماني، قتلت في حادث تصادم مع شاحنة فيما كانت تقود سيارتها متوجّهة لزيارة أمها. وذكرت المقالة أنّ الشهود رأوا سائق الشاحنة ينعطف نحو سيارة السيدة سليماني بعدائية ويخرجها عن الطريق. واستنتجت المقالة أنّ السائق عضو في السافاك. تذكّرت وجهها الحساس، وصوتها المتعاطف عندما تتحدّث معنا في الصف، وتشجّعنا نحن الفتيات على تطوير عقولنا.

الفصل الحادي والثلاثون

في سنة 1977 قبلت دار نورتون قصة "غريبة". وفي الوقت نفسه نُشرت القصة التي كتبتها قبل سنوات عن زيارة نفسي في "رد بوك". فكتبت باري من طهران.

كم أنا سعيدة لأجلك بعد أن تحقّق حلمك. لا أزال أذكر كيف كنّا نقرأ في الغرفة إحدى قصصك وأنا أمثّل مشاهدها.

لم أعد أفكّر كثيراً في التمثيل الآن. فأنا أناضل لكسب حضانة بيجان، وذلك يستحوذ على كل اهتمامي تقريباً. تمكّن طاهري من منعي من مشاهدة بيجان حتى الآن. ولم تجدني الشكاوي إلى السلطات أي نفع حتى الآن. فقانون حماية الأسرة الصادر في سنة 1967 الذي أدخله الشاه لتحسين حقوق المرأة لم يطبّق... أستيقظ في منتصف الليل وأنا أصيح بيجان، بيجان. فيستيقظ منصور ويشعر بالأسى على فقد ابنه... أحياناً أشعر بأنّني أركض وراء حلم خلّب - أن أكون ممثّلة، وأن أتقاسم الحياة مع... نعم لا يزال مجيد يلازم تفكيري... وأن أستعيد ابني... كأنّني بدأت أفقد الإحساس بنفسي داخل جسد غريب عني. كم أتمنّى أن نتمكّن من التحدّث معاً كما في الأيام الخوالي، ونجلس بجوار البركة....

في تلك السنة أطلق الشاه 357 سجيناً سياسياً. ووعد بدخول الإيرانيين إلى البلاد وخروجهم منها بدون استجواب ما دامت لديهم جوازات سفر صالحة وتأشيرات. وقد نتج هذا النهج الجديد عن الضغوط الدولية. فقد قدّمت منظمة العفو الدولية تقريراً تصف فيه سجل السافاك في ممارسة التعذيب في السجون بأنّه "يتجاوز حدّ التصديق". وأبلغ الرئيس جيمي كارتر

الشاه بأنّه إذا لم يحسّن سجل حقوق الإنسان، فستتوقّف المعونة الأميركية، بما في ذلك المعونة العسكرية. وبدأ كارتر يعتقد أنّ الغضب الإيراني من أميركا عائد إلى وحشية السافاك الذي أنشأته أميركا وأمدّته بالدعم. لقد كان الغضب من أميركا شديداً ويتصاعد يوماً بعد يوم. ففجّرت جماعة معارضة عدة مكاتب دولية في إيران، بما في ذلك جمعية العلاقات الإيرانية ـ الأميركية، ومكتب الإعلام الأميركي، ومكاتب شركة ببسي كولا، والخطوط الجوية أميركان، وشركة شل. وقُتِل العديد من الموظفين الأميركيين في هذه التفجيرات.

مع ذلك رأيت أنّ الوقت قد يكون مناسباً لزيارة إيران. فربما لم تعد المخاطر الآن جسيمة كما كانت من قبل. وقد أخذ الإيرانيون يتردّدون على إيران. لكن عدم إجازة الرقابة قصة "غريبة" في إيران جعلني أغيّر رأيي في الزيارة.

قبل أشهر من نشر قصة "غريبة" في أميركا، تلقيت مكالمة من شاب إيراني قرأ مقتطفات من روايتي التي نشرتها في رد بوك. وكان يريد ترجمة الكتاب إلى الفارسية. وافقت على أمل أن تتمكّن باري من قراءة قصتي.

كان هناك أحد الناشرين الإيرانيين المهتمين. أرسلت السلطات الرقابية إلى المترجم لائحة بالكلمات والجمل التي يجب حذفها: كلمات مثل "أحمر" التي ترمز إلى الشيوعية، و"الليلة السوداء" و"الأسوار العالية" اللتان ترمزان إلى القمع والسجن على التوالي. فأجريت التعديلات على مضض.

لكن بعد بضعة أسابيع علمت أنّ الرقابة منعت نشر الكتاب. فعلى الرغم من أنّ بطلة القصة تعود إلى ثقافتها في نهاية القصة، فقد اعتبر الرقيب أنّ نبرة الكتاب "متحاملة على إيران". قالوا إنّه يصوّر سريراً في فندق عليه بقة، وشارعاً قذراً. ومثل هذه التفاصيل قد تشير إلى أنّ محاولات الشاه التجميلية فشلت.

انتقل تفكيري إلى أردفاني، الكاتب الذي نسجت رواية من زيارته إلى بيتنا في الأهواز. لقد قال والدي إنّه يتدبّر أمره في الوقوف على أرض صلبة.

وتساءلت عما حل به، إذا واصل النشر أو إذا أوقعته كتبه المعتدلة في مشاكل.

فكّرت في كاتب أكبر سناً من أردفاني، صادق هدايت، كنت أقرأ له في الأهواز. كان يكتب روايات واقعية وسوريالية وقصصاً قصيرة مثيرة للاهتمام، وبعضها مجازي. لكن منعت كتبه في مرحلة ما لأنّها تصوّر بشكل واقعي الجوّ الخانق واليأس الذي يعاني منه العديد من المواطنين، ولم يكن بوسعي إيجادها إلا في مكتبة طبطبائي.

أغضبت إحدى قصصه عن كلب ضال النظام لأنّهم فسّروها بأنّها تعبّر عن وحشية السافاك.

... اقتصرت حياته بأكملها الآن على السعي الدائم وراء قوت يومه الذي يحصل عليه بالبحث خائفاً في أكوام القمامة، والتعرّض للضرب طوال اليوم. صار الصراخ والأنين وسيلته الوحيدة للتعبير... كان ذات يوم جريئاً لا يهاب شيئاً ونظيفاً ومليئاً بالحياة، لكنّه أصبح الآن كبش فداء مذعور... أصبح كتلة من الأعصاب: إذا سمع صوتاً أو حركة قربه، يكاد يقفز من جلده من الخوف... لقد مات فيه شيء واحترق... فجأة تخدّرت أحاسيسه عندما تذكّر كيف كان يرضع ذلك السائل الدافئ المنعش من ثدي أمه فيما تنظّف جسمه بلسانها القوي....

وجدتني داخل غرفة إسمنتية كهفية ذات مصباح يتدلّى من السقف وينشر ضوءاً أصفر غريباً. كنت أقف في منتصف الغرفة وثمة نار تستعر عبر النافذة. قال رجل يشبه صوته صوت هاوي لكنني لم أستطع أن أراه، "اقفزي من النافذة الخلفية". ركضت نحو النافذة، لكنّها واصلت التراجع...

استيقظت مشدوهة وقلبي يطرق بشدّة. ضمّني هاوي بذراعيه لتهدئتي وقال، "لقد انتابك كابوس".

القسم الثالث

أرض الجـواهـر

الفصل الثاني والثلاثون

أرسل لي والدي رسالته الأولى بعد مضي اثنتي عشرة سنة على مغادرتي إيران. فهزّني مجرّد مرآها في صندوق البريد. لم يتصل بي منذ ذلك الوداع الغريب والمتناقض في الأهواز.

ناهيد، لقد تقدّم بي العمر وتمكّنت من إيجاد مكان في قلبي لكي أسامح ابنتي العنيدة. حان الوقت لكي تزوري الوطن أنت وزوجك وابنتك. والوقت مواتٍ لأنّ الشاه قدّم ضمانة بعدم التعرّض لكل الإيرانيين القادمين من الخارج.

وقفت هناك غارقة في بحر من المشاعر. لقد كان والدي غاضباً مني كل تلك السنوات. ولم يعد كذلك الآن. لم أفكّر فيه منذ مدة طويلة، وأجبرت الآن فجأة على التفكير به.

ربما لم تكن مخاطر الذهاب إلى إيران جدية جداً وأنّني وقعت ضحية مخاوفي. كان الإيرانيون يأتون ويذهبون ولم يقع في مشاكل خطيرة سوى قلة قليلة منهم. اتصلت بالقنصلية الإيرانية في نيويورك، حيث نقيم الآن، وأكّد لي أحد المسؤولين أنّ الشاه يضمن بالفعل العودة الآمنة للإيرانيين القادمين من الخارج. وقال بالحكم على الوصف الذي قدّمته له، إنّ روايتي لن توقعني في أي مشكلة مع أنّ الرقابة منعتها. وماذا عن أنّني أحمل الآن الجنسية الأميركية؟ فمع أنّ أميركا وافقت على الجنسية المزدوجة، فإنّ إيران لم توافق عليها. فقال إنّ القانون غير مطبّق، وكثير من الإيرانيين الذين يتردّدون على إيران يحملون جنسية مزدوجة. وأبلغني بأنّني أحتاج إلى إذن من زوجي لدخول إيران ومغادرتها، ما لم يكن زوجي معي. وأضاف بأسى، "إنّ الحاجة

إلى إذن لكي تسافر المرأة قانون قديم، والبرلمان يعارضه، لكن ما زال معمولاً به". كان زوجي يرى ضرورة اتصالي بعائلتي لأنّه يرى عائلته بانتظام الآن.

لكن ما أقنعني بالذهاب رسالة عاجلة من باري. قالت إنّها بحاجة إلى التحدّث إلي شخصياً. رتّبت أنا وهاوي موعد الرحلة في تشرين الأول/ أكتوبر. وسيأتي والدي ومحترم إلى طهران ويقيمان فيها مدّة أسبوعين. فلدى والدي قضية قانونية في طهران يتابعها في تلك الفترة. وسننزل عند باري.

بعد ذلك قرّرنا ألا نصطحب معنا ليلى. فقد وازن الخوف، الذي لم تزيله تماماً كل التطمينات، من حدوث تعقيدات في إيران انزعاجنا المتوقّع من الانفصال عنها. ورأينا أنّه إذا سار كل شيء على ما يرام في هذه الرحلة، فسنأخذها في رحلات لاحقة. وقد دعا صديقانا في كمبريدج، أيرين وديفيد، ليلى للإقامة عندهما، وكانت ليلى فرحة بقضاء ذلك الوقت مع ابنتهما سوزي.

لم أنم جيداً عشية السفر إلى إيران. فقد كان النوم مزعجاً كالاستيقاظ، مليئاً بالأحلام المزعجة.

عندما نزلنا في مطار مهرباد، تفحّص الضابط في قسم التدقيق في الجوازات صورتينا على جوازينا، ونظر إلى وجهينا، ثم إلى الأوراق المبسوطة أمامه للتحقّق من أنّ اسمينا ليسا على قوائم المشبوهين بمعارضة الحكومة. ولم أتمكّن من التنفّس بحرية إلا بعد أن تسلّمنا حقائبنا وتوجّهنا نحو قاعة الانتظار. كان هناك مئات الأشخاص يقفون خلف قاطع زجاجي بانتظار الترحيب بعائلاتهم وأصدقائهم. رأيت باري ومحترم ووالدي واقفين بين الجموع وهم يلوّحون لنا.

عندما دخلنا قاعة الانتظار عانقني والدي وقبّلني. وطوّقتني محترم بذراعيها كأنّه لم يكن هناك تاريخ من المشاكل بيننا. ثم تعانقت أنا وباري وتبادلنا القبل وانهمرت من أعيننا دموع الفرح. لم تقل أي منا شيئاً للأخرى، بل اكتفينا بتبادل النظرات كأنّ الخجل يسيطر علينا. سلّم والدي على هاوي وقال، "أهلاً بك" (بالإنكليزية)، وهي كلمة لا بدّ أنّه تعلّمها لهذه المناسبة.

كان شعره أكثر ابيضاضاً، لكنّ محترم بقيت على حالها بتقدّم السنين. لم يتراجع جمال باري لكنّني لاحظت على الفور أنّ وجهها فقد ألقه المعهود. وبقيت فارزين وفارزانة في البيت، كما فعلت مانيجة. ولبث علي مع التوأمين.

استأجر أبي سيارة فاخرة وتكدّسنا جميعاً فيها. في الطريق إلى بيت باري، مررنا بنصب الحرية، وهو عقد مرتفع من الحجر الجيري. وقد بني في سنة 1971 احتفاء بذكرى مرور 2500 عام على إنشاء المملكة الإيرانية. وفيما كان السائق يشقّ طريقه خلال حركة المرور المزدحمة في طهران، أخذت أراقب النساء اللواتي يرتدين ثياباً عصرية - بعضهن يرتدين تنانير قصيرة - ويمشين جنباً إلى جنب مع النساء اللواتي يرتدين الشادور. كانت إعلانات البيبسي كولا وديزني موجودة في كل مكان. وكان هناك ملاهٍ لرقص وبوتيكات تبيع ثياباً مستوردة، وناطحات سحاب في كل مكان. وكانت سيارات الأجرة الحمراء من طراز مرسيدس والحافلات ذات الطبقتين وكل أنواع السيارات الأجنبية تقريباً تسرع إلى جانب سيارات بيكان الإيرانية الصنع. وقد أحدثت جبال ألبروز المكلّلة بالثلج والتي تحيط بطهران تعارضاً واضحاً مع الجوّ المحموم فيها. حاول والدي التواصل مع هاوي بالفرنسية (كانت الفرنسية اللغة المطلوبة عندما التحق والدي بكلية الحقوق بطهران، وقد درسها هاوي في الثانوية).

بعد وقت قصير وصلنا إلى بيت باري. فتح منصور الباب وحيّانا بحرارة قائلاً، "يشرفنا وجودكم هنا في منزلنا المتواضع. إنّه دون منزلتكم لكن أرجوكم أن تتصرّفوا كأنكم في بيتكم. أنا هنا في خدمتكم". كان وجهه يظهر الصدق والترحاب.

كان التناظر غائباً في بيت باري، وقد أعجبني ذلك. لم تكن كل غرفة مختلفة الحجم فقط، بل مختلفة الشكل أيضاً - واحدة بيضاوية، وأخرى مستطيلة، وثالثة على شكل حرف L. كما طليت كل منها بلون مختلف. كانت النوافذ الكبيرة في كل غرفة تطل على الجبال. وتتلألأ البركة في الفناء تحت أشعة الشمس. وظهرت مئذنة مسجد فيروزية مزخرفة وقبّته من وراء سور الفناء.

كان لدى باري غرفة خاصة مغلقة دائماً في الطبقة الثانية. قالت لي، "أبقيها مقفلة لأنّ منصور يعتقد أنّها تبدو طفولية. وأعتقد أنّها كذلك".

في الداخل، كانت الغرفة نسخة مكرّرة عن غرفتها في البيت في الأهوار، حيث تغطي ملصقات الفنانين والفنانات الجدران. لم تعد نجمات السينما جودي غارلند وإليزابيت تايلور بل ميريل ستريب وجين فوندا ووارن بيتي. وكانت هناك كدسة من مجلتي "موفي ستار" و"سينما نيوز" على الطاولة. وإلى جانبها الألبوم الكبير الأحمر الذي يضم صور النجوم الذي كان لديها منذ سنوات، وبعض تلك الصور اشتريناها معاً من جادة بهلوي. وكانت هناك كدسة من مجلة "زين روز" (المرأة اليوم) موضوعة على طاولة أخرى. وكانت الصور عليها تظهر الملكة فرح أو غوغوش، وهي مطربة شهيرة، أو نساء شهيرات أخريات.

"لا أزال أذكر أول مرة أريتني فيها هذا الألبوم. كان ذلك مثيراً جداً".

"كم أنا مسرورة يا أختي الحبيبة بوجودك هنا معي حيث يمكننا التحدّث معاً كما في الأيام الخوالي".

التقطت صورة مؤطّرة لفتى ذي شعر وعينين بنيتين داكنتين ووجه جذاب.

قالت باري، "كان في الثالثة من العمر في ذلك الوقت، وهو الآن في الحادية عشرة".

"إنّه يشبهك كثيراً".

"إنّه لي. أريد استعادته. ما زلت أحاول ولم أحصل على شيء بعد كل تلك السنين. كم يخيفني أن يتربى على يدي والده الغريب الأطوار".

"ألم تأخذي بيجان معك حتى للزيارة"؟

هزت رأسها. "أبعده طاهري عن طهران، ولا يعرف أحد عنوانه، إنّه دائم التغيّر. بل إنّ محاميّ، وهو جيّد جداً في حقله، لم يتمكّن من إجبار طاهري على المثول أمام المحكمة. لا يسعني أن أستسلم...".

إلى جانب صورة بيجان، توجد صورة كبيرة لي، ليست حديثة بل تعود

إلى فترة وجودي في الأهواز. كنت واقفة إلى جانب نهر قارون، وشعري متطاير حول رأسي.

قالت باري، "أتذكرين مسيراتنا على الجسر وكل الأحلام التي كنا نتقاسمها"؟

دعانا منصور إلى غرفة الجلوس. انضممنا إليه وإلى الآخرين لتناول المعجّنات والشربات مع بتلات الزهر الطافية عليها.

كان والدي يريد أن تمضي الزيارة بسلاسة وأن يظهر لصهره الأجنبي العائلة المرموقة التي ناسبها. وكان من الصعب معرفة رأيه الحقيقي بزواجي من رجل من بلد ودين آخر، التقيت به بمفردي. ولو كان لدى والدي أي تحفّظات فإنّه لم يظهرها. وصف إيران بأنّها على حافة انهيار عصبي. فالشاه عالق بين رجال الدين وأميركا، وكل منهما له مطالب مختلفة. كان نبض التحديث المرتفع يتنافس مع نبض المعارضة المرتفع الذي لا يعبّر عنه رجال الدين فحسب، بل المثقّفون أيضاً. واعترف والدي بأنّه عالق في التناقض نفسه: فهو يريد الحفاظ على القيم التقليدية وفي الوقت نفسه يريد بعض جوانب الحداثة. وتابع يقول إنّه على الرغم من رقابة السافاك اللصيقة على الشعب، فإنّ الفساد مستشرٍ في إيران. لم يكن من غير الشائع أن يبيع أحدهم قطعة الأرض نفسها إلى شخصين وأن يهرب بفعلته. فالدعاوى القضائية تستغرق تسويتها سنين عديدة، وعادة ما يكسبها من دفع رشوة أعلى.

بعد نحو ساعة غادر منصور إلى عمله الذي لم يتوجّه إليه في الصباح. قال إنّه سيبقى في المكتب ويعمل في أثناء وقت القيلولة. دعانا والدي إلى الغداء في مطعم بفندق طهران هيلتون، حيث ينزل هو ومحترم.

كان المطعم مليئاً بالأميركيين على وجه الخصوص، لكن قائمة الطعام تضم عدداً من الأطباق الإيرانية. طلبت أنا وهاوي الدجاج بالحامض والأرز بالكرز، وغومش سابسي، وجوجه كباب. وتناولنا "غاز" وشاياً للحلواء.

نظرت إلى والدي عبر المائدة. بدا ليّناً نوعاً ما. لعله سامحني حقاً. صحيح أنّني تصرّفت على هوايَ، لكنّني لم أسبّب له المشاكل على الأقل.

وعلى الرغم من أنّ محترم لم توجّه حديثها إليّ بشكل مباشر، فإنّها كانت تبتسم ابتسامة خافتة عندما تنظر إليّ كأنّها تحاول التصالح معي، أنا ابنتها التي تخلّت عنها تقريباً. بعد أن تركت المنزل، لم أسمع منها شيئاً: لم أتسلّم رسائل أو طروداً مثل تلك التي كانت الفتيات الأخريات يتسلّمنها من أمهاتهن، ولا تهنئة بزواجي أو ولادتي. لم أتمكّن طويلاً من فهم كل ذلك، مع ذلك كان بوسعي أن أرى فيها شيئاً من الضعف. لم تعد الأم الباردة التي أذكرها. بل بدت أكثر انقياداً لأبي مما كانت عليه في سني حياتي معهما.

قال والدي فجأة، "لم أتمكّن من توقّع مستقبل أبنائي دائماً. فابناي يعيشان الآن في أميركا". ثم توقّف برهة وأخذ يتحدّث عن مزايا طهران.

الفصل الثالث والثلاثون

بعد بضعة أيام من زيارتنا، قال منصور مازحاً، "أختك منقطعة عن الواقع". لم أعرف ما الذي يعنيه، لذا لم أجب، لكنّني لاحظت ابتعاد باري عن صحبة الآخرين. كان منصور شغوفاً بأعمال المنزل ـ فهو يقول لباري ما الذي تعدّه للوجبات، ويحضر إلى البيت أكياساً كبيرة من أصناف الغذاء ومنتجات الحليب، ويساعدها في الطهي.

ذات مرة أخذنا عمي أحمد بعد الظهر في جولة في طهران. كان متلهّفاً للقاء والتحدّث بالإنكليزية مع هاوي. (كان أحمد يعمل كاتباً في وزارة النفط ويأمل في الحصول على ترقية. وبما أنّ العديد من الموظفين في الوزارة أميركيون، فإنّ إتقان الإنكليزية مهم جداً). كانت السفارة الأميركية قريبة من مكتبه، ويتردّد عليها كل يوم لأخذ نشرات إخبارية مجانية باللغة الإنكليزية. كان مليئاً بالحيوية وجذاباً، فعندما كنت أعيش مع مريم غالباً ما كان يزورنا ويسلّي أبناء خالاتي بالنكات وحيل الورق والكلل. وعلى غرار والدي، تزوّج فتاة في التاسعة من العمر ـ تصغره بثماني عشرة سنة. كانت زوجته محتاب شقراء الشعر زرقاء العينين من شمال إيران على الحدود مع روسيا، ويسري في عرقها بعض الدم الروسي. كانت محتاب تزور مريم أحياناً بمفردها وتشكو من أنّ أحمد يمكث خارج البيت حتى ساعة متأخّرة كل ليلة. وكانت مريم تقول لها، "لديه فتاة شابة جميلة، ألا يكفيه ذلك"؟

أحببت عمي أحمد على الرغم من أخطائه لأنّ لديه أحلاماً كثيرة. كان يعزف على الكمان بامتياز وإحساس مرهف. ويبدو رومنسياً وهو يسند الكمان إلى كتفه، وعيناه مثبتان على شيء بعيد. وكان يتردّد دائماً على زور

خانة (دار القوة) حيث يتمرّن الرجال على أنغام الموسيقى الكلاسيكية. بل إنّه يحتفظ بصورة لنفسه تظهر عضلاته.

في تلك الليلة أخبرني هاوي أنّه أعجب بعمي، لكنّه شعر بالأسى لحاله: إنّه رجل طموح يبحث عن شيء يبدو أنّه لا يجده في الثقافة الإيرانية.

وقال هاوي والاهتمام بادٍ على وجهه، "أخبرني عمك أنّ باري مصابة باكتئاب وتعاني من أشياء كثيرة في حياتها".

"أعرف أنّها منزعجة بشأن ابنها، ومعركة الحضانة المستمرّة منذ سنوات. هل هناك شيء آخر"؟

"لم يقدّم عمّك تفاصيل. قال ذلك في معرض تعبيره عن اعتقاده بأنّ باري يجب أن تذهب إلى أميركا مثلك".

هزّني أنّ باري أسرّت إلى عمي أحمد، وشعرت بأنّها تفيض حزناً وتعاسة.

بعد ظهر أحد الأيام، خرج الجميع ما تركنا أنا وباري بمفردنا.

قلت لها عندما جلسنا إلى الكنبة في غرفة الجلوس، "لم ننفرد معاً منذ سنين، وأنا أحنّ إلى ذلك".

قالت، "نعم ولدي الكثير مما أريد أن أحدّثك عنه، بحيث يصعب عليَّ أن أعرف من أين أبدأ". أخبرتني عن أنّها ما زالت تناضل للحصول على هوية شخصية وفنية في طهران ذات المعايير المزدوجة والتحيّز بين الجنسين. المدينة بأكملها مزيج يبعث بحثّ على التوتّر مثل الأهواز. صحيح أنّ الفتيات في بعض أنحاء طهران العصرية جداً يختلطن بحريّة بالفتيان في الحفلات، ويشربن الكحول ويرقصن على أنغام الموسيقى الغربية التي تصدح من أجهزة صوتية معقّدة، وهو ما كنّا نتوق إليه في سني المراهقة، لكنّها أدركت الآن أنّ هذه الأشياء عناصر سطحية في إطار الافتقار إلى الحرية لدى النساء، ولدى الرجال في بعض المجالات.

هناك الرقابة والاضطهاد الذي يكبت على الرجال والنساء على السواء. ثمّ هناك كل القيود التي تكبّل النساء. ومع أنّ الحكومة تساند بعض الفرص

الرسمية للنساء، فإنّ الوضع لم يتحسّن كثيراً بسبب الموقف الأبوي السائد. ولا يعمل سوى قطاع صغير جداً من الإناث. وعندما تحقّق امرأة نجاحاً أو بروزاً في الساحة العامة، فإنّ ذلك يرجع في الغالب إلى علاقتها برجل نافذ ـ باعتبارها أمه أو زوجته أو شقيقته أو ابنته، أو بسبب الرمزية الحكومية. هناك امرأة عضوة في مجلس الشيوخ، لكن لم يتح لها البتة التعبير عن صوتها الحقيقي. وقد رفض اقتراحها بإلغاء القانون الذي يفرض على الزوجة الحصول على إذن من زوجها للسفر إلى بلد آخر دون تقديم سبب ذلك. فاستقالت من منصبها بسبب الغضب والإحباط.

وكانت النساء القليلات اللواتي حقّقن نجاحاً في الفنون ـ مثل المغنيتين الشهيرتين غوغوش وهايدا، والممثلة إغداشلو، والشاعرة فوروخ فروخزاد ـ يوصفن بالانحلال الخلقي.

الإيرانيون المتعلّمون والمختصون ينظرون إلى فكرة التقدّم بأنّها مسألة فخر، ومع ذلك فإنّهم يقولون ما لا يفعلون عندما يتعلّق الأمر بمواقفهم من المرأة. فما زال على النساء اللواتي يتجوّلن متبرّجات ومرتديات التنانير القصيرة إطاعة والديهن أو أزواجهن. وكذا الأمر بالنسبة إلى النساء المثقّفات اللواتي يجلسن في المقاهي ويناقشن ديكارت وهيغل وماركس. وعلى نحو باري، النساء مجبرات على ترك أطفالهن في عهدة أزواجهن إذا تقدّمن بطلب الطلاق. صحيح أنّ التعديل الذي أدخل سنة 1975 على قانون حماية الأسرة منح النساء حقوقاً متساوية في الطلاق، والوصاية على الأطفال، وتسويات الزواج، لكنّ هذه التعديلات لم تطبّق، وغالباً ما كانت النساء يخسرن قضاياهن في المحاكم.

قبل أن يأخذ طاهري ابنهما إلى مدن أخرى، كانت باري تقف عند الأبواب أو خلف شجرة قريبة لبيتهما في طهران لتتمكّن من رؤية بيجان من بعيد. وذات مرة طرقت الباب وطلبت من بهجت، شقيقة طاهري، أن تسمح لها بالحصول على ابنها بضع ساعات، لكنّها رفضت. فذهبت باري إلى مدرسة بيجان وقدّمت نفسها إلى المعلّمة وطلبت السماح لها برؤيته. أحضر بيجان إليها، لكن عندما حاولت أن تحمله وتقبّله، ابتعد عنها وأسرع إلى صفّه.

قالت باري، "كل شيء يبدأ من القمة. قيم الشاه المتناقضة تنطبق على موقفه من المرأة أيضاً. الشاه متعصب لجنسه على الرغم من كل الادعاءات بتحسين أوضاع المرأة. وعندما يتغاضى ملك عن شيء، ينتقل ذلك إلى الجميع. هل قرأت تلك المقابلة مع الصحافية الإيطالية أوريانا فالاسي؟ ترجم قسم منها إلى الفارسية وطبع في إحدى المجلات فأغلقت بعد ذلك بسرعة".

قرأت مقابلة فالاسي، "مقابلة مع التاريخ" مترجمة إلى الإنكليزية. وقد قال في أحد المقاطع:

النساء مهمات في حياة الرجل إذا كن جميلات وساحرات وحافظن على أنوثتهن... لنأخذ الحركة النسوية للمساواة بين الجنسين على سبيل المثال. ما الذي يريده دعاة المساواة بين الجنسين؟ تتحدّثين عن المساواة. لا أريد أن أبدو فظاً، لكن... أنتن مساويات في نظر القانون لكن اسمحي لي بالقول إنكّن غير مساويات للرجال في المقدرة... لم تنتجن فناناً كمايكل أنجلو أو موسيقياً كباخ. ولم تنتجن طاهياً عظيماً البتة... هل فقدتن يوماً فرصة تقديم طاهٍ عظيم للتاريخ؟ لم تنتجن شيئاً عظيماً، لا شيء....

قبل فترة غير بعيدة كرّر الشاه الملاحظات نفسها في مقابلة مع باربرة والترز.

أذكر في طفولتي أنّ الشاه تزوّج فرح ديبا، وهي امرأة تصغره بتسع عشرة سنة. وكانت بالفعل جميلة ورشيقة وتفيض أنوثة.

قالت باري إنّها سعيدة لأنّني غادرت إيران وتمكّنت من تحقيق حلمي بأن أصبح كاتبة تنشر أعمالها. بدأنا نتذكّر الأشياء التي غابت جزئياً عن إحدانا وتتذكرها الأخرى تماماً. ذلك العصر الساحر عندما ناول الصغير باري زهرة. وتلك الأمسية على جسر نهر قارون عندما تبعنا الفتيان وأخذوا يتهامسون. وقراءاتي القصص التي كتبتها على مسامع باري. وتمثيلها دور لورا على المسرح. بدا كأنّه لم يحدث شيء البتة مساوٍ في وقعه وتأثيره لتلك اللحظات التي تقاسمتها أنا وباري.

غادرت أنا وباري البيت وتوجّهنا إلى مقهى ميامي، حيث تلتقي مع بعض صديقاتها أحياناً.

كانت الطاولات في القهوة موضوعة على منصة فوق جدول. بدت الماء صافية، وكان بوسعنا حيث نجلس أن نشاهد الجبال إزاء السماء الزرقاء. وفي مقابلنا كانت سينما مولان روج تعرض فيلم "قلعة فو مان شو"، والمراهقون منتظمون في طابور أمامها. وإلى جانبنا مجموعة من الإيطاليين الذين يدخّنون الغلايين ويشربون الشاي.

قالت باري، "كنت تحبين البوظة بالفانيليا". فطلبنا اثنتين.

بعد أن ابتعد النادل، تحدّثت عن المشاكل التي اعترضتني في أميركا. قلت لها، "شهدت سنوات عديدة حالكة قبل أن أحصل على بعض السلام. كنت أشعر بوحدة شديدة في كلية المقاطعة. وفي نيويورك، كنت مفلسة في البداية. والآن لم أعد إيرانية تماماً أو أصبح أميركية تماماً. أشعر بالألم لأنّني ابتعدت كثيراً عن نمط حياة مريم ومعتقداتها. وأتمنى كثيراً أن تكون هي وأنت، بالطبع، جزءاً من حياتي".

بلغ مسامعنا صوت امرأة تغني صادر عن الراديو داخل المطعم، وقد امتزج صوتها بخرير الماء المتدفّق في الجدول. كانت الأغنية قائمة على قصيدة فروخزاد الموجّهة إلى ابنها:

أكتب هذه القصيدة لك في مساء يوم صيفي جافّ.

هذه تهويدتي الأخيرة وأنا أجلس عند قاعدة مهدك.

أحني جبيني على باب مغلق والأمل يحدوني.

عندما تنظر بعينيك البريئتين على الكتاب المشوّش،

ستجد ثورة دائمة في قلب كل أغنية.

وسيأتي يوم تبحث فيه عني بين كلماتي،

وتقول لنفسك: تلك هي أمي.

استمعت بضع لحظات إلى الأغنية.

قالت باري، "لا أعتقد أنّ حادث سيارة فروخزاد كان عارضاً. تعرفين أنّها قتلت وهي تقود سيارتها في طهران. حدث ذلك قبل سنوات، لكنّني ما زلت أذكر كل الكلام والتخمين بأنّها تعمّدت الحادث أو أنّه جريمة دبّرها السافاك. أنا

على قناعة بأنّها انتحرت. كان من الصعب عليها أن تحتمل امتداح الجمهور وانتقاده لها في الوقت نفسه. ثم جاء فقدان حضانتها لابنها".

"قرأت يا باري أنّ السيدة سليماني قُتلت في حادث سيارة أيضاً، وأنّه لم يكن حادثاً عارضاً بل جريمة دبّرها السافاك".

"نعم سمعت ذلك، وفي حالتها كان هناك دليل على أنّ أحدهم تعمّد الاصطدام بها. تملّكني الحزن عليها عدة أيام".

"وأنا أيضاً".

"ألم أكتب لك عن ذلك"؟

هززت رأسي.

"لم تكن الرسائل تصل إلى الأماكن المقصودة طوال الوقت". وبعد توقّف تأمّلي أضافت باري، "إنّ طريقة وفاة فروخ، باصطدام سيارتها بشجرة... لم تكن جريمة اقترفها السافاك على غير عادة، بل كان عملاً شخصياً". ظهرت مسحة من حزن على وجه باري. "غالباً ما أتمنى أن أحطم حياتي إلى أجزاء ثم أجمعها معاً بطريقة مختلفة. العودة إلى الوراء صعبة عندما يكون أمامك عدة خيارات".

"أحب أن أرى العزيزة ليلى أيضاً. لكن هناك العديد من العقبات. لن يحصل منصور في أميركا على العمل الذي يؤديه هنا. على أي حال، إنّه يحب إيران. لكن الأهم من ذلك يا ناهيد أنّني لا أطيق مغادرة البلد إلى أن أعرف أنّني فعلت كل ما أستطيع لاستعادة بيجان. لكن إذا استعدته، فسيكون ذلك مؤقّتاً وعلي أن أبقى في إيران. لن يسمح لي أي قاضٍ بالعيش في الخارج وحرمان الصبي من أبيه فترات طويلة. لقد مضت سنوات كثيرة دون أن أحقّق نتائج لكنّني ما زلت متمسّكة بالأمل. لا أستطيع العيش لولا فسحة الأمل".

"هل فكّرت في إنجاب طفل آخر من منصور"؟

"حاولت الحمل لكنّني لم أفلح. ثمة شيء يتعلّق بدرجة الحرارة في رحمي. لكنّ إنجاب طفل لا يجعل خسارة بيجان أهون. ومنصور لديه الشعور نفسه لحسن الحظ بعد أن فقد ابنه".

تاهت باري في أفكارها لحظة ثم قالت، "من المدهش أنّه لا يظهر الغضب مني لأنّني لا أحمل، لأنّه تقليدي من عدة نواحٍ. توقّفت عن تأدية اختبارات التمثيل. لم أكن أريد استمرار النقاش معه. هناك أشياء كثيرة أريد أن أطلعك عليها". لكنّها غاصت داخل أفكارها ثانية.

مشينا عائدتين عبر جادة إليزابيت، وهي أحد أماكن التسلية التي تضم جدولاً وأراضٍ مزروعة. في أحد الأركان، كان أحد الشبان يعزف على آلة الطار يحيط به حشد من المستمعين. تابعنا المسير عبر حديقة ملة المصمّمة على طراز حديقة إنكليزية. كانت مليئة بالأشجار الباسقة القديمة، والأزهار والمروج الخضراء. وكان فيها بحيرة متلألئة تطفو عليها قوارب للإيجار، وشلالات متعاقبة، ومرافق رياضية، وحديقة حيوانات. وكان الأطفال يتقافزون ويطعمون الحيوانات. في تلك اللحظة افتقدت ليلى، وشعرت بحدّة حنين باري لبيجان.

قالت باري فيما كنا عائدتين إلى البيت، "مانيجة تعاني من المشاكل لكن لا أحد يخبرني عنها شيئاً. لا يوجد اتصال بيني وبينها، ولا يأتي والدي ومحترم على ذكرها أمامي. لكنّني أعرف أنّ الأمور ليست على ما يرام. في هذه المرحلة يا ناهيد لا أشعر بأي أحقاد. فحياتها صعبة منذ أن غادرت المنزل".

"من الصعب عليها أن تتعامل مع مشاكلها دون إشراف محترم. على أي حال، إنّني بعيدة عنها منذ مدة طويلة...".

قالت باري، "لكنني لا أستطيع أن أسامح محترم. فهي لم تجهد نفسها في الوقوف إلى جانبي عندما قاومت طاهري في البداية، ثم عندما تركته وعدت إلى البيت".

"لا أعرف شعوري تجاه محترم... إنّه نوع من الانفصال، أكثر من أي شيء آخر، بعد أن أصبحت مستقلة عنها".

بعد أن غادرنا الحديقة مررنا بالقرب من مبنى المحكمة المدنية. قالت باري بعفوية، "تردّدت عليها عدة مرات للمثول أمام القضاة".

عند حلول الغسق، ركبنا سيارة أجرة وعدنا إلى البيت. في الفناء، كانت العصافير ترفرف حول الأشجار، وارتسمت في السماء خطوط حمراء.

الفصل الرابع والثلاثون

اقترحت في تلك الليلة على باري الخروج للاستماع إلى غناء غوغوش. فساد الغرفة جوّ من التوتّر. تبادل منصور وباري النظرات، ولاذ كل منهما بالصمت.

أخيراً قال منصور لباري، "أتتذكرين ما حدث في المرة الأخيرة"؟ احمرّ وجه باري لكنّها لم تقل شيئاً.

سألت، "هل هناك شيء آخر يمكننا القيام به بدلاً من ذلك"؟

التفتت باري نحو منصور، "لنذهب للاستماع إلى غوغوش إذا كان بوسعنا الحصول على تذاكر في اللحظة الأخيرة". وأوضحت لي قائلة، "تأثّرت كثيراً بأغانيها في المرة الأخيرة، وأحسست بأنّني سأصاب بالإغماء، لذا غادرنا في منتصف الحفل. ذلك لا يعني أنّه سيتكرّر الآن".

اتصل منصور بقاعة روداك، التذاكر متوفّرة.

كانت القاعة مليئة بالشبان والشابات المصحوبين بآبائهم. كانت غوغوش معشوقة شبان البلد، وحقّقت النجومية في سنّ الخامسة عشرة. وجدنا طاولة في إحدى الزوايا.

بدأت الفرقة الموسيقية العزف، وظهرت غوغوش على المسرح مرتدية فستاناً مقلّماً بالأبيض والأسود، ذا فتحة منخفضة عند العنق وحمّالتين عند الكتفين، وتتدلّى منه خيوط لامعة منسوجة خلاله. وكانت أذناها مزيّنتين بقرطين من الذهب والزمرّد، وشعرها أشقر داكناً ذا قصة قصيرة. بعد التصفيق، بدأت بالغناء مغمضة عينيها بإحساس مرتفع.

إنّني المرأة نفسها التي أرادت أن تصبح محيطاً

أردت أن أصبح أكبر المحيطات في العالم
يا إلهي، إنّني خاوية كالصحراء
فلتمطر الغيوم، أريد أن أحيا ثانية
فأنا كأوراق الأشجار خارج موسم الأمطار
محرومة من الحدائق والأزهار وقطرات الندى
أنا مثل شجرة جرداء عديمة الحياة
عالقة في أنفاق عاصفة ثلجية.
لا تقل لي إنّني كبرت
لا تخبرني عن المرارة
لا تقل لي إنّ البكاء لم يعد يليق بي
خذني بين ذراعيك وعانقني
فأنا راغبة في حب لا ينتهي.

غادرنا الحفل قبل أن ينتهي، قال منصور إنّ عليه النهوض باكراً للعمل، لكنّني لاحظت أنّه غير مرتاح. لا يزال التوتّر قائماً بينه وبين باري. وعندما عدنا إلى المنزل، توارى منصور وباري في غرفة نومهما وانضممت إلى هاوي في غرفة الضيوف. وكان نائماً بالفعل.

بعد ساعات من التقلّب في الفراش، نهضت وتوجّهت إلى النافذة. ذهلت عندما شاهدت باري ترتعش في الفناء. التمع في ذهني مشهد مانيجة واقفة على الشرفة تحت ضوء القمر. أردت الانسلال إلى الخارج والتحدّث إلى باري، لكنّها نهضت وعادت إلى الداخل.

لم أقل شيئاً في اليوم التالي.

قالت لي باري، "ناهيد، لقد رأيت مجيد، غير مرة". دخلنا زقاقاً تحف به من جانبيه أشجار الجميز المرتفعة التي تتشابك أغصانها وترخي بظلالها عليه.

"إنّه يتردّد على طهران، للعمل في الغالب. في تلك الليلة عندما ذهبت

أنا ومنصور للاستماع إلى غوغوش، كان مجيد هناك أيضاً. تعرّفت إليه بعد كل تلك السنين. والأغرب من ذلك أنّني عرفت على الفور أنّني ما زلت مغرمة فيه. لم تبارحني مشاعري نحوه. هزّني وجودي في المكان نفسه مع مجيد ومنصور، فقلت لمنصور إنّني أشعر بدوار وأريد المغادرة. عندما أمسك بيدي وقادني إلى السيارة، أحسست بشدّة انعزالي عنه من لمسة يده. لعله أدرك أنّني أعاني من شيء آخر، لكنّني لم أبح له بشيء. عرفني مجيد على الفور أيضاً. فأرسل إلي الزهور في اليوم التالي، كما فعل في الأهواز في الأيام الخوالي. كان هناك ملاحظة مع الباقة تطلب مني اللقاء به في العنوان الذي أرسله. شعرت بميل إلى الذهاب، لكنّني منعت نفسي. ما جدوى ذلك؟ أنا متزوّجة وهو كذلك. في تلك الليلة عندما كنت أتناول العشاء مع منصور، أحسست بالتشوّش عندما فاحت راحة الأزهار التي وضعتها على المائدة. كأنّ دوّامة تجذبني إلى لجّة عميقة. وبعد ذلك أرسل مجيد مزيداً من الأزهار والرسائل. وأخيراً استسلمت يا ناهيد".

كان يوجد سوق إلى جانب الساحة، وعربات مليئة بالفاكهة. سرنا نحو أحد المخابز وجلسنا إلى طاولة في ركن منعزل وطلبنا فطيرة مدهونة بالعسل وشاياً.

"في لقائنا الأول في شقة صغيرة لأحد أصدقاء مجيد، أخبرني أنّه يتردّد على طهران دورياً لرؤية الناشرين، على أمل أن يهتمّ أحدهم في عدد من الشعراء الفرنسيين من القرن التاسع عشر الذين ترجم قصائدهم إلى الفارسية. بعض قصائدهم التي تتناول الانحطاط لن تتجاوز الرقابة لكن بعضها رائع مليء بالصور الجميلة. وقد أحبّ قصيدة لمالارميه عن الأفكار الشاردة لإحدى آلهات الحقول بعد ظهر يوم صيفي ناعس. كانت تلك القصيدة تذكّره بتلك الأيام في الأهواز. تحدّثنا عن الأدب والشعر والمسرح والأفلام السينمائية. كنت في الجنّة معه".

"إنّني مسرورة يا باري لأنّك التقيت به وأحسست بتلك السعادة".

"أجل، كانت تجربة مذهلة في البداية. فقد أدركت بوضوح أكبر في ذلك الوقت أنّ ما يربطني بمنصور شبيه بما تشعر به الممثّلات نحو الممثّلين

الذين يقبّلونهم في الأفلام - مجرّد تصنّع. تواصلت اللقاءات بيننا عدة أشهر، ثم انتهى كل شيء". بدت باري كأنّها عالقة في حلم. "إنّها قصة طويلة يا ناهيد. وتؤلمني روايتها".

"باري حبيبتي، لا تتحدّثي عنها إذا كانت مزعجة جداً".

لكنّ باري تابعت الحديث. "شعرت بالتناقض لأنّني خنت منصور وأبعدت مجيداً عن زوجته حتى لساعات معدودات. والأسوأ أنّني كرهت الاختباء والكذب الذي يتماشى معه. واقترحت على مجيد أن نبوح بكل شيء لزوجينا ونواجه تبعات ذلك. فقال إنّه بحاجة إلى وقت للتفكير في الأمر".

أسرعت مجموعة من النساء والأطفال في دخول المخبز وأخذن يتحدّثن عن الفيلم الذي شاهدنه للتوّ. جلسن إلى الطاولات حولنا، وملأن المخبز الصغير بضحكاتهن. وفيما كانت النسوة يتحدّثن، كانت الأطفال يتراكضون حول الطاولات ويلعبون فيما بينهم.

دفعت أنا وباري وبدأنا نسير عائدتين إلى البيت عبر شارع طويل متعرّج خلف المخبز.

قالت باري، "نام مجيد ذات مرة عندما كنا في الشقة معاً. لاحظت رسالة على المكتب في الزاوية. كانت موجّهة إلى زوجته في بيت والديها في تبريز. كان مجيد قد أخبرني أنّها تقوم بزيارتهما وأنّه يمضي مزيداً من الوقت في طهران. لعله أخرج الرسالة من جيبه ووضعها هناك دون أن يتنبّه للأمر. لم يكن المغلّف مقفلاً، فلم أستطع أن أمنع نفسي. تناولت الرسالة وقرأتها فأصابني ذلك بانزعاج شديد. لقد قال لزوجته إنّني مجرّد شخص عابر في حياته وإنّ حبّه لها أعمق لأنّها أم ابنيه. تساءلت إذا ما كان تعمّد ترك ذلك المغلّف هنا. واجهته بالأمر. فبدأ يبكي. قال إنّه يحبّني وإنّه كتب ذلك إلى زوجته بدافع الذنب لأنّها اكتشفت أنّه يقابلني. فقد أخبرها أحدهم".

سألت، "من تعتقدين فعل ذلك"؟

"إنّني واثقة تقريباً من أنّ طاهري وراء ذلك. إنّه يقتفي أثري عندما يكون في طهران، ويتبعني بسيارته المرسيدس الحمراء".

وتابعت باري بعد صمت طويل، "شاهدته مرة واحدة بعد ذلك. وفي لقائنا الأخير، أبلغني مجيد أنّه فكّر كثيراً في أمرنا وأنّه لا يستطيع أن يترك زوجته".

سرحت بفكري في نزهة عيد نوروز في الأهواز عندما أعطاني مجيد رسالة موجّهة إلى باري، يشجّعها فيها على ترك زوجها. وذكّرت باري بذلك.

"ادعى أنّه لا يريد فسخ الزواج بسبب ابنيه. بل إنّني أحسست بمسحة انتقاد في لهجته لأنّني تركت طاهري على حساب ابني. ما حدث مع مجيد أضعفني يا ناهيد. لقد أخرج إعراضه عن قيامي بالتخلي عن ابني كل الملامة الذاتية التي تعتمل بداخلي أكثر من انتقاد أي شخص آخر. اعتقدت أنّه سيتفهّم ما فعلته. لكن ها أنا أقف وجهاً لوجه مع رجل أحببته حباً جماً كل تلك المدة، رجل سكن قلبي طويلاً وتبيّن لي أنّه لا يختلف كثيراً عن الآخرين. تلاشى الضوء الساطع لحبي الرومنسي له. وسقطت في العالم المظلم الذي يوجد فيه أملي بأن أصبح ممثلة. وكل ما أتوق إليه الآن التمام شملي مع بيجان".

بدا كأن باري تاهت في أحد السلالم اللانهائية في رسوم إستشر التي لا تؤدي إلى أي مكان. وكان بوسعي أن أسمع أجراس الألم تقرع بقوة في داخلها، ومع ذلك لم تسعفني الكلمات التي يمكن أن تواسيها. لكن ما قالته بعد ذلك هزّني وزلزل كياني.

"بعد مرور وقت غير طويل على انتهاء علاقتي بمجيد، أدخلني منصور مستشفى للأمراض العقلية. كانت تجربة رهيبة. قدم مساعدان من المستشفى وربطاني إلى محفّة وأخذاني إلى مصحة بهلوي. ثم جاء طبيب وأعطاني حقنة لتهدئتي لأنّني كنت أصرخ".

"لماذا لم تخبريني"؟

"لم أشأ أن أزعجك من بعيد. ولم أخبر والدي وأمي بسبب موقفهما مني، واعتقادهما بأنّني مجنونة لأنّني تركت طاهري. أنت الوحيدة التي أبلغها بذلك. أتذكرين فيلم "حفرة الأفاعي" من بطولة أليفيا دي هافيلند"؟

"أجل، أذكره تماماً".

"كنت خائفة من أن يفعلوا بي ما تعرّضت له. لكن كبير الأطباء، وهو هولندي، أبلغ منصوراً أنّني لا أعاني من أي شيء خطير وأنّ مستشفى المجانين ليست مكاني. وقال إنّه غالباً ما يشاهد حالات انهيار أو اكتئاب مؤقّتة في طهران وأنّ كثيراً من الأشخاص يتعافون في البيت. وإذا ما شعرت بقلق مفرط، يمكنني أن آخذ دواء مهدّئاً. لذا خرجت من المستشفى بعد أن لبثت فيها شهراً. وأنا أتناول المهدّئات بين الحين والآخر. لكن علاقتنا توتّرت منذ ذلك الوقت". ظهرت ابتسامة خافتة على وجهها وهي تقول، "المفارقة أنّني أحسست بالحرية في المستشفى بقدر ما كنت أخشى منها. كنّا نقول ما نريد. وكانت هناك امرأة في مثل سني تخلع ثيابها دائماً وترقص عارية. مثّلنا مسرحية في غرفة الاستقبال الكبيرة عندما فرغت في الليل ولم يوقفنا أحد. تركتنا الممرّضات ولم يعترضنا المساعدون".

قرأت "مصحة بهلوي للنساء" على لوحة حجرية على الجدار المجاور لبوابة المجمّع الحديدية. عندما فتحت البوابة وسمح الحارس للزوار بالخروج، لمحت مشهداً من داخل الفناء. مريضات يرتدين أثواباً بيضاء جالسات على المقاعد، ينظرن إلى أسفل أو يحدّقون في الفضاء. وكان بعضهن يمشين على غير هدى.

كانت الشمس توشك أن تغرب، وظهرت خطوط حمراء وأرجوانية في السماء. حطّ غرابان على فرع شجرة جرداء، وبلغنا صوت المؤذن المتصاعد من أحد المساجد. فسرنا إلى البيت في صمت.

حاولت النوم في تلك الليلة، لكن رأسي كان يئزّ بالخيبات والصدمات التي أصابت باري. سعدت لأنّها التقت بمجيد أخيراً وشاهدته بشحمه ولحمه، لكنّني رأيت الآن منصور بعين أخرى. بدا لطيفاً وراعياً لها، ومع ذلك أدخلها المستشفى رغماً عنها ودون أي سبب حقيقي. يستطيع كزوج أن يدخل زوجته المستشفى دون أن يسائله أحد. وفكّرت في قوله لي، "إنّ أختك منفصلة عن الواقع". وأزعجتني ملاحظته الآن بعدما كشفت باري لي ما حدث.

في الصباح، صاحت الديوك في القنّ الذي يحتفظ به منصور

وباري في الفناء. وسمعت باري تتحدّث إلى منصور في غرفة الطعام. تلاشت أفكاري الداكنة. وحدّثتني نفسي بأنّ الأمر ربما كان مبالغاً فيه. كان لا بد من أن تنتهي علاقتها الغرامية بمجيد، بالنظر إلى الظروف المحيطة. صحيح أنّ منصور أدخلها المستشفى، لكنّه أخرجها عندما أوصى الطبيب بذلك.

كان هاوي نائماً لذا انضممت إلى باري ومنصور حول مائدة الفطور: خبز وسنغاغ مطهو في فرن مبطّن بالحجارة الساخنة، من النوع الذي كانت مريم تشتريه لبيتنا، إلى جانب الشاي والجبن الأبيض والعسل والمربى. بدا منصور وباري كأي زوجين يتناولان الطعام معاً. راقبتهما فيما كنت آكل وتساءلت إذا ما كان الأمس حلماً.

اختصرت رحلتنا نتيجة حدوث اضطراب مفاجئ. فقد وجد مصطفى، ابن الخميني، الذي كان مقيماً في العراق كوالده ميتاً في فراشه في مدينة النجف. وبقي سبب وفاته غامضاً حتى اليوم لأنّ تشريح الجثة منافٍ للشريعة الإسلامية، لكن غالبية الناس كانت تشتبه بأنّ السافاك قتله. أغلقت المدارس الدينية في قم احتجاجاً على ذلك وسارت المظاهرات في كل مكان. كانت هذه المظاهرات مختلفة عن تلك التي وقعت في وقت سابق من ذلك العام في إيران. ففي أيلول/سبتمبر سارت مظاهرات احتجاجية سلمية بدعوة من قطاعات مختلفة من المجتمع، تشكو من المشاكل المألوفة والدائمة على ما يبدو. وقد انتقدت مسؤولي الحكومة على إنفاق الأموال على الأشياء الخاطئة وكنزها في أوساطهم. وانتقدوا شقيقة الشاه التوأم، الأميرة أشرف، المقرّبة جداً من أخيها، على نمط حياتها الفاسق المقسّم بين مكة وكازينوهات مونتي كارلو. وأنشأ عدد من المحامين عصبة لانتقاد أعمال التعذيب التي يمارسها السافاك والمطالبة بمراقبة أحوال السجون. وشكّل الطلاب الأكاديميون مجموعة تدعى المنظمة الوطنية لأساتذة الجامعات، وانضمّوا إلى الطلاب في المطالبة بالحرية الأكاديمية.

بدا كل الانتقاد المفتوح كأنّه يظهر أنّ الشاه يمنح الشعب حرية التعبير

عن رأيه. لكن الاحتجاجات أصبحت الآن عالية وغاضبة وعنيفة أحياناً. وقد نظمها رجال الدين أساساً وانضمت إليهم القطاعات العلمانية.

كنت أنا وهاوي عائدين إلى البيت بعد زيارة المتحف، عندما لقينا حشداً من المتظاهرين في إحدى الساحات.

"يجب اجتثاث الرذائل الأجنبية من جذورها. يجب التخلّص من النوادي الليلية التي تتراقص فيها الأجنبيات شبه عاريات ويتدفّق الخمر فيها مثل الماء". كان حشد كبير من الرجال وبعض النسوة المتشحات بالشادورات يتحلّقون حول المنصة فأخذوا يصيحون، "إلى بلادكم أيها الأميركيون، إلى بلادكم أيها الإنكليز".

وقف أصحاب الدكاكين عند أبوابهم يراقبون. وفرغت المقاهي والمطاعم من روّادها. كانت قناني الكوكاكولا وصودا البرتقال موضوعة على الطاولات أمام المطاعم دون أن يمسها أحد. وتسلّق بعض الأولاد أشجار السرو وأخذوا يردّدون الشعارات نفسها.

قال الرجل الذي يقف على المنصة، "إنّهم يسرقون نفطنا ولا يعطوننا أي شيء". فصاح المتحلّقون حوله، "عودوا إلى دياركم يا لصوص النفط".

ارتفع صوت الخطيب على المنصة فوق أصوات الآخرين، "لقد أصبحت طهران مدينة للعهر. النساء يتجوّلن في الشوارع سافرات عاريات. العاهرات الغربيات اللواتي يسمّين أنفسهن راقصات يرقصن شبه عاريات في النوادي الليلية حيث يقدّم الخمر كأنّه ماء. وكثير من شعبنا يحتشد في أكواخ صغيرة أو ينام في الطرقات. ليس لديهم سوى ما يلبسونه على أجسادهم ليل نهار. إنّهم مجبرون على العمل كنّاسين وزبّالين وعمالاً في المصانع. ويتلقون مقابل ذلك أجراً لا يسمن ولا يغني من جوع، فيما الأجانب يسرقون أموالنا ويهينوننا. أتعلمون ماذا يسمّينا مستغلونا الأميركيون والإنكليز؟ إنّهم يسموننا بدو".

تدبّرت أنا وهاوي طريقاً للخروج من هناك وأسرعنا في المسير عائدين إلى بيت باري.

قال هاوي في شارع فارغ، "الأمر يبدو سيّئاً جداً".

قلت، "إنّه مخيف. الشكاوي تتصاعد. لعل الوضع الآن أسوأ مما كان عليه عندما كنت أعيش في الأهواز".

في شارع آخر لقينا مجموعة من الرجال الذين يرتدون ملابس سوداء ويحملون رايات سوداء كتبت عليها شعارات بحروف أرجوانية: "اقتلعوا الشرّ"، و"الموت لأميركا"، و"الموت للإنكليز". وكانوا يصيحون، "عانينا من الاضطهاد طويلاً. علينا الاتحاد لطرد المستغلين".

قال لي رجل ملتحٍ في متوسّط العمر، "اذهبي واستري نفسك أرجوك". كنت أرتدي قميصاً وتنورة.

عندما وصلنا إلى البيت، كان والدي ومحترم وباري مجتمعين حول التلفاز. وعندما رأونا ندخل انفرجت أساريرهم.

قال والدي، "سمعت في المحكمة أنّ الأمور تزداد سوءاً بالنسبة إلى الأميركيين والإنكليز في إيران". وشجّعنا على مغادرة البلد بأسرع ما يمكن، بعد أن كان شديد الرغبة في هذه الزيارة.

عندما عاد منصور من العمل بعد بضع ساعات، قال أيضاً إنّه سمع في العمل أنّ الأمور أصبحت سيئة بالنسبة إلى الأميركيين والإنكليز.

التمعت صور المحتجين الذين شاهدتهم أنا وهاوي في الساحة على الشاشة.

فيما كنا نعدّ العشاء، راقبت باري ومنصور يتحدّثان عن التوتّر في البلاد. فدفعني الانسجام الذي شاهدته بينهما إلى إعادة التفكير فيما أخبرتني باري عن منصور. وحاولت أن أمحو مشاعري السلبية نحوه. بدا متسامحاً مع شقيقتي من نواحٍ عديدة. لم يطلّقها على الرغم من معرفته، بأنّ قلبها مشغول برجل آخر، أو اشتباهه بذلك، وهو أمر تدينه الثقافة الإيرانية. تذكّرت عندما كنت في الأهواز وقرأت عن امرأة رجمها زوجها وأقاربه بالحجارة حتى الموت في بندر عباس. ولم توقّع أي عقوبة على الزوج.

تجمّعنا حول التلفاز ثانية عندما عادت الأخبار. عرضوا الصور نفسها للمتظاهرين في الساحة. وتردّد المشهد نفسه في شوارع المدن الأخرى في كل أنحاء البلاد أيضاً.

قال منصور، "أن تعرض محطة التلفزة التي تشرف عليها الحكومة مشاهد عن استياء الشعب دليل على أنّ الأمور لم تعد تحت السيطرة".

وقال والدي، "لقد فتح الشاه الغطاء قليلاً فتشجّع الناس".

لم أستطع أن أميّز إذا ما كان يوافق الشاه أم يخالفه، كان حذراً على عادته عند التحدّث عنه. ثم أضاف والدي، "إنّها طبيعة الأمور في بلدنا، اضطراب يليه اضطراب".

الفصل الخامس والثلاثون

قبل أن نغادر إلى المطار، أخذتني باري إلى غرفة نومها وقالت، "أريد أن أعطيك شيئاً". ذهبت نحو علبة مجوهراتها وتناولت منها شيئاً وأعطته لي. كانت مدلّاة ذهبية رائعة مرصّعة بالفيروز والجمشت والعقيق.

"هل أنت واثقة من أنّك تريدين إعطاءه لي؟ يبدو ثميناً وجميلاً جداً. ألا تريدينه لنفسك"؟

قالت وهي تعلّقها حول عنقي، "إنّها قطعة تمكّنت من إخفائها عن طاهري. لكنّني لم أعد أرتديها. إنّها جميلة عليك".

طلب منا والدي أن نسرع.

قالت باري وصوتها مشوب بمسحة من الحزن، "وددت لو كان لدينا مزيداً من الوقت للحديث. هناك أشياء أكثر...".

قلت، "سأعود ثانية عندما تهدأ الأمور".

عندما عدنا إلى نيويورك، تسارع التمرّد في إيران.

بعد أن طُرد الخميني من العراق، توجه إلى باريس حيث أصبح على اتصال أوسع مع قوى المعارضة. وأعلن من منفاه أنّه سيفرض القيم التقليدية والدينية ويعيد توجيه ثروة إيران من الشاه ومخططات التصنيع الكبيرة إلى الناس العاديين، وأنّه سيجعل البلد "ديمقراطياً وإسلامياً".

كان الخميني يتحدّر من أسرة متديّنة تدّعي النسب إلى النبي محمد. ولد في سنة 1901 في خمين. وأصبح من آيات الله في عشرينيات القرن العشرين، واتخذ اسم مسقط رأسه جرياً على التقليد. قُتل والد الخميني ولما يبلغ عمره خمسة أشهر. كانت الحياة في خمين بائسة في ذلك الوقت بسبب وجود ثلاثة خانات ظالمين يضطهدون السكان. قرّر والد الخميني عمل شيء للتخفيف من الوضع فتوجّه إلى أراك ليطلب المساعدة من الحاكم الإقليمي. لكن الخانات لحقوا به إلى أراك وأطلقوا النار عليه وهو على صهوة جواده، فتوفّي على الفور. كان الخميني صبياً قوياً وحيوياً بارعاً في الرياضة. بعد وفاة والدته، غادر مسقط رأسه وطفولته المضطربة وتوجّه إلى أراك ثم إلى قم للتعلّم. ترى هل أوقد اغتيال والده في نفسه روح الثأر من المحرّضين المفترضين، أي السلطات؟

عندما اكتسب الخميني شهرة في المنفى، ازدادت المجموعات الدينية عدداً وارتفعت مكانتها أيضاً. بل إنّ المثقّفين الذين خاب أملهم في الشاه أخذوا يدعمون الخميني. (استاؤوا على وجه الخصوص من قيام الشاه بتشكيل حزب رستاخيز، الحزب السياسي القانوني الوحيد، وحظر كل الأحزاب الأخرى ما جعل البلد دولة الحزب الواحد الخاضعة لسيطرته).

في كانون الثاني/يناير 1978، عندما سخرت مقالة نشرتها الحكومة في صحيفة بارزة من الخميني ووصفته بأنّه رجعي ينتمي إلى القرون الوسطى، تجدّدت حركة المعارضة. أدان كبار رجال الدين المقالة ونزل طلبة المدارس الدينية إلى الشوارع في قم بأعداد غفيرة، واصطدموا بالشرطة. قُتل العديد من الطلاب. وتصاعدت المظاهرات المناهضة للحكومة، واجتاحت العشرات من البلدات والمدن. وشيئاً فشيئاً اتحدت كل قطاعات المجتمع في حركة الاحتجاج، بما في ذلك النساء.

في آب/أغسطس قتل أكثر من أربع مئة شخص في حريق شبّ في سينما ركس في عبادان. اعتقد الكثيرون أنّ السافاك أشعل النار لإلقاء التبعة على الأصوليين الدينيين. وفي أيلول/سبتمبر، شارك أكثر من مئة ألف شخص في صلاة الجمعة احتفاء بانتهاء رمضان، لكن المناسبة تحوّلت إلى

مظاهرات مناهضة للحكومة دامت يومين، واشتدت وتعاظم تطرّفها. أعلنت الحكومة الأحكام العرفية، وفي اليوم التالي أطلقت القوات النار على المتظاهرين في ساحة جالا في طهران. قُتل مئات من المحتجّين عندما شاركت الدبابات والمروحيات في إطلاق النار، وأطلق على ذلك اليوم اسم الجمعة الأسود. أدى ذلك إلى جعل التسوية مع النظام قليلة الاحتمال، حتى في أوساط المعتدلين. بعث الخميني برسائل إلى المتمرّدين يحثّهم فيها على استمرار الاحتجاج حتى الإطاحة بالشاه. ودعا إلى إضراب عام في كل البلاد، ما أنتج أحداث شغب عارمة. وقف الأغنياء والفقراء والمتديّنون والعلمانيون والرجال والنساء والأميون والمتعلّمون خلف الثورة.

في خريف 1978، أدّت الإضرابات في قطاع النفط والبريد والمصانع الحكومية والمصارف إلى انهيار الاقتصاد. وفي تشرين الثاني/نوفمبر وعد الشاه في حديث متلفز بعدم تكرار أخطاء الماضي، وإدخال الإصلاحات. بل إنّه أمر باعتقال الأعضاء البارزين في نظامه. لكن قبضته على الناس ضعفت، وفي 10 كانون الأول/ديسمبر 1978، نزل ثمانية ملايين إيراني إلى الشوارع للاحتجاج.

كان خمس المحتجين من الحكومة، وقد شكّلوا كتلة متنامية في المعارضة. وأخذ الجيش يذوب، لم يعد الجنود راغبين في إطلاق النار على الحشود. وتقبّلوا الأزهار التي وضعها المحتجون في فوهات بنادقهم وشاركوا في دعم الخميني. أقفلت الخدمات العامة واستولى الثوار على المباني الحكومية ومحطات الإذاعة ومستودعات الأسلحة.

دعا الخميني علناً إلى اغتيال الشاه. وجاب الناس الشوارع وهم يهتفون، "الشاه يجب أن يرحل"، و"الخميني قائدنا"، "اعتقلوا القاتل، الملك الأميركي، عاقبوه، اقتلوه"، و"الرئيس كارتر هو تجسيد الشرّ". سار وسط الحشود نساء يرتدين الشادورات وطلاب ذكور وإناث يرتدون بنطلونات الجينز، وتجار يرتدون البدلات، ورجال دين يرتدون العباءات والعمائم السوداء. لوّحوا بأوراق العملة، التومان، التي قصّت منها صور الشاه. واجتاح بعض المتظاهرين الشوارع الرئيسية ومصنع الأسلحة الرئيسي في طهران للحصول على السلاح. وأسقط الطلاب تمثال الشاه في حرم جامعة طهران،

وهو واحد من مئات التماثيل في الأماكن العامة، وحطموه بالمطارق. وأضرمت النيران بالسفارة البريطانية.

انقطعت الاتصالات بعائلتي في إيران. وتوقّفت حركة الرسائل، وتعذّرت الاتصالات بالهاتف. لم يكن لدي فكرة إذا كانوا قد نزلوا إلى الشوارع للاحتجاج. اتصلت بشقيقيّ لأعرف إذا كان لديهما معلومات، لكنّ أخبار العائلة كانت منقطعة عنهما أيضاً. وعبّرا عن اعتقادهما بأنّ الشاه أصبح أكثر طغياناً مما كان عليه عندما كنا في الأهواز. ولا يمكن أن تكون أي حكومة جديدة أسوأ من حكومته. كانت حواراتنا مشحونة دائماً بالقلق على أحبتنا في الوطن وانقطاع أخبارهم التام عنا.

في 16 كانون الثاني/يناير 1979، بعد سنة من الاحتجاجات العامة المتواصلة، هرب الشاه من إيران، قائلاً إنّه ذاهب في "إجازة". جمل علبة صغيرة من تراب إيران في جيب سترته، واستقل طائرته البوينغ 707 الفضية والزرقاء متوجّهاً إلى مصر. وترك الحكومة في أيدي مجلس الأوصياء ورئيس الوزراء شهبور بختيار، وهو عضو سابق في الجبهة الوطنية. وفي الأسابيع التالية، انتقل الشاه من بلد إلى آخر، ساعياً للحصول على لجوء سياسي.

لم يكن الشاه يحظى بدعم هذه المرّة كما في سنة 1953، عندما أعادته السي آي إيه إلى العرش. فقد تراجعت شعبيته في قسم كبير من العالم، وبخاصة في الغرب الليبرالي. ومن المفارقة أنّ هذه البلدان كانت الداعمة الأساسية لحكمه وهي التي ستكون الخاسر الأكبر من سقوطه. وها هو الآن الرئيس جيمي كارتر، الذي امتدح الشاه ذات مرة قائلاً إنّه قائد حكيم ومهمّ، يرفض التدخّل في الثورة الناشبة ضدّه. ورفض السماح بمجيء الشاه إلى أميركا باعتباره نصيراً لحقوق الإنسان.

ثمة دكان إيراني متخصّص في نيويورك اعتدت ارتياده، كان لدى صاحبه

راديو قصير الموجة مفتوحاً على إذاعة إيرانية. كنت أحاول الحصول على الأخبار اليومية منه. كان كل شيء معطلاً تقريباً في إيران، ونادراً ما حصلت على أكثر من شذرات قليلة من المعلومات.

في أحد الأيام، فيما كنت أستمع إلى الإذاعة، قال المذيع، "هذا صوت الأمة الإيرانية. انتهى النظام البهلوي المستبدّ القاسي وأنشئت حكومة إسلامية بقيادة آية الله الخميني. ونأمل في تلقّي رسالة منه الآن. نرجو منكم مواصلة الاستماع"، لكن الإذاعة انقطعت.

عاد الخميني إلى إيران في 1 شباط/فبراير 1979. فشجب مادية الماضي القريب ودعا إلى مناخ تسود فيه العدالة الاجتماعية. وفي 1 نيسان/أبريل 1979، أعلن جمهورية إسلامية تعد بالديمقراطية. وأعلن الخميني القائد السياسي والديني مدى الحياة. وأطلق على البلد الآن اسم جمهورية إيران الإسلامية، بدلاً من إيران أو فارس.

لكن للأسف، تبع ذلك حكم الإرهاب. فاتبع نهج الانتقام السياسي، وبلغ ذروته بإعدام مئات من الأشخاص الذين عملوا مع نظام الشاه. وتغاضى الخميني عن العديد من الاغتيالات في الخارج وغير ذلك من أعمال الإرهاب. وتعرّضت المكاسب القليلة التي بدأت المرأة تحقيقها في عهد الشاه إلى الانتكاس. وأصبح ارتداء الشادور إلزامياً على النساء وجرى الفصل بين الرجال والنساء في الحافلات، الرجال في الأمام والنساء في الخلف.

أطلق التطهير الثقافي ضدّ كل ما هو غربي. فأحرقت النوادي الليلية ودور السينما أو أغلقت. وأمر المغنّون الشعبيون مثل غوغوش بالتوقّف عن الغناء. ولم يسمح بأن يبثّ على التلفزة سوى نوع معيّن من الموسيقى والبرامج الدعائية الإسلامية. وأصبحت الرقابة على الكتب أسوأ مما كانت عليه من قبل ـ أجبر الناشر الذي واصل طباعة شعر فروخزاد على الإغلاق.

في هذه السنوات هرب العديد من الإيرانيين ـ الأقليات مثل اليهود والمسيحيين والبهائيين، فضلاً عن المواطنين العصريين ـ بطريقة مشروعة أو

غير مشروعة، خوفاً من العيش في ظل حكومة إسلامية أصولية. حثّ أخواي والدي على إحضار العائلة بأكملها إلى أميركا، لكن والدي رفض ذلك. فهو في التاسعة والثمانين الآن ولا يطيق مغادرة إيران ـ حيث يوجد الأصدقاء ولغته وعاداته. لم يكن يتصوّر، في هذه المرحلة من الحياة، البدء من جديد في بلد آخر، وليس لديه استعداد لأن يصبح معتمداً على ولديه. قال، "أفضل الموت في إيران".

حثثت باري ومنصور على مغادرة إيران والقدوم إلى أميركا. فقالت باري إنّ موقف منصور مماثل لموقف والدي: يريد البقاء في بلده.

وماذا عن بيجان؟ ثمة جلسة استماع أخرى يعدّ لها المحامي، كما كتبت لي باري في إحدى رسائلها.

فات الأوان بعد ذلك. فقد رفضت الحكومة الأميركية منح تأشيرات إلى أي إيراني لا يسعى إلى اللجوء.

حدث ذلك بعد أن سمح الرئيس كارتر للشاه المصاب باللمفوما بدخول الولايات المتحدة للخضوع للمعالجة الطبية. كان الشاه ينتقل من بلد إلى آخر ـ مصر والمغرب والبهاماس والمكسيك. فسّر الطلاب الإيرانيون هذه الإيماءة من الرئيس كارتر كجزء من مكيدة لإعادة الشاه إلى السلطة، كما فعلت السي آي إيه في سنة 1953. وفي 4 تشرين الثاني/نوفمبر 1979، تقدّم الوضع إلى الواجهة عندما تجمّع طلاب، يتراوح عددهم ما بين ثلاثمئة وألفين، يطلقون على أنفسهم اسم أتباع الإمام، أمام السفارة الأميركية في طهران. وعندما وجدوا أحد أبواب الدور السفلي مفتوحاً، تسلّلوا إلى الداخل واحتجزوا كل الأميركيين في المبنى. حاول الموظفون في السفارة إتلاف المستندات السرية، لكن اعتقلوا قبل أن يفرغوا. اتخذ ستة وستين رهائن، بمن فيهم ثلاثة وجدوا في وزارة الخارجية الإيرانية. بعد تعمية الرهائن وتوجيه المسدسات إلى رؤوسهم، أجبرهم الطلاب على الخروج. وصاح الطلاب حاملين المستندات السرية في أيديهم، "لدينا كل ما نحتاج إليه من وكر الجواسيس". فصاح

الحشد المحيط بهم. وكتب طلاب آخرون شعارات مناهضة لأميركا على جدران السفارة، باللغتين الإنكليزية والفارسية: "وكر الجواسيس"، و"القتلة الأميركيون". ثم أعاد الطلاب الأميركيين إلى الداخل وحبسوهم. وطالبوا بإعادة الشاه إلى إيران لمحاكته كشرط للإفراج عن الرهائن.

كانت هذه أزمة الرهائن في إيران. ردّت الحكومة الأميركية بتطبيق عقوبات اقتصادية ودبلوماسية ضدّ إيران. أوقف الرئيس كارتر استيراد النفط الإيراني وطُرد عدد من الإيرانيين الذين يعيشون في أميركا. وجمّد الأصول الإيرانية في أميركا ما زاد من تدهور العلاقات بين البلدين. اجتاحت كراهية الإيرانيين الأخبار الأميركية. وظهرت رسوم كاريكاتورية تصوّر الإيرانيين كبرابرة على الجدران في كل أنحاء أميركا. وطرد المالكون الأميركيون بعض الإيرانيين من شققهم. وسجّلت حوادث هاجم فيها طلاب ثانويون أميركيون زملاءهم الإيرانيين في الصفوف ـ أفيد عن وفاة طالب إيراني في أحد هذه الحوادث.

ولّى الشتاء وحلّ الربيع وبقي الرهائن في إيران. حثّ الأميركيون المحبطون كارتر على اتخاذ إجراء قوي. عندما اكتمل مسار علاج الشاه، ضغط كارتر التوّاق إلى تجنّب مزيد من الجدل على الشاه لمغادرة البلاد. فعاد الشاه إلى مصر ومات بعد ذلك بقليل.

لم يظهر الإيرانيون أي إشارة توحي بقرب إطلاق الرهائن. فقرّر كارتر في النهاية المجازفة. في 11 نيسان/أبريل 1980، وافق على عملية إنقاذ عالية المخاطر تدعى "الصحراء واحد". وعلى الرغم من أنّ احتمالات النجاح كانت ضعيفة، فإنّ الرئيس صُدم عندما جرى التخلي عن المهمة بسبب تعطل ثلاث مروحيات. وعندما اصدمت مروحية أخرى بطائرة نقل في أثناء الإقلاع، قتل ثمانية عسكريين وجرح ثلاثة آخرون. وفي الصباح التالي بث الإيرانيون فيلماً عن البقايا المحترقة التي تخلّفت عن محاولة الإنقاذ، وكان ذلك بالنسبة إليهم دليل واضح على العجز الأميركي.

في الولايات المتحدة، وفّرت الأشرطة الصفراء والتغطية الإعلامية المستمرّة خلفية محبطة لموسم الانتخابات الرئاسية. وشاهد الأميركون طوال

سنتي 1979 و1980 أفلاماً يومية عن إيران. وأخذت البرامج الإخبارية تعد الأيام التي مرت على احتجاز الرهائن. وبدا أن لا شيء آخر يهم الأميركيون، وظهرت أميركا بمظهر العملاق العاجز.

في أثناء هذه الفترة وجدت أنّ صديقاتي اللواتي لم يبدين اهتماماً بالسياسة من قبل أصبحن وطنيات يهاجمن إيران. ومع أنّ غضبهم من محتجزي الرهائن كان مبرّراً، فقد ساووا بينهم وبين كل الإيرانيين، وأنا منهم. وبذل زوجي المستطاع ليكون منصفاً، لكنّني كنت حسّاسة لملاحظاته، وبدا لي كل ما يقوله متحيّزاً لصالح أميركا. وعندما كنت أقدّم قراءات من أعمالي، كان الناس الذين ليس لديهم أي اهتمام بالرواية يأتون ليطرحوا أسئلة عن إيران والإيرانيين. ورفضت إحدى المجلات التي نشرت سابقاً العديد من قصصي القصيرة فصلاً عن نسخة مختصرة من إحدى قصصي لأنّها "تقدّم صورة متعاطفة مع الشخصيات الإيرانية".

عادت ابنتي إلى البيت من المدرسة ذات يوم وسألتني إذا كان بوسعها تغيير اسمها إلى سندي. فقد سألتها إحدى زميلاتها في الصف من أين جاءت باسمها، ليلى. فأخبرتها ابنتي أنّه اسم إيراني. فعبست زميلتها عند سماع كلمة "إيران". وعجزت عن تبسيط الوضع السياسي المعقّد في عبارات تستطيع ابنتي التي لا يزيد عمرها على السابعة فهمها.

تراكمت الكوارث على إيران. فقد استغل صدام حسين انهيار التحالف بين إيران والولايات المتحدة، وضغط على إيران للتخلي عن نصف حقوقها في كل شط العرب. وطالب باسترجاع القناة حتى الشاطئ الإيراني. وأصرّت إيران على أنّ الخط الذي يجري وسط القناة هو الحدود الرسمية، كما اتفق عليه في سنة 1975. واعتبر صدام حسين أيضاً أن النظام الشيعي الثوري يشكل تهديداً للتوازن السني ـ الشيعي الدقيق. استجاب الخميني المستاء أصلاً من طرده من العراق في سنة 1977 بغضب. فأمر صدام بغزو إيران في أيلول/سبتمبر 1980.

فكّرت في المفارقة بأنّ شطّ العرب الكريه الرائحة، الذي يتسبّب بكثير من الحرارة والرطوبة في الأهواز، هو الآن محور خلاف بين البلدين ذي عواقب رهيبة أكثر مما اعتدنا على الشكوى منه.

كان اتصالي بعائلتي في إيران متقطّعاً وغير مباشر. يخبر أحدهم شخصاً آخر وتنتقل الأخبار بالتدريج لتصلني عبر مكالمة هاتفية من غريت نك أو لوس أنجلس، اللتين فرّ إليهما العديد من الإيرانيين.

يتصل رجل أو امرأة في الشقة ويسأل عني ويقول، "علي أن أخبرك..."، أو "إنّها أخبار حزينة لكنّني أجد نفسي مجبراً على إبلاغك...".

بعد ظهر ذات يوم تلقيت مكالمة من امرأة من لوس أنجلس قدّمت نفسها بأنّها شاهين. قالت إنّها صديقة قديمة لعائلتي، ولا تعرف والديّ فحسب وإنّما باري ومنصور أيضاً. وقد هربت من إيران قبيل تولّي الخميني السلطة. واست كل منا الأخرى وتبادلنا الحديث عن الأوضاع. ثم تردّدت.

قالت أخيراً، "لدي أخبار سيئة".

غاص قلبي بين ضلوعي. ما الذي يمكن أن يكون أسوأ مما تحدّثنا عنه؟ "لقد توفي والدك. حدث ذلك قبل بضعة شهور لكنّني علمت للتوّ. ليتغمّده الله برحمته. مات بسلام في أثناء النوم". وأوضحت أنّه كان مصاباً بذات الرئة، ثم استيقظت محترم في صباح أحد الأيام ووجدته ساكناً وبارداً وعينيه مفتوحتين. وأضافت شاهين، "ربما مات من الأسى - على بعده عن أبنائه وخراب البلد".

غمرتني المشاعر المتدفّقة. لقد محا استقبال والدي الحارّ لنا عندما زرنا البلد كل غضبي. كان يمتلك سيطرة قوية عليّ، وقد غيّر مسار حياتي بالقوة، لكن إلى الأحسن في جانب كثير منه. وددت لو تمكّنت من إجراء حديث حقيقي معه، والآن فات الأوان.

اتصلت شاهين بعد عدة أشهر لتخبرني أنّ جدتي توفيت من "الهرم". لازمتها الحمى عدة أيام ثم توفيت في المنزل. فكّرت في وجهها العذب المليء بالتجاعيد عندما رأيتها آخر مرة قبل سنوات في الأهواز، وفي وجهها الحنون في سنوات شبابها. لقد كانت هي التي أخذتني إلى مريم عندما كنت رضيعة.

تلقيت رسالة من مريم التي فقدت أثرها منذ وقت طويل، إذ كانت دائمة

التنقّل من مكان إلى آخر في المدن التي تضمّ مراقد مهمة. قالت إنّ الإيرانيين طُردوا من كربلاء بسبب الحرب بين العراق وإيران. وقد انتقلت إلى دبي، وانضمّت إليها محترم، التي أصبحت تشعر بالوحدة والضعف بعد وفاة والدي. فقد تزوّجت فارزين وفرزانة، بعد أن تدبّرت محترم عريساً قروياً محدود التعليم لفارزين. وهكذا أصبحت كل بناتها متزوّجات الآن.

الفصل السادس والثلاثون

على الرغم من الإشاعات عن أنّ كارتر قد يجترح "مفاجأة أكتوبر" ويحرّر الرهائن قبل الانتخابات، فإنّ المفاوضات طالت. ولم تنجح جهود كارتر المضنية لإعادة الرهائن إلى الوطن قبل نهاية مدة ولايته. وفي 21 كانون الثاني/يناير 1981، يوم تنصيب الرئيس ريغان، أفرجت الولايات المتحدة عن 8 مليارات دولار من الأصول الإيرانية، وأفرج الإيرانيون عن الرهائن. وفي اليوم نفسه، توجّه كارتر، بعد أصبح رئيساً سابقاً، إلى ألمانيا للقاء الرهائن المحرّرين نيابة عن الرئيس الجديد. وكانت لحظة صعبة بالنسبة إليه ومشحونة بالمشاعر.

بعد إطلاق الرهائن بوقت غير بعيد، استيقظت على صوت صفارات سيارة إسعاف مسرعة إلى قسم الطوارئ في مستشفى جبل سيناء أو لينوس هيل، وكان صوتاً منذراً بسوء ومثيراً للاكتئاب لم أعتد عليه البتة. كنت بمفردي في الشقة في تلك الليلة، إذ توجّه هاوي إلى بوسطن، وباتت ليلى عند صديقتها. عندما انحسر صوت الصفارات، بدأ الهاتف يرنّ. التقطت السمّاعة وقالت امرأة بالفارسية، "ناهيد، أنا أزار".

"أزار، يسعدني سماع صوتك. هل باري معك"؟ كانت أزار صديقة باري التي تحدّثت عنها في إحدى الرسائل، وهي التي أخبرت شقيقتها باري عن ماضي طاهري الإجرامي.

قالت بصوت مرتجف، "لا، ويؤسفني أنّني سأبلغك أنباء سيّئة". توقّفت عن الحديث برهة ثم سمعت صوت بكاء. ونفذت إلي كلماتها التالية كشظايا الزجاج. "آسفة يا ناهيد، شقيقتك العزيزة، وصديقتي الغالية تعرّضت

لحادثة رهيبة. فقدت توازنها وتعثّرت على درج منزلها. لكنّها نقلت إلى المستشفى بعد فوات الأوان".

شعرت بالاختناق، ولم أستطع أن أنطق حرفاً واحداً.

"حدث ذلك قبل شهر ـ لا خمسة أسابيع بالضبط، لكن لزمني وقت طويل لأحصل على رقمك من منصور، ثم النجاح في التحدّث إليك على خط دولي. هل أنت على الخط؟... كان منصور خارج المدينة وقت الحادثة، وكنت أنا معها وكذلك زهرة وصديقة أخرى، لالة. استغرق وصول سيارة الإسعاف وقتاً طويلاً". ثم انقطع الخط.

رنّ الهاتف ثانية وثالثة، لكن ما إنّ كنت أرفع السمّاعة حتى ينقطع الخطّ. وبعد أن حاولت عدة مرات الحصول على معلومات من إيران، تبيّن لي أنّ هناك أكثر من مئة ميرشاهي مدرجة أسماؤهم في الدليل. ولم يكن لدي عنوان أزار. وكل ما أعرفه أنّها انتقلت من منزلها المقابل لمنزل باري.

أحسست بالرغبة في التحدّث إلى زوجي لكنّني لم أفعل. كأنّ التحدّث عن الموضوع يجعله واقعاً. ومع ذلك، الواقع قائم، ووصلني في صور مزعجة. شاهدت ممرّضتين متشحتين بملابس سوداء قادمتين لمساعدة باري، فيما هي ممدّدة أسفل الدرج. وتصورتهما تجسّان نبضها، وضربات قلبها، ثم تغطيانها بملاءة وتحملانها إلى سيارة الإسعاف المتوقّفة في الخارج.

فقدت توازنها. راودتني أفكار مزعجة بأنّ الحادث كان مقصوداً. فقد كانت باري تتماهى كثيراً مع فوروخ فروخزاد، وتعتقد أنّ الشاعرة قتلت نفسها لأنّها لم تعد تحتمل ظروف حياتها. وقد شهدتُ السوداوية تسيطر على نظرة باري إلى الحياة. لا أمل، لا مفرّ، لا عواطف. تخيّلتها واقفة عند أعلى الدرج، تنظر إلى أسفل وتحدّث نفسها، اقفزي وسيضع ذلك نهاية للألم.

لا أدري كم من الوقت جلستُ هناك وأنا ممزّقة أشلاء، ولا أذكر كيف نهضت من السرير إلى الكنبة في غرفة الجلوس. كانت الرهبة والأسى يعتصران قلبي. ثم تذكّرت كل شيء. رأيت المطر ينهمر من خلال النافذة، وظننت بطريقة غريبة وهلاسية أنّ نقاط المطر المتسارعة دموعي. أيعقل أن

لا أرى باري ثانية؟ كنت آمل دائماً في أحلامي وخيالاتي أن تعيش إحدانا على مقربة من الأخرى وتستأنف العلاقة الوثيقة التي جمعتنا. وها هو الحلم يتحطّم.

لم أعثر على هاتف عمل منصور ولا أعرف اسم شركته. كانت محترم لا تزال مع مريم في دبي، وليس لدي عنوان أو رقم هاتف أي منهما، إذ كانتا تنتقلان كثيراً. لم يكن لأقاربي في طهران هواتف، أو أنّهم غيّروا أرقام هواتفهم. ولم يعد لدي عنوان أحد منهم. أخبرت برويز وسايرس عن الحادث الذي تعرّضت له باري، فصدما وسيطر الحزن عليهما. لكن كيف يمكن أن نعزّي بعضنا بعضاً أو نجد إجابات عن ما حدث؟ لم أكن أعرف كيف أتصل بمانيجة. أحسست فجأة بالرغبة في التحدّث إليها بعد كل تلك السنين، وأشد ما كان يدفعني إلى ذلك أن أعرف إذا كانت على اتصال بباري في الأشهر الأخيرة.

في الأيام التالية، استرجعت في ذهني الحوارات التي دارت بيني وبين باري عندما زرتها وأعدت استرجاعها ـ فقدان مجيد وطموحاتها في التمثيل، وقيام منصور بإدخالها إلى المصحة، وتضاؤل أملها في أن تحصل على حقوق حضانة بيجان أو حتى رؤيته.

كنت في قسم كبير من حياتي أجد السلوى في الكتابة. وكان للتلاعب بالتفاصيل ونسجها في قصة متسقة تأثير مهدّئ. لكنّني لم أستطع أن أكتب عن وفاة باري. وكنت أعتقد أيضاً بأنّ باري تحتاج إلى عالم الخيال، وقد حرمت من ذلك العالم بالتدريج. وألقى ذلك الحرمان بظل داكن على كل شيء في حياتها. ولم يُسمح لها بمنح تبرّمها وخيبات أملها وخساراتها شكلاً ومعنى، لذا أصبحت أسيرتها.

ربما بدوت غريبة لكل من حولي. قالت لي ابنتي غير مرّة، "تبدين فاقدة الوعي". كيف يمكنني أن أوضح لهذه الفتاة الصغيرة التي تعيش حياة مختلفة تماماً عن حياة أمها ما الذي يطويني على نفسي؟ لم تكن تعرف

الكثير عن ثقافتي. فهي لم تزر إيران قط، ولم تلتقِ بباري أو بمريم أو بوالديّ، ولا تتحدّث الفارسية. فقد حاولت أن أحميها من الواقع القاسي لثقافتنا، لذا لم أعرّفها حتى على الأشياء الجيدة.

اقترحت علي إحدى الصديقات، جولي، أن أذهب إلى طبيب نفسيّ، لكن كيف يمكن أن يساعدني في تغيير وقائع ما حدث؟ وهل أريد أن أقلع عن الحزن في المقام الأول؟

عندما اتصلت أزار ثانية، أخبرتها بأنّني أريد الذهاب إلى إيران لرؤيتها هي وزهرة ولالة، اللواتي كنّ موجودات عند وقوع الحادثة، وربما أشخاص آخرين كانوا قريبين منها حتى النهاية. ثم يمكنني الذهاب إلى مكتب منصور لرؤيته. كنت أعرف مكانه، إذ حدّدته لي باري عندما كنا نمشي معاً. فالطريقة الوحيدة للتغلّب على مشاعر الخسارة لدي معرفة المزيد عن ما حدث، والوقوف على حقيقة الحادثة. وسرعان ما أصبح ذلك هاجسي.

كانت الحرب العراقية ـ الإيرانية التي بدأت في سنة 1980 لا تزال محتدمة. وكان الذهاب إلى إيران في ذلك الوقت محفوفاً بالمخاطر، لكنني كنت عازمة على ذلك. اتصلت بقسم رعاية المصالح الإيرانية في السفارة الباكستانية في واشنطن، إذ كان يؤدي دور الوسيط نظراً إلى عدم وجود قنصلية أو سفارة إيرانية في الولايات المتحدة.

أبلغني المسؤول الذي ردّ على الهاتف أنّه لا توجد مشكلة في ذهابي إلى إيران والعودة منها، ما دمت لا أظهر جواز سفري الأميركي عندما الوصول والمغادرة. بل علي أن أستعمل جواز سفري الإيراني. كما يجب علي أن أتبع قواعد الحجاب. يمكن أن يكون غطاء الرأس والمعطف كافيين، لكن علي أن أحرص على أن يكونا داكنين. فقد حظر الخميني على النساء ارتداء الألوان الزاهية. وطمأنني بأنّ الحرب تخاض عند الحدود وأنّها ستنتهي قريباً.

كان علي استبدال جواز سفري الإيراني إذ يجب أن أكون محجّبة في الصورة. ولن يكون على جواز السفر الجديد الأختام التي كانت مستعملة في

عهد الشاه. ويجب إرسال الجواز القديم إلى إيران بدلاً من قسم رعاية المصالح، وذلك سيستغرق عدة أشهر. وحذّرني المسؤول من بعض الأشياء. إذا كنت سأحمل معي كتباً أو مجلات، يجب الحرص على ألا يكون فيها صور لنساء سافرات أو تبدين أجسامهن. ويجب ألا أتبرّج أو أطلي أظافري.

نصحني، كأنّه صديق، أن أخفي جواز سفري الأميركي في بطانة حقيبة اليد أو المعطف لكي لا يكتشف بسهولة. كما أخبرني أنّ علي الذهاب بدون زوجي أو ابنتي. لم تكن المشكلة دين زوجي اليهودي لأنّ الخميني أعلن أنّ اليهود "أهل كتاب"، لكن ما يهم أنّه وابنتي أميركيان.

كان معظم المسافرين على متن الخطوط الجوية الإيرانية إيرانيين، وكانوا متجهّمين جميعاً. لا تقدّم الكحول على متن الطائرة، كما أنّ البرامج المعروضة على الشاشة بالفارسية ومعظمها أفلام دعائية إيرانية.

عندما بدأنا الهبوط نحو مطار مهرباد، أعلنت المضيفة، "الرجاء ربط أحزمة المقاعد، لقد بدأت الطائرة بالهبوط. الرجاء ارتداء الحجاب".

وضعت غطاء الرأس الداكن ومعطفي الطويل أكثر من المعتاد الذي اشتريته للرحلة. وفي المطار دهشت من كيفية عرض صور الخميني المتجهّمة في كل مكان، وإحلالها محل صور الشاه. كانت الآيات القرآنية المبروزة معلّقة على عدد من الجدران، بعضها إلى جانب صورة الخميني. ووقف الحراس المسلّحون والملتحون في نقاط مختلفة من المطار.

أحسست بالانفراج لعدم حدوث شيء غير عادي عند التدقيق في جواز سفري. طلب مني ضابط الجمارك فتح حقيبتي ومحفظتي، ثم قال "تقدّمي". أحسست بالطمأنينة ثانية ـ لم يلاحظ جواز سفري الأميركي المخبّأ في بطانة محفظتي.

عندما غادرت المبنى، لاحظت إشارتين على مدخلين خلفي، واحدة تقول للرجال والأخرى للنساء. ركبت سيارة أجرة للتوجّه إلى فندق إستيغال غراند، فندق طهران هيلتون السابق، حيث كانت والداي نازلين في زيارتي الأخيرة.

اشتكى السائق الضخم ذو العينين الحزينتين والابتسامة العذبة من التضخّم وارتفاع الأسعار في كل مكان.

كان جوّ المدينة، عندما نظرت من النافذة، متجهّماً مثل صور الخميني. تغيّر العديد من أسماء الشوارع وحلّت محلها أسماء تبعث على الكآبة مثل، ساحة الشهداء، وجادة الشهيد الحاج علي، وجادة الإعدام وسواها. وانتشرت على الجدران شعارات مثل، "على النساء ارتداء الحجاب"، "الجنة مأوى من ضحوا بحياتهم في محاربة الشاه الشرير"، و"الموت لأميركا".

عندما وصلنا إلى الفندق، ساعدني السائق في إدخال الحقائب وقال قبل أن يرحل، "توخّي الحذر، أنت امرأة بمفردك".

كان يوجد في البهو مزيد من صور الخميني. لاحظت سيدتين أجنبيتين منفردتين جالستين في مكانين مختلفين، فشعرت بالارتياح. كانتا ترتديان غطاء رأس خفيف ومعطفاً مثلي. بعد تسجيل الدخول تبعت خادم الفندق إلى غرفتي.

كانت غرفة مريحة مفروشة بسجاد يدوي الصنع (كيليم) والسرير مغطى بلحاف. وعلّق على الجدار قرب الباب لوحة مبروزة كتب عليها "بسم الله". وكان بوسعي أن أرى عبر النافذة الفسيفساء التي تزيّن قبة المسجد القريب.

أفرغت الحقيبة وجلست على السرير. طلبت رقم بيتنا لأبلغ هاوي وليلى أنّني وصلت بسلام، لكنّني لم أستطع الوصول إليهما ـ لم تكن الخطوط بين أميركا وإيران سهلة، وقد ازدادت سوءاً.

الفصل السابع والثلاثون

في الصباح بعد تناول طعام الفطور في غرفة الطعام في الفندق، غادرت متوجّهة إلى منزل أزار التي كانت في انتظاري. وقرّرت المشي إلى هناك.

مررت في شارع مليء ببيوت تعود إلى يهود بقوا في إيران بعد الثورة، ثم مررت في جيب للسوريين. وفي شارع آخر التقيت بصبي يبيع باقات أزهار إبرة الراعي. كان يصيح، "أنضر الأزهار وأرخصها ثمناً في طهران". اشتريت باقة لآخذها إلى أزار. وفيما كنت أسير، أدركت أنّني فيما كنت مستغرقة في التفكير بباري، كنت أنتزع البتلات من الأزهار فتتناثر حولي مخلّفة أثراً ورائي.

كان يوماً ربيعياً أيضاً في الأهواز عندما أرسل مجيد زهرة إلى باري مع مغلّف مربوط بساقها. وكانت الشجيرات التي تحفّ بالطرقات مزهرة، والشمس توشك على المغيب. اكتسب كل شيء ساعتئذ سمة أثيرية سماوية. وكان بوسعي سماع هديل الحمام وصوت حركة المرور في جادة بهلوي.

يقع بيت أزار في شارع ضيّق توجد على جانبيه مبان من طبقتين أو ثلاث طبقات، مقسّمة إلى شقق منفصلة، ولكلها نوافذ طويلة للسماح بدخول الضوء من الشمال. وكانت بعض النوافذ مغطاة بستائر مخرّمة. قدّمت الشقة إلى أزار عقب مقتل زوجها في الشارع في أثناء الاضطراب الذي أدى إلى الثورة.

قالت أزار وهي تعانقني عند الباب، "وددت لو كان لقاؤنا في مناسبة أسعد".

عندما أسرعت إلى المطبخ لتعدّ الشاي، خلعت معطفي وغطاء الرأس وجلست على الأريكة. تصاعد صوت رجل يغني أغنية حب حالمة، مصحوبة بأنغام السنطور والدونباك، من الفونوغراف في الزاوية.

قدمت إلي في عتمة الليل... فبدت عيناك كالنجوم الساطعة...

إنّها من نوع الأغاني التي يفسّرها رجال الدين بأنّها عن النبي محمد كما رآه أحدهم، لذا فإنّها مقبولة. وفيما كنت أنتظر أزار، لاحظت أزهار الياسمين طافية في وعاء على طاولة للقهوة. وانتصب حصان هزّاز في إحدى الزاويا، واحتلّت بعض الألعاب زاوية أخرى.

عادت أزار وهي تحمل الشاي. كانت سافرة وشعرها الكستنائي اللامع يتدلّى على كتفيها، وترتدي ملابس سوداء.

قالت عندما لاحظت نظرتي المتساءلة، "مضى على ارتدائي الأسود سنتان حتى الآن، منذ قُتل حسن. وإذا لم أفعل ذلك، سيقولون إنّني قليلة الاحترام".

لفتت نظري لوحة صغيرة معلّقة على الجدار خلفها. كانت تصوّر امرأة ترتدي شادوراً داكناً وتحتضن صبياً صغيراً يدير وجهه إليها. كانت ألوانها كئيبة - رمادية وزرقاء وسوداء.

"أعطتني باري هذه اللوحة مؤخّراً. وجدتها في معرض فني. كانت تعني الكثير لها، لكنّها لم تعد تريد الاحتفاظ بها. لا تربطني صداقة بأحد كتلك التي ربطتني بباري. لدى أولادي صداقات في البناية على الأقل، وهم في المدرسة الآن". حدّقت في يديها المطويتين في حجرها ثم قالت، "إنّني أنزف بشدة. لا يعرف الأطباء سبب لذلك سوى التوتّر".

قلت، "إنّني آسفة. لا شك أنّ الحياة صعبة بكل ما تحيط بها من مآسٍ".

"المآسي مشتركة لدى الجميع، وقد ابتليت بصدمات إضافية. وفاة زوجي وصديقتي".

"من الصعب أن أصدّق أنّ باري سقطت عن الدرج".

اغرورقت الدموع في عينيها، "كنا مجتمعين في منزلها لأنّها تريد أن تبلغنا شيئاً، لكنّها سقطت. كنا في الطبقة الثانية. توجهت إلى غرفة أخرى لإحضار شيء تعرضه علينا. وعندما لم تعد، ذهبت أبحث عنها. ثم سمعت أنيناً وأدركت أنّه قادم من أسفل الدرج. رأيتها ممدّدة هناك. صحت وأسرعت في النزول. كانت فاقدة الوعي ووجهها نازفاً. ومن المستغرب أنّها لم تصرخ عندما سقطت".

طفرت الدموع في عيني أيضاً.

قالت أزار بعد أن هدأت نفوسنا قليلاً، "لعل الضربة جاءت على رأسها وفقدت وعيها على الفور. لقد كانت الحياة غير سوية معنا جميعاً. وكانت تعاني من كل تلك المشاكل. لا أريد أن أسمح لنفسي بالاعتقاد بأنّها تعمّدت السقوط. آمل أن يكون الحادث غير مقصود".

سارت سيارة الأجرة ببطء في شوارع طهران المزدحمة، فلم أدرك منصور في مكتبه قبل أن يغلق. عدت إلى غرفتي في الفندق، واتصلت بالبيت ثانية ولم أوفّق. تمدّدت على السرير وأغمضت عيني. وعندما فتحتهما ثانية كان الليل مخيّماً في الخارج، ولن أدرك منصور في المكتب. ولم أكن راغبة في زيارته في البيت، على الرغم من أنّني أريد التوجّه إلى هناك في مرحلة ما لرؤية الدرجات والإحساس بباري في بيئة المكان.

يقع بيت لالة في نهاية زقاق مغلق تحف به بيوت كبيرة وفخمة، عصرية وتقليدية. فتح خادم البوّابة الحديدية وقادني عبر حديقة مليئة بأشجار التفاح والكرز. أخبرتني لالة عندما فتحت الباب وقادتني إلى الداخل أنّ زهرة وأزار وصلتا وتنتظرانني على مائدة الغداء.

كانت النساء الثلاثة متأنّقات وسافرات داخل المنزل. بدت لالة أكبر سناً من الاثنتين الأخريين ذات بشرة باهتة وشعر بني فاتح. وكانت زهرة داكنة

الشعر ذات عينين سوادوين، وبدت الكآبة على وجهها. أحضرت خادمة أطباق الطعام ـ يخنة الباذنجان، وكسرولة الخضر، والأرز بالزعفران، والسلطة. كانت ترتدي شادوراً لفّ جانباه حول خصرها لتحرير يديها وحمل الأطباق.

أخبرتني لالة عندما بدأنا بتناول الطعام، "تركت ابنتاي زوجيهما وعادتا إلى البيت. وهما ملتحقتان بالجامعة. ثمة أشياء بالغة السخف: الذكور والإناث يجلسون في جانبين منفصلين، كما هو الحال في الحافلات وفي كثير من الأماكن العامة. كنت أدرّس علم الاجتماع هناك، وكان من الصعب تعليم ذلك الموضوع في عهد الشاه، لكن أصبحت الأمور أكثر سوءاً بعد الثورة، لذا استقلت".

سألت النساء، "هل كنتن أنتن وباري تختلطن بالحشود في الشوارع".

قالت أزار، "نعم، كلنا نختلط بهم. لم نكن نقعد في البيت".

وقالت زهرة، "نشعر الآن بأنّنا خُدعنا. لم نكسب شيئاً وقُتل كثير من الأشخاص".

قلت، "ما حدث غير منصف. لم تكن باري تستطيع البقاء مع ذلك الزوج الرهيب، لكن كان عليها أن تدفع ثمناً عالياً لكي تتركه". بدأت أشعر بالمرارة في صوتي فلم أزد شيئاً.

قالت زهرة، "نعم، لديها كل الأسباب التي تدفعها إلى الكآبة".

"هل تعتقدين...".

قاطعتني زهرة، "كانت يائسة جداً ذات يوم عندما رجعت من المحكمة فشعرت بالقلق عليها. لكنّني لا أعتقد أنّها كانت تريد أن تضع حداً لحياتها. فقد سمعت من شخص يعرف طاهري أنّ ابنها يبحث عنها. كانت تتوقّع أن يأتي بيجان إلى بيتها في أي يوم".

قالت أزار، "لم تقل باري لي ذلك قطّ".

وقالت لالة، "لم تقل لي أيضاً".

هزّت زهرة كتفيها.

سمعنا وقع أقدام وضحكاً، ثم دخلت شابتان.

قدّمت لالة ابنتيها. رفعت كلاهما غطاء الرأس والمعطف وظهرتا كفتاتين عصريتين جذابتين. كانت سوسان ترتدي تنورة مكسّرة وقميصاً قصير الكمين منخفض الفتحة عند العنق، ونسرين فستاناً أزرق منخفض فتحة العنق أيضاً. دعتهما لالة إلى الانضمام إلينا للغداء، لكنّهما اعتذرتا لأنّهما تغديا بالفعل وتوجّهتا كل إلى غرفتها.

قالت لي لالة، "تعارض ابنتاي القوانين ما استطاعتا إلى ذلك سبيلاً. وهذا حال كثير من الشابات، إنّهن يجازفن. توقف شرطة الآداب بعضهن. إذا كانت جريمتهن وضع حمرة الشفاه أو طلاء الأظافر أو عدم الالتزام بالحجاب كما يجب، يجلدن، وإذا كنّ يحملن منشورات أو كتباً مناهضة للحكومة يرسلن إلى السجن. الجميع يعشن في خصوصية بيوتهن. يمكنك الحصول على أي شيء تقريباً من السوق السوداء ـ أفلام الفيديو الأميركية، والمشروبات الروحية ـ لكن هناك خوف دائم من الوقوع في قبضة السلطات. إنّنا نحيا مع الخوف والقلق، مثلما كان الحال في ظل حكم الشاه. ابنتاي راغبتان جداً في الالتحاق بالجامعة في أميركا، لكن ذلك شبه مستحيل لتعذّر الحصول على تأشيرة طالب الآن. لماذا وصلت الأمور إلى ما وصلت إليه"؟ ثم نهضت وتوجّهت إلى المطبخ.

بعد لحظة عادت حاملة طبقاً ذا قوائم فضية مليئاً بالفاكهة، ووضعته على وسط المائدة.

قالت بعد أن جلست، "لقد أدخل منصور باري إلى المصحة. لكن الأطباء أخرجوها بعد شهر".

سألت والألم يعتصرني، "لكن ألم يكن ذلك قبل سنوات"؟

"لا، قبل الحادثة مباشرة. أدخلها ما كان يسمى مصحة بهلوي".

قالت أزار، "كانت المرة الثانية التي يدخلها إلى المصحة".

قلت، "أخبرتني باري عن المرة الأولى، لكنّني لا أعتقد أنّ هناك ما يكفي ليبرّرها".

وقالت أزار، "ولا أعتقد أنّه كان هناك مبرّراً في المرة الثانية أيضاً".

قالت زهرة، "أخبر أحد قارب منصور زوجي أنّ أشقاء منصور يبحثون له عن زوجة الآن. إنّهم يعتقدون جميعاً بأنّ باري كانت خياراً خاطئاً، وأنّها كانت مستعلية عليه".

خيّم علينا الصمت. شعرت بالألم لأنّ منصوراً يريد استبدال زوجة أخرى بباري. فكّرت فجأة بأنّ منصوراً لم يحاول الاتصال بي بعد الحادثة.

تواصل حديثنا وأرخى الحزن مزيداً من الظلال علينا دون أن نتوصّل إلى أي استنتاج بخصوص الحادثة.

فيما كنت أتجوّل على غير هدى في الأحياء المختلفة، امتلأ ذهني بصور باري. تخيّلت جنازتها. كانت باري تكره كل الطقوس المصاحبة لزواجها، ولعلها لم تكن تحبّ طقوس الجنازة أيضاً. ولعل منصور رتّب خلال أربع وعشرين ساعة أن يُغسل جسدها في المسجد، على بلاطة حجرية باتجاه القبلة. وبعد الغسل ثلاث مرات، تلفّ بكفن أبيض من رأسها إلى أخمص قدميها، وبعد ذلك يدعو لها رجل دين يقف عند كتفها ويقرأ أول سورة في القرآن. وفي المقبرة، توارى باري المكفّنة الثرى دون تابوت ووجهها مستقبلاً القبلة أيضاً. ثم يهيل رجال يستأجرهم منصور التراب عليها. وتنتهي الطقوس بدعاء آخر من رجل الدين.

بعد الغداء، قرّرت أن أقص شعري في الصالون الذي أشارت إليه باري عندما كنت في زيارتها في طهران. قالت باري إنّها تذهب إلى المرأة التي تدير الصالون على أمل أن تسمع شيئاً عن بيجان. وكانت المرأة تسمع عن بيجان من ابن عمها الذي يمتلك دكّاناً في طهران يتوجّه إليه طاهري بين الحين لشراء السجاد.

كانت هناك ورقة ملصقة على ستارة على الباب كتب عليها: "قص الشعر وتجفيفه ثلاثون تومان". على الرغم من أنّ اليوم جمعة، فقد بدا المحل مفتوحاً. رننت الجرس. فتحت امرأة سمينة ذات شعر مصبوغ بالحنا الحمراء يظهر من تحت نقابها الباب ونظرت إلي نظرة والحيرة بادية عليها.

سألتها إذا كنت أستطيع أن أقصّ شعري بدون موعد. فأبلغتني أن المحل مغلق. أخبرتها أنّني شقيقة باري وأودّ التحدّث إليها.

شهقت وتغيّر سلوكها على الفور. "لا بد أنّك ناهيد. كانت باري تتحدّث عنك كثيراً، وتفتقد إليك. إنّني آسفة بشأن ما حصل لها. يا لها من مأساة".

قالت فريدة إنّها ستقصّ شعري ويمكننا التحدّث في أثناء ذلك. تبعتها عبر فناء يفضي إلى إحدى الغرف. كانت صور نساء ذات قصّات شعر مختلفة تزيّن الجدران.

غسلت شعري، ثم سألت ما نوع القصة التي أريدها.

قلت، "هذّبيه. أخبرتني إحدى صديقات باري أنّه كان من المفترض أن يزورها بيجان في أي وقت. هل ذلك صحيح"؟

"أخبرني ابن عمي أنّ طاهري كان سيوصل بيجان إلى منزل باري في إحدى زياراته إلى طهران، وأنّ بيجان يسأل عن أمه كل يوم. إنّه في الرابعة عشرة الآن ويفهم كل شيء".

"ما أقسى الأقدار".

"كنت على موعد لتناول الغداء مع باري، لكن لم يحدث اللقاء. هل تريدينني أن أصبغ شعرك"؟

"أحب أن أتركه على طبيعته".

"كنت أصبغ شعر باري بخصال شقراء. كانت تريد أن تبدو بمظهر جميل أمام ابنها".

"ليتني كنت أعرف ما يدور في نفسها وعقلها قبل الحادثة".

"تساورني الفكرة نفسها وتتساءل بعض الفتيات اللواتي يعملن هنا عن الأمر نفسه أيضاً. تألّمنا جميعاً، فالكل يحبّ باري".

"هلا تفتّحين لون شعري".

"إذا أردت أن أكون صريحة معك، لا أعتقد أنّها فقدت توازنها. كانت تخشى ألا يسمح طاهري لبيجان برؤيتها، وأن يحيل حياته إلى جحيم إذا

رآها. وفي الوقت نفسه كانت باري تخشى من أن يخيب أمل بيجان فيها، أو يلومها لأنّها تخلّت عنه إذا ما رآها. وكانت تشعر بسوداوية حيال ذلك".

بعد أن فرغت فريدة من تفتيح شعري، غسلته وجفّفته. حملت المرآة أمامي لكي أرى النتيجة، وقالت، "إنّه شبيه بشعر باري".

حاولت أن أدفع لها وأنا أغادر، لكنّها رفضت المال.

"أرجوك، فعلت ذلك إكراماً لصديقتي العزيزة".

الفصل الثامن والثلاثون

في اليوم التالي، في بهو شركة مقدّسي الوطنية للنفط، أرشدتني موظّفة الاستقبال، المغطاة من رأسها إلى أخمص قدميها بشادور أسود، إلى مكتب منصور. فيما كنت أسير في الممر الطويل كانت كل النساء اللواتي التقيت بهن في الممر متشحات بشادورات سوداء. كان هناك باب موارب، وعرفت أنّه يفضي إلى مصلّى للنساء. كانت عدة نساء يقفن أمام سجادات الصلاة، يركعن ويعتدلن.

فتح منصور الباب وقال، "ناهيد هانم، يا لها من مفاجأة".

بدا نحيلاً أشعث الشعر، ذا عينين محمرّتين. كانت ثيابه، سترة بنية وبنطلون بيج وقميص أبيض، متغضّنة. جلست على كرسي وجلس خلف مكتبه، ونظر كل منا إلى الآخر بحرج.

كان يوجد علبة غاز، وهي حلوى إيرانية على مكتبه، فقرّبها مني. هززت رأسي، كنت أشعر بانسداد حلقي.

تمكّنت من القول بعد لحظة من الصمت غير المريح، "لم تبلغني عن الحادثة التي تعرّضت لها شقيقتي العزيزة. وكان عليّ أن أتلقّى الخبر من صديقة في منتصف الليل".

قال بصوت مرتعش، "آسف يا ناهيد. حاولت الاتصال بك لكن الاتصالات كانت صعبة، ثم لم أعد أطيق المحاولة ثانية. إنّني مصدوم مما حصل. كنت غائباً عن البيت مدة ثلاثة أيام لزيارة أمي المريضة، وحدث ما حدث. لقد حاولت جاهداً أن أرضي باري، وأن أجعلها سعيدة، لم أنجح. كانت

أحياناً تمضي أياماً بأكملها في السرير. لم تكفّ عن القول إنّ طاهري يلاحقها بسيارته. ولم أعرف قط إذا كانت تتوهّم أم تتحدّث عن واقع. كانت تتحدّث عن خواء حياتها والتعاسة التي تشعر بها بسبب بيجان. وتواصل القول إنّها ترجو الموت. اضطررت إلى إدخالها المصحّة. كنت خائفاً عليها". تلوّن صوته بمسحة من الصلاح عندما قال، "فعلت ذلك لمصلحتها، لكنّها شعرت أنّني خنتها".

"هل تعتقد أنّها تعمّدت السقوط...".

"لست متأكّداً من ذلك يا ناهيد. لم تترك لي رسالة أو أي شيء. لكنّها كانت توزّع أغراضها. وكان علي أن أصنّف ما بقي منها. جمعت كل شيء في صناديق ووضعتها في مخزن".

فكّرت في المدلاّة التي أعطتني إياها واللوحة التي أعطتها إلى أزار.

قال منصور متنهّداً، "لا أستطيع تصوّر الحياة بدونها، لكنّها حصلت على السلام أخيراً، على السكينة التي لم تجدها في حياتها. لم أعد أطيق البيت بعد ما حدث. فأجّرته وانتقلت إلى شقة. لماذا ابتلاني الله بكل هذه النكبات؟ فقدت زوجتيّ وابني".

كنت أنوي مواجهة منصور لكنّه بدا شديد الحزن.

قلت، "أودّ الذهاب إلى البيت ومعاينة تلك الدرجات".

"الأمر صعب بوجود المستأجرين، ثم ما جدوى ذلك؟ لماذا تستعيدين هول ما حدث"؟

طرق أحدهم على الباب ففتحه منصور. همس رجل يرتدي بدلة شيئاً في أذن منصور وذهب.

قال منصور وهو عائد إلى مقعده، "كلّفت الآن بمهمة خارج طهران يستغرق أداؤها بضعة أيام. كم ستمكثين هنا"؟

أخبرته أنّني سأمكث في إيران ستة أيام أخرى، وأنّني أريد زيارة قبر باري. قال إنّها في مقبرة بهجة الزهراء، نسبة إلى ابنة النبي فاطمة الزهراء. وأنّه زرع شجرة قرب قبرها ويدفع لأحدهم لكي يهتمّ به. وقال إنّه كان يتمنى

أن يذهب معي، لكنّه لا يعرف كم ستدوم مهمته. ونصحني بالانتظار يوماً أو اثنين قبل الذهاب إلى المقبرة، فالنظام الحاسوبي الذي يحدّد القبور معطّل مؤقّتاً. ومن الصعب عليه هو أن يجد القبر دون ذلك الدليل، فالمقبرة واسعة جداً.

شعرت في الخارج أنّني مغمورة بالعجز والتشوّش، وتساءلت لماذا جئت إلى إيران. لماذا أعذّب نفسي؟ هل مسّ موت باري شيئاً مصاباً بضرر عميق في داخلي؟

وجدتني مدفوعة بالتوجّه إلى المصحّة. تذكّرت موقعها بدقّة كأنّه اخترق عقلي. كنت آمل أن تتذكّر ممرضة أو طبيب باري ويخبرني بشيء عنها. ولعله يفتح سجلّها. مررت بصفّ من دكاكين الثياب المستعملة، ومتاجر الإلكترونيات والألعاب. ورأيت على جدار أحد المتاجر صوراً لجون كنيدي إلى جانب صور للإمام علي، الإمام الأول لدى المسلمين الشيعة. ورأيت مجموعة من الصبية الذين يرتدون قمصان فريق كرة القدم الوكني الإيراني الحمراء والخضراء والبيضاء ويمضون مسرعين.

مررت قرب السفارة البريطانية ودخلت شارع بوبي ساندز، أسمي باسم أحد قادة الجيش الجمهوري الأيرلندي الذي تحدّي البريطانيين (البريطانيون لا يزالون يثيرون غضب الكثير من الإيرانيين). ومررت بسوق للفاكهة، ومبنى البرلمان ذي الأعمدة البيضاء وحديقته المليئة بالأزهار، ثم أصبحت أمام السفارة الأميركية. كانت الشعارات تملأ الجدران. "الشيطان الأكبر"، و"الشرّ المطلق". وكانت هناك لوحة على مدخل السفارة كتب عليها، "وكر الجواسيس"..

أخيراً لاحت المصحة. صار اسمها الآن أرام باغ "الحديقة الساكنة". كان هناك رجل قوي البنية ذو شاربين سوداوين معقوفين واقفاً عند الباب.

أقنعته بالسماح لي بالدخول. كان الفناء خالياً، كما كان عندما مررت من هناك أنا وباري. استنتجت بالحكم على الهدوء أنّ المرضى يبقون في الداخل في هذا الوقت، ربما لإجراء بعض الاختبارات أو تناول الدواء أو لكي يفحصهم الأطباء.

دخلت قاعة الاستقبال، وبعد أن شرحت لموظفة الاستقبال سبب وجودي، قادتني إلى إحدى الممرّضات. كانت ترتدي غطاء رأس كحلي وزياً أبيض، وتجلس قرب إحدى النوافذ وهي تحوك الصوف. قدّمت نفسي، وأخبرتني أنّ اسمها شيرين.

قالت عندما جلست على كرسي مواجهاً لها، "أذكر باري بالطبع. كنا صديقتين. أخرجتها عدة مرات للغداء في الخارج. كانت تعاني من الاكتئاب فحسب، لا من شيء خطير. وكانت مريضة تضفي البهجة حولها. وقد أخرجتنا بخيالها الجامح من رتابة الحياة".

"نعم كانت قادرة على ذلك. لكنّها رحلت عن هذه الدنيا".

قالت شيرين، "ماتت؟ إنّني آسفة لسماع ذلك. كيف"؟

أخبرتها عن الحادثة.

قالت شيرين، "ذلك محزن جداً، لا أستطيع أن أصدّق ذلك".

سألتها، "هل كانت مكتئبة لدرجة تدفعها إلى الانتحار"؟

"لا أعتقد أنّها يمكن أن تفعل ذلك بنفسها شيئاً كذلك. كانت مليئة بالحياة على الرغم من كل شيء".

"أدخلها زوجها المصحة قبل بضع سنوات أيضاً. هل تعتقدين... أعني هل كان تصرّفه مبرّراً"؟

"لم يكن طبيبها النفسي يعتقد ذلك، في المرة الأخيرة على أي حال. ولذلك سمح لها بالخروج".

"سمحوا لها بالخروج بسرعة في المرة الأولى أيضاً. هل يمكنني أن أتحدّث إلى طبيبها"؟

"الأطباء في جولة، وهو ليس موجوداً الآن. لكن ثمة طبيب نفسي شاب رأى باري عدة مرات وهو لا يزال هنا".

كانت شيرين ذاتية التعلّم، وهي تمضي عدة ساعات في قراءة الكتب كل يوم، كل ما تقع عليه يدها، وتستمع إلى إذاعة تعليمية تنقطع أحياناً عن

البثّ بسبب الرقابة. رفضت عدداً من الخطّاب، فمعظم الرجال لا يعجبونها. تعيش مع ابن أختها في شقة فاخرة في شمال طهران. فهو مشلول الساقين بسبب إصابته بشلل الأطفال، ووالداه متوفيان. قبل أن تتوفّى والدته توسّلت إلى شيرين لكي ترعاه. وضعت بعض المال باسم شيرين وقالت إنّ بوسعها العيش معه في تلك الشقة الفاخرة. وأصبحت حياة شيرين أفضل الآن، فراتبها منخفض جداً. كما أنّ رعاية ابن اختها الذي تحبّه تشعرها بالرضا.

في تلك اللحظة ركضت إحدى المريضات في القاعة وهي تصيح، "ماء، ماء"، فأسرعت شيرين إلى مساعدتها. وعندما عادت، استأنفنا الحديث. طرحت عليها مزيداً من الأسئلة عن باري، وسألتني عن الحياة في أميركا.

اخترق اصوات السعال والضحك الهستيري وأنين البؤس صمت القاعة. أسرعت امرأة في متوسّط العمر ترتدي معطف المستشفى البيج. كان وجهها ملطّخاً بمادة حمراء وهي تقول، "رهيب، رهيب".

ظهرت عدة ممرّضات، وأخذت إحداهن المرأة من ذراعها وقادتها بعيداً. ومرّت أخريات يحملن موازين الحرارة وقوارير دم وقناني أدوية ومحاقن.

عندما عاد الهدوء ثانية، قالت شيرين، "هل كان هناك أي رسالة"؟

"لا، لم تترك باري رسالة انتحار أو أي شيء".

هزّت رأسها ولم تقل شيئاً آخر.

كان الدكتور حجازي، طبيب باري النفسي، شاباً تبدو عليه الكآبة. بدا مكتبه عادياً بدون أي لمسات شخصية، ولم ينظر إلي عندما جلست أمامه.

قال لي بحدّة، "إذا كنت تعرفين الكثير عن الطبّ، لمَ لا أعطيك معطفي كطبيب"؟

قلت والدم يكاد ينفر من وجهي، "تتحدّث إلي هكذا لأنّني امرأة. لن تقول شيئاً كهذا إلى رجل".

"ما أكرهه بشأن الإيرانيات اللواتي يعشن في أميركا أنّهن يلتقطن هذا الكلام السخيف".

"يمكنك أن تخبرني على الأقل ما الدواء الذي كانت تتناوله"؟

"ليثيوم لتهدئتها".

"أليس هذا ما يعطى لمن يعانون من حالة فصام"؟

قال وأومأ بيده رافضاً ما قلت، "نعطيه لمشاكل أخرى أيضاً. ما كانت لتوجد هنا لو لم تكن تعاني من مشاكل".

نهضت وغادرت الغرفة. شعرت أنّ المقابلة غير حقيقية، كأنّها كابوس. وتذكّرت أنّني تحدّثت إلى صيدلي قرب منزل مريم ذات مرة عن دواء كنت آخذه لحميدة، إحدى المستأجرات. التفت إلى شريكه وقال راسماً ابتسامة سخرية على وجهه، "انظر إلى هذه الفتاة التي تطرح هذه الأسئلة". شعرت بالاستياء أياماً بعد ذلك.

عندما دخلت الفناء، نهضت مريضة جالسة على المقعد وتقدّمت نحوي. أعطتني قطعة ورق مطوية وذهبت.

فتحت الورقة وقرأت، أرجوك أن تخرجيني من هنا.

وفيما واصلت سيري نحو البوابة، تقدّمت مريضة أخرى وصاحت، "أخرجوني من هنا. ماذا فعلت لأعاقب هكذا؟ أخرجوني من هنا، اخرجوني من هنا".

انضمّت إليها امرأة أخرى، "أريد الموت، دعوني أموت".

الفصل التاسع والثلاثون

في مدخل المقبرة توجد منحوتة عملاقة ليدين عملاقتين تحملان زهرة توليب حمراء. كان بوسعي من بعيد أن أرى القبة الذهبية ومآذن أحد المساجد. ظهر الباعة يحملون باقات من الأزهار أو أزهاراً منفردة إلى الأشخاص الذين يعبرون بالسيارات أو مشياً على الأقدام. أوقفت فتاة صغيرة واشتريت منها باقة، ثم توجّهت إلى مقصورة قرب المدخل وسألت رجلاً في الداخل عن التوجيهات. توجّه إلى غرفة صغيرة ثم عاد بعد لحظات وأخبرني أين يوجد قبر باري بالضبط.

مشيت عبر مشارات تحفّ بها الأشجار، ومررت بأشخاص جالسين على بطانيات في ظل الأشجار. كانت صواني الحلوى والفاكهة الملفوفة بالنايلون والمربوطة بأشرطة سوداء موضوعة لتوزّع في ذكرى أحبائهم. اقتربت منهم متسوّلة ترتدي شادوراً أسود أغبر، تحمل طفلاً نائماً بيد، وتمدّ يدها الأخرى.

أخيراً مررت بصفّ من شواهد القبور الرخامية التي حفر عليها أقوال مثل، "أبواب الجنة مفتوحة"، و"مأواك الجنة". ولاحظت امرأتين راكعتين إلى جانب قبر وتنظران إلى صور فوتوغرافية لشاب موضوعة في علبة بلاستيكية مثبتة إلى عمود قرب الحجر.

قالت إحدى المرأتين، "أنت في الجنة بسلام. نحن الفانون هم الذين يعانون".

قدم رجل دين ملتح يرتدي جبّة بنية وقميصاً أبيض نحو المرأتين وقال، "لقد خدم وطنه جيداً، وخلّف ثلاثة أبناء وابنة. لقد أحبّ بلده ودينه وعائلته".

دخلت قطعة أرض خالية من شواهد القبور، هنا مدفن الأشخاص الذين أعدمهم النظام الجديد. إنّ مرأى كل الموتى في هذه المقبرة الواسعة، بعضهم قُتل في الثورة، وبعضهم أعدم، وتوفي البقية لأسباب معتادة، لم يجعل وفاة باري عادية أو يسهّل عليّ احتمالها.

أخيراً وصلت إلى المسار الذي يوجد فيه قبرها. كانت الشجرة التي زرعها منصور تظلّل القبر. وقد نقشت حمامتان على حجر أفقي. ونقش تحت الحمامتين:

باري محرمي: 1942 ـ 1981، أمّ وأخت وابنة محبوبة.

فيما كنت أضع الأزهار على الحجر، أنكر عقلي أنّ باري ميتة. قلت لباري، "هذا المكان ليس لك. أخرجي، أنا هنا لرؤيتك". على الرغم من علمي بأنّني نطقت الكلمات، فقد دُهشت عندما سمعت صوتي.

ظهر صبي مراهق وعرض أن يغسل القبر. وتلا فيما يؤدي عمله:

أيتها المرأة الجميلة،

سيحمل ملكان روحك إلى السماء

يا مثال النقاء، ستدخلين الجنة عما قريب

حيث ينتظرك مقعد مكلّل بالأزهار تحت الأشجار الظليلة.

دفعت له بسخاء، بعد أن طلب القليل.

قدم رجل يرتدي قبعة وطلب أن يدعو للميت، أومأت بالإيجاب. فجلس القرفصاء قرب القبر وأغمض عينيه وتلا سورة من القرآن.

عندما فرغ، أخذ أحد الطيور يقفز على القبر ثم طار مبتعداً، وحلّق عالياً إلى أن ابتلعته السماء المشمسة. قال الرجل بحكم الأمر الواقع، "هذه روحها. إذا كان طائراً فذلك يعني أنّها في الجنة؛ وبخلاف ذلك تظهر ذبابة".

بعد أن غادر الرجل، غرقت في حالة من الذهول. ثم لاحظت رجلاً يحدّق بي، بدا شكله مألوفاً. أفقت من الحالة التي كنت غارقة فيها عندما أدركت أنّه مجيد. أجل مجيد، الرجل الذي ظل يسكن قلب باري فترة طويلة، ثم حطّمها. لم يتغيّر كثيراً عما كان عليه عندما شاهدته في المنتزه في

الأهواز وأعطاني رسالة إلى باري. وخطت شعره بعض الخصل البيضاء، وتجعّد جبينه العريض قليلاً، وانحنى كتفاه بعض الشيء. كان يرتدي سترة صوفية من التويد على بنطلون جينز، على نسق الأساتذة الأميركيين.

عرفني أيضاً وقال، "ناهيد، أنت هنا".

أتعرفين يا ناهيد، ما حدث مع مجيد أضعفني.

"آتي إلى قبرها كلما جئت إلى طهران. إنّني أفتقدها كثيراً. لم أعد الشخص نفسه بدونها". أعادتني كلماته إلى الحاضر.

قلت وبدأت أسير مبتعدة عنه، "لقد أحزنها بعض ما قلت وفعلت".

قال بعد أن وضع باقة الأزهار التي كان يحملها على قبرها وتبعني، "أرجوك، لا تبتعدي. أريد التحدّث إليك". عندما أدركني وأنا في منتصف الطريق إلى البوابة، كان وجهه رطباً من آثار الدموع. بدا مختلفاً جداً عن الرجل الواثق المبتهج.

حاولت السيطرة على غضبي. وقرّرت التحدّث إليه وسماع ما لديه.

قال، "سآخذك إلى مقهى لا تراقبه 'شرطة الأخلاق'.

سرنا نحو سيارته الشيفروليه القديمة. وعندما بدأ يقودها عبر الطرق الخلفية الملتوية، حاولت تقييمه من وجهة نظر باري. هذا هو الرجل الذي رفعها إلى القمم وهوى بها إلى الحضيض.

في المقهى، قادني مجيد إلى ركن خلفي هادئ. كانت الجدران مغطاة بملصقات عن مشاهد تاريخية، ومئذنة في أصفهان، وحديقة في شيراز. كان يوجد في الزوايا مصابيح نحاسية وبدت صورة الخميني الإلزامية على أحد الجدران. كان يوجد على الطاولات الأخرى أزواج أو رجال منفردون أو مجموعات من الرجال، بعضهم يدخّنون النارجيلة، وبعضهم يشرب الشاي.

قال مجيد، "كنت فتاة خجولة متوتّرة. وتحوّلت إلى امرأة واثقة. لا بد أنّ أميركا ناسبتك".

سألت، "متى شاهدت باري آخر مرة"؟

"شاهدتها مؤخّراً مرة واحدة بطلب منها. تركت رسالة لي مع صديق قالت إنّها تريد أن تخبرني شيئاً. لكن عندما تقابلنا، بدت متحفّظة ولم نصل قطّ إلى ما كانت تريد أن تقول. أردت أن نستأنف علاقتنا ثانية لكنّها أخبرتني صراحة أنّ كل شيء بيننا قد مات. فقد انطفأ الشرر الذي أملت باستعادته برؤيتي ثانية تحت الرماد. كان لقاء حزيناً". تحدّث همساً، وهو يدرك كيف كان الناس في ظل نظام الشاه. "الأمر ليس سهلاً على أحد هنا، رجالاً ونساء. قاتلنا جميعاً من أجل الحرية، وأوقعتنا في أشهر طويلة من الخراب، وما الذي حصلنا عليه"؟

دخلت في حالة من الحلم في اليقظة وجدتني فيها باري تتحدّث إلى مجيد، "كانت هناك رسالتك إلى زوجتك...".

"كان ذلك أمراً مشؤوماً. فقد أبلغ أحدهم زوجتي مهناز أنّني أقابل باري. وأنا واثق أنّ زوج باري السابق يقف وراء ذلك. لا أعرف ماذا كان يريد من باري، فقد أخذ كل ما يريد".

"أتذكر تلك الرسالة التي أعطيتها لي في الأهواز؟ لقد شجّعتها فيها على ترك زوجها".

قال، "نعم، لماذا لم يكن مسموحاً لنا بأن نتبع أعمق رغباتنا الفردية"؟

قلت، "لكنك يا مجيد لم تكن راغباً في ترك زوجتك".

"لدي أطفال".

"إذاً باري على حقّ بشأن عدم موافقتك على تركها ابنها".

"كانت تحمّل ما أقول أي معنى تريد. قلت ما قلته وفعلت ما فعلت من أجل مصلحتها، لكن أودّ لو أنّني تجنّبت تلك الموضوعات. وكم أتمنى لو تمكّنا من اتباع رغباتنا قبل سنوات. بعد أن فقدت الأمل، استسلمت لضغوط العائلة وتزوّجت مهناز. وكنت أحاول أن أفعل أفضل ما يمكنني في زواجي".

"قالت باري إنّها تتمنّى لو كان بوسعها تحطيم حياتها ثم إعادة جمع أجزائها بشكل مختلف".

"أشعر أنا كذلك، لم تكن الأمور سهلة عليّ".

دخل بعض الرجال وأخذوا ينظرون حولهم كأنّما يرصدون الناس. فأسرعت النساء اللواتي تركن النقاب أو الشادور ينحسر عن رؤوسهن إلى تقديمه إلى الأمام، وحرصت على أن يكون نقابي في مكانه.

همس مجيد، "ظننت أنّهم لا يظهرون هنا، لكنّهم يأتون. يجدر بنا الذهاب قبل أن يأتوا ويسألوا عن العلاقة بيننا".

خرجنا مسرعين، وأوصلني إلى الفندق.

قال، "كلانا حزين مفجوع لما حدث لباري".

عند مدخل الفندق، قال مجيد إنّه يتمنّى لو كان بوسعنا التحدّث أكثر. لكنّنا لم نخطّط للالتقاء ثانية. اعتقدت أنّه ما من كلمات تمحو الأشياء أو تجعلها مختلفة. ويبدو أنّه شعر بالشيء نفسه.

في سكون غرفتي، فكّرت كيف قال وفعل مجيد ومنصور أموراً اعتقدوا أنّها لصالح باري.

ذات صباح توجّهت إلى الحي الذي تسكن فيه مريم، لقد أصبح الآن أقرب في جوّه إلى ما تبقى من طهران، حيث يوجد الكثير من المساجد وكل النساء متحجّبات. كان هناك أعمال إنشاء في خانات أباد، لذا أغلق زقاق الحاج عباس. سألت أحد عمال البناء متى سينتهي العمل. قال إنّه لا يعرف على وجه التحديد. أجبر الساكنون على الرحيل والإقامة في مكان آخر إلى أن تنتهي أعمال الإنشاء.

راودتني ذكرى آخر صيف قضيته مع مريم. حثّت مريم شقيقاتها على قضاء إجازة معاً. سمعتها تقول لأختها خديجة، "إنّني بحاجة إلى الابتعاد للراحة". أخذت الأخوات الثلاث الأطفال معهن في إجازة لمدة ثلاثة أسابيع إلى فرح زار، وهي قرية على بعد ساعتين بالسيارة من طهران. كانت خديجة أرملة في ذلك الوقت؛ وكان زوج رقية مشغولاً عن الذهاب معنا، لكنّه وافق على ذهاب عائلته في رحلة طويلة مستحقّة. استخدمت الأخوات رجلاً لنقلنا

إلى فرح زار في شاحنة. ملأنا الشاحنة بصرر الثياب والملاءات والمناشف وأدوات الطهي. جلسنا على البسط التي تغطي مكان الشحن وأخذنا نختلس النظر إلى الطرقات من بين القضبان. وأخذت الخالات يدعين لكي تتم الرحلة بسلام.

عندما وصلنا إلى فرح زار تغدّينا في مطعم حديقة الساحة الرئيسية، ثم استأجرنا الحمير لنقل حاجياتنا. فقد كانت الطرق ضيّقة جداً لا تستطيع السيارة عبورها أو حتى الحصان. بعد نحو نصف ساعة وصلنا إلى أعلى تلة حيث نصبت خيام مصنوعة من شبك درء البعوض ليستأجرها الناس. كانت الأشجار المليئة بالفاكهة تغطي قسماً واسعاً من المكان. وثمة جدول متعرّج فيها، ويفضي إلى بحيرة زرقاء. وكانت هناك خراف وماعز ترعى في المراعي في أسفل التلّ، ووراء المراعي توجد حقول مليئة بالجنبات والخزامى والبرتقال والأزهار الزرقاء والحمراء. بدأنا نرتّب حاجياتنا في الخيم. أخذت خالتي خديجة خيمة، تقاسم أولادها الثلاثة خيمة أخرى. وأخذت خالتي رقية وبناتها الأربع خيمة واحدة كبيرة، وتقاسمت أنا ومريم خيمة واحدة. بدأت الخالات وبنتا خالتي الكبيرتان القيام بالأعمال المنزلية، في حين توجّه ابنا خالتي الكبيران إلى الساحة لشراء مكوّنات الطعام. وعادا بعد ساعات. قالا إنّهما اشتريا المكوّنات من باعة مختلفين: اللحم من اللحام، والأعشاب الطازجة من فلاح يزرعها في حديقته ويقطفها عند الطلب، والحليب من مزارع آخر (شربناه بعد غليه لتعقيمه)، والجبن من بائع آخر.

في الليل مشينا أنا وبنات خالتي في الدروب الضيقة المضاءة بمصابيح الغاز. ظهرت نجوم عديدة في السماء حتى بدا لنا أنّ بوسعنا لمسها. مشينا إلى الساحة التي كانت تعجّ بالناس، واشترينا البيقان الطازج الذي أخرجه البائع من الماء المالح والذرة المشوية على الفحم وغمسناه في الماء المالح. أكلناها ونحن جالسات على مقعد وأخذنا نراقب الناس المارين ونختلق القصص عنهم.

كنت أنا وزهرة، وهي في مثل سني، نخرج بمفردنا في بعض الأيام، ونستكشف التلال والأودية والبساتين. كان يحيط بكل شيء غموض جو القرية اللذيذ. كان بوسعنا أن نرى عبر أبواب الحظائر المفتوحة النساء وهن

يحلبن البقر. وفي بعض الدكاكين كانت النساء يجلسن على الأرض ويحكن الكنزات بخيوط صوفية ملوّنة مجزوزة من خرفانهم. وكنا نراقب ما يجري في البيوت من خلف الستائر المخرّمة التي تغطي نوافذها. وفي طريق العودة نقطف الأزهار البرية.

كانت الحياة مليئة بالمرح في ذلك الوقت، لكن بالرجوع إلى الوراء إلى تلك الرحلة الآن، بدا لي أنّ مريم كانت قلقة. كانت تتحدّث إلى شقيقاتها همساً، وتتوقّف عن الكلام عندما أدخل عليهن. وفي الليلة الأخيرة من إجازتنا، استيقظت فوجدتها تتقلّب في فراشها.

سألتها، "ما الأمر"؟

قالت، "لا شيء. نامي يا عزيزتي".

"أخبريني ما الذي يجري".

"لا شيء، إنّه مجرّد التواجد في مكان جديد. عودي إلى النوم الآن. في الليل يبدو كل شيء مظلماً".

بعد بضعة أسابيع، جاء والدي وأخذني.

الفصل الأربعون

عندما كنت أهمّ بمغادرة الفندق، ناولني موظف في الفندق ملفاً كبيراً. قال إنّ رجلاً تركه لي في الصباح الباكر.

انتظرت حتى ركبت سيارة الأجرة قبل أن أفتحه. كان مليئاً بالرسائل والصور. وكان هناك أيضاً ملاحظة من منصور مفادها أنّه يعتقد بأنّني أرغب في الحصول عليها.

لم أواجه أي مشكلة في مغادرة البلد. إذ يبدو أنّ شاغلهم الرئيسي احترام الحجاب بالشكل الصحيح.

تفحّصت على متن الطائرة محتويات المغلّف بعناية. وجدت بطاقة بريدية موجّهة إليّ، بطاقة لم ترسلها لسبب ما.

عزيزتي ناهيد، أرجو أن تكوني بخير... سأعود إلى البيت عما قريب... قبل بضعة أيام أخذتني إحدى الممرّضات اللواتي يعملن هنا إلى الخارج للغداء في فندق صحارى... كان يوماً رائعاً...

تخيّلتها وهي تكتب البطاقة البريدية في المصحّة. حدّقت بي المرأة الإيرانية الجالسة بقربي.

عندئذ لم أعد أطيق تفحّص ما يوجد في المغلّف. فأنا بحاجة إلى الاختلاء بنفسي.

في أثناء انتظار طائرتي الأخرى في مطار أمستردام، تفحّصت المغلّف ثانية. دهشت عندما وجدت رسالة من بيجان إلى باري.

أمي، إنّني أبحث عنك منذ مدة طويلة الآن. وأرجو أن تصلك هذه الرسالة. فقد عادت الكثير من الرسائل الأخرى التي أرسلتها. ربما لم يكن

العنوان صحيحاً... أريد أن أراك في أول فرصة. مضت سنوات منذ أن رأيتك آخر مرة وسمعت صوتك، ما زلت أتذكر كل شيء عنك. أمي، لم أرد الانفصال عنك البتة، حتى عندما تصرّفت بجفاء معك عندما جئت إلى المدرسة لرؤيتي. لقد أمرني أبي بذلك، وكنت حزيناً جداً لأنك تركتني. الآن أدركت تماماً أنّه كان لديك أسباب وجيهة لكي تتركيني. إنّني سعيد لأنك تمكّنت من الهرب من الحبس الذي فرضه والدي عليك.

لديَّ إحساس عميق بأنّني سأتمكّن من الاجتماع بك ثانية. وعندئذ لن أدع أحداً يفصلني عنك. لن يحول أحد ثانية دون أن أكون ابنك. ليس لديَّ صور حديثة لك، لكنّني سرقت واحدة تجمعنا معاً من أبي قبل فترة طويلة. كنت تحملينني في حضنك وتنظرين إلى وجهي بمحبة. كنت تبدين كأنك تتحدّثين معي، وتروين لي القصص. كانت عيناك واسعتين ولطيفتين، وصوتك العذب يصلني منذ سنين. ما زلت أشم روائح الكريم والشامبو الذي كنت تستخدمينه. هنا في المدرسة الداخلية البعيدة في إسكس حيث أوجد منذ سنتين، لا أزال أشعر بوجودك معي. لقد أرسلني والدي إلى هنا على أمل أن أتماسك. كنت قد تركت المدرسة وأمضيت وقتي بطريقة معاندة، وتناولت المخدّرات. عندما قدمت إلى هنا واجهت أوقاتاً صعبة أيضاً وكنت على وشك أن أطرد عندما توسّل والدي الهيئة التعليمية في المدرسة لمنحي فرصة أخرى. أخيراً استعدت رباطة جأشي وتماسكت. لكنّني لن أشعر بالراحة إلى أن أجتمع معك.

لم أعد طفلاً لكن حاجتي إليك كحاجة طفل صغير. لم يتمكّن أبي البتة من تدمير حبي لك. بل إنه نما في داخلي وأزهر. في فجر حياتي كنت كل شيء بالنسبة إلي. ثم جاء الكسوف. لكنك كنت في خيالاتي وأحلامي. وفي آخر أحلامي عنك، كنت طفلاً وأنت تحملينني بين يديك، وتأخذينني إلى مكان ما. كنا نسير داخل نفق طويل وضيّق وساطع الإضاءة. عندما استيقظت كنت أشعر بالأمل. وها أنا أرفق أحدث صورة لي.

ابنك المحبّ، بيجان

بحثت عن الصورة لكنني وجدت بدلاً منها ملاحظة من منصور تقول، "جاءت الرسالة متأخّرة، بعد الحادثة".

وضعت الرسالة في المظروف وأخرجت صورة لباري. كتبت على ظهرها، "إلى شقيقتي العزيزة ناهيد".

كانت ترتدي فستاناً أسود ويبدو على وجهها تعبير كئيب.

أخرجت رسالة من باري. كانت مكوّنة من سطر واحد.

ناهيد... عليّ أن أتحدّث إليك... عن الألم... عن بؤسي...

في نيويورك حاولت أن أبعد عني الأفكار والمشاعر السوداء بشغل نفسي في جوانب حياة الأكثر استقراراً وجلباً للسعادة ـ الاهتمام باحتياجات ابنتي التي تكبر، والتعليم وارتياد السينما والمسرحيات والحفلات الموسيقية مع زوجي، ومحاولة الكتابة. لكن فقد باري وعدم معرفتي ما حدث بالفعل بقي بمثابة ثقب داكن في وجودي.

أردت أن أتعقّب مكان بيجان، وأتحدّث إليه، وأدعوه لزيارتي أو أتوجّه إلى إنكلترا لرؤيته. كتبت إلى منصور على عنوان مكتبه لأعرف إذا كان لديه عنوان بيجان. فردّ بأنّه لم يتمكّن من إيجاد مظروف رسالة بيجان واعتذر لأنّه لم يولِهِ العناية اللازمة. وقال إنّه كان مضطرباً عند جمع حاجيات باري. وأضاف بأنّه احتفظ بما بقي من ثيابها ومجوهراتها وأنّه سيعطيها لي عندما أعود إلى إيران في المرة التالية.

حاولت العثور على بيجان عبر مدرسته الداخلية في أسكس، لكن المدير أبلغني أنّه لم يعد هناك وليس لديهم عنوان يمرّرون إليه الرسائل. سألت عن عنوان والده وأبلغت بأنّ التعليمات تقضي بإبقاء المعلومات سرية.

مضت السنوات وتواصل احتدام الحرب بين إيران والعراق. وتغيّرت خطوط الجبهة عبر الأهواز وعبادان، وعرفت أنّ بيتنا دُمّر لا محالة. بقيت منشغلة بشأن مانيجة الآن. هل غادرت عبادان هي وجواد قبل بداية الحرب؟ وبقي حواري بشأنها مع باري في طهران يدور في ذهني. فقد أخبرتني باري بأنّ مانيجة تعاني من مشاكل.

بدأت أكتب رواية عنها اسمها "متزوّجة من غريب". وغيّرت اسمها إلى مينو.

... كانت مينو ستتزوّج في اليوم التالي. بدت عليها الإثارة وهي تفكّر في ذلك. كيف يمكنها أن تتزوّجه وتعيش معه إلى الأبد، يوماً بعد يوم، عندما كان بعيد المنال، كأنّه خيال قبل فترة وجيزة. كان مستقبلها يفتقر إلى الشكل، امتداداً من الأيام غير المحدّدة. وقد تغيّر كل شيء في غضون أسابيع.

في الرواية القصصية كان زوج مينو يقيم علاقة غرامية مع امرأة تشتبه بحبه لها. وذات يوم تضبطهما في الفراش معاً وتتركه. وتتوجّه إلى أميركا لتتابع دراستها.

نشرت رواية "متزوّجة من غريب" في سنة 1983. وكانت فرحتي ناقصة لأنّ باري لم تكن موجودة لأشاطرها الأخبار.

كانت الحرب التي استمرّت ثماني سنوات واحدة من أشدّ الحروب دموية في القرن العشرين. بل مأساة إنسانية مدمّرة. قُتل أكثر من مليون نسمة في كل جانب. وأخيراً في آب/أغسطس 1988، توصّلت إيران والعراق إلى وقف لإطلاق النار. بعد مفاوضات مكثّفة بين الأمين العام للأمم المتحدة ووزيري الخارجية، قبل البلدان قرار الأمم المتحدة.

قرّرت السفر إلى إيران ثانية، لرؤية مريم هذه المرة، بعد أن عادت إلى هناك. على الرغم من الالتواءات والانعطافات السياسية، كان لا يزال من السهل على الإيراني الذي لديه جنسية مزدوجة للسفر والعودة بدون مشاكل.

كانت الطائرة مليئة بالإيرانيين العائدين إلى الوطن والاجتماع مع أحبّائهم أو إيجاد وظائف في مشاريع إعادة الإعمار في المناطق التي دمّرتها الحرب. بعضهم كان عائداً إلى بيوتهم المهدّمة على أمل إنقاذ المقتنيات الثمينة للعائلات تحت الأنقاض - مجوهرات أو صندوق مليء بمتعلّقات قديمة.

من نافذة سيارة الأجرة التي نقلتني إلى بيت مريم، كان بوسعي أن

أرى الدمار الذي خلّفته الحرب. كانت النوافذ المحطّمة والمباني المدمّرة جزئياً في كل مكان. شاهدت رايات سوداء معلّقة فوق أبواب بعض المنازل ما يشير إلى أنّ أحد أعضاء العائلة قُتل في الحرب. وفي العديد من الأماكن، كان هناك جنود جالسين على مقاعد وإلى جانبهم العكاكيز.

عندما اقتربت من خانات أباد، كان الكنّاسون ينظفون الطرقات. كان صباحاً بارداً وبائع الشمندر يرتّب بسطته، وأصحاب الدكاكين يغسلون الأرض أمام متاجرهم.

كانت مريم تجلس القرفصاء قرب باب بيتها، مرتدية الشادور بانتظاري، كما كانت عندما أحضرتني جدتي إليها وأنا طفلة رضيعة. نهضت وعانقتني بشدّة وقبّلتني. مضت عدة سنوات منذ أن زارتني في كمبريدج. عندما عدت إلى الزقاق الذي نشأت فيه، وأنا بين ذراعي مريم أشتمّ رائحة ماء الورد، أحسست كما لو أنّ الزمن بقي ثابتاً منذ أن كنا نعيش معاً. كانت أشجار الخوخ والكرز لا تزال في مواقعها. كما أنّ النافذة المشبّكة على الدور السفلي، والزجاج الملوّن كانت سليمة. في غرفة الجلوس، كان السماور يطلق شرراً. تذكّرت الطقس اليومي المريح الذي دأبت عليه مريم بشرب الشاي مع النساء الأخريات فيما كنت أنا وأبناء وبنات خالاتي نلعب في الجوار. وكان قرب السمار علبة معدنية، ربما تلك التي كنت أستخدمها لري المزروعات في الفناء. لعلي كنت هنا طيلة تلك السنين.

قدّمت مريم الشاي والمعجّنات والفاكهة فيما كنا نتحدّث. كانت محترم في الأهواز، وهي من أوائل المدن التي أعيد إنشاؤها بعدما انتهت الحرب بسبب حقول النفط. توجّهت إلى هناك لتشرف على ما يمكن أن ينقذ من بيتنا المقصوف وبيع بعض العقارات التي تمتلكها في المنطقة. وتوفي زوج مانيجة في ظروف غامضة، وتزوّجت ثانية وأنجبت طفلين، لكن مريم لا تعرف أين تعيش. وغادرت خالاتي وأبنائهما وبناتهما إلى القرى الجبلية ولم يعودوا إلى طهران بعد.

لم تكن حياة مريم مختلفة كثيراً تحت النظام الجديد، كما أبلغتني، إذ بقي حيها دون تغيير ولم تسقط عليه القنابل. كانت تحافظ على نمط حياتها

اليومي نفسه بالتفاعل مع النساء، وبعضهن من الحي، والمستأجرون الجدد عندها. كان هناك زوجان شابان يعيشان في الغرف التي شغلتها عزت سادات في الماضي. قاتل الزوج في الحرب، وجرح عدة مرات، وأرسل أخيراً إلى بيته. كان رجلاً لطيفاً يقدّم يد العون إلى مريم كلما احتاجت إلى مساعدة في إصلاح شيء. وكانت المستأجرة الأخرى أرملة تعيش بمفردها. أخبرتني مريم أنّ حمدية ماتت قبل سنوات، وأنّ عزت سادات توفيت من "الصدمة والحزن" عندما أعدم ابن شقيقتها في أثناء حكم الشاه.

كان من السهل باعتقادي إرجاع كثير من الأشياء إلى "الصدمة والحزن" بالنظر إلى الكوارث التي حلّت بالشعب.

سألت مريم مندهشة من الحادث الذي أصاب باري، "كيف يمكن أن تسقط عن الدرج؟ كانت فتاة رائعة، لكن قدرها وقف لها بالمرصاد".

بعد قليل نهضت وتجوّلت بين الغرف. في غرفتي السابقة وجدت المهد الذي احتفظت به مريم في الدور السفلي بعد أن كبرت عليه. كان يضم قبة مخرّمة ووسائد حماية سميكة من قماش حريري أخضر فاتح مزيّن بأوراق الشجر. وإلى جانبه يوجد دمية كبيرة ترتدي فستاناً طويلاً من الساتان الأزرق ويحيط بشعرها شريط أزرق. كانت دميتي منذ الطفولة. حملتها بين ذراعيّ وهززتها كما كنت أفعل طفلة.

كنت أستيقظ كل يوم على أشعة الشمس المتلألئة المتدفّقة داخل الغرفة، وعلى مشاهد الأشجار والشجيرات في الفناء، وصوت مريم وهي تصلي، وأشعر بالصفاء كما لو أنّني خالية من المشاغل في العالم وأعيش حياتي لحظة بلحظة.

تحطّم إحساسي بالصفاء عندما زرت أصدقاء باري وشعرت بأنّ غيابها حقيقي. كنّ مشغولات بمشاكلهن وخسائرهن، لكن التنهدّات والصمت ساد عندما ذكر اسم باري.

لم أستطع العثور على مصفّفة الشعر التي التقيت بها في زيارتي الأخيرة. فقد أصبح البيت الذي يوجد فيه الصالون مقرّ مدرسة دينية للأطفال

الآن. كنت آمل أن يتمكّن ابن عمها الذي يعرف طاهري من إيجاد مكان بيجان. لكن زهرة أخبرتني أن منصور تزوّج وغادر طهران، نقلته الشركة التي يعمل فيها، لكنّها لا تعرف إلى أين.

عندما زرت قبر باري، أملت أن ألتقي بمجيد هناك، لكن لم أصادف مثل ذلك الحظ للأسف. شعرت بالخسارة، كأنّ باري تريد أن تراه ثانية، وتعطيه فرصة أخرى.

ذات صباح توجّهت إلى أحد المكاتب لأترك جواز سفري "للمعاينة". وسيعاد إلي في المطار عندما أغادر إيران. كان هذا القانون يطبّق على كل الإيرانيين القادمين والخارجين، كجزء من الإجراءات الأمنية في أثناء نظام الشاه وها هو يتواصل الآن.

عدت إلى بيت مريم في وقت القيلولة. كان بوسعي أن أشمّ في الزقاق رائحة الزعفران والكركم والليمون المجفّف. خرجت امرأة ترتدي الشادور من منزل في وسط الزقاق وسارت في اتجاهي. كانت غارقة في أفكارها وتبدو ذاهلة عما يحيط بها. عندما رأتني توقّفت فجأة.

قالت لي، "ناهيد، أنا بتول. عرفت أنّك هنا للزيارة. سمعت أمي الأخبار من مريم. وكنت أنوي القدوم لرؤيتك".

بتول هي صديقتي التي كانت معي في ملعب المدرسة عندما جاء والدي وأخذني بعيداً.

عانقتها وقبّلتها وقلت، "من المدهش أنّك عرفتني".

"ما زلت تحملين آثاراً من ناهيد الطفلة".

"وأنا أرى بعض بتول الطفلة فيك أيضاً". كان وجهها لا يزال مستديراً، وقسماتها ناعمة، لكن ثمة مسحة من قلق تظهر على تعابيرها وسلوكها، كما رأيت على وجوه كثير من الإيرانيين.

"شهدنا الكثير من السنوات الحالكة، لكن الأمور أخذت تتحسّن والحمد لله. لا بد أن من الصعب عليك أن تعيشي بعيداً جداً عن الوطن. إنّني أفتقد إلى عائلتي وهذا الحيّ كثيراً. الوطن هو الوطن، على الرغم من كل مشاكله".

الفصل الحادي والأربعون

في اليوم التالي، توجّهت إلى مدرستي الابتدائية القديمة. وجدتها في شارع ضيّق مرصوف، تحفّ به بيوت ذات قرميد أصفر تبدو جديدة. كانت المدرسة موجودة بين متجر القرطاسية القائم هناك دائماً ومتجر السكاكر. وقفت أمام المدرسة وحدّقت في ملعبها. كان الباب الخشبي الكبير المنقوش في أعلاه مفتوحاً على مصراعيه. وبوسعي أن أرى الطالبات يتجوّلن وهن يضعن أغطية الرأس.

تذكّرت اليوم الذي جاء فيه والدي وأخذني. كنت أشعر بالسعادة في تلك السنة، ربما لأنّني أحب معلمتي السيدة مدرّسي. كانت شابة ذات شعر بني طويل لامع وعينين بنيتين واسعتين. وتظهر نونتان على وجنتيها عندما تبتسم. كانت تقرأ لنا قصيدة أو بضع صفحات من قصة كل يوم. وغالباً ما كانت موضوعاتها مشبوبة بالحنين إلى ما تُرك أو ضاع. واستحضرت قسماً من قصيدة:

... *بيت شبه منسي، تغمره أشعة الشمس تارة وينعم بالظلّ تارة أخرى*...

رنّ الجرس فقطع صور تلك الأيام الطويلة وأعادني إلى الحاضر. أسرعت الطالبات إلى الصفوف، وكان بوسعي أن أسمع صوتهنّ وهن يتلين شطوراً من نصّ:

تظهر الزهور كل ربيع وتشدو العنادل بصوت بديع.

خرج رجل أشيب من المدرسة وبدأ يقلّم الأغصان اليابسة من الأشجار على جانبي الباب. أخبرته أنّني كنت أرتاد هذه المدرسة قبل العديد من السنين.

قال، "لا بد أنّك تحنين إلى الوطن، لا شيء يشبه الوطن".

كم كنت أسعد لو أمكن مزج حياتي الحاضرة مع حياتي في تلك الأيام الغابرة. ربما لن أشعر بالحطام في داخلي، والشوق، والحسد لكل من لديه اتصال سهل بالوطن والأحبّة. إنّه الثمن الذي أدفعه للاستقلال الذي قاتلت بشدّة من أجله.

عندما عدت، أعطتني مريم كدسة من الرسائل التي احتفظت بها، بعضها مني عندما كنت أعيش في الأهواز، وبعضها من محترم. قرأت الرسائل فيما كانت تصلّي.

تقول رسالة كتبتها إليها من الأهواز:

اشتقت إلى البيت. لا أريد العيش هنا. كلما عدت من المدرسة كل يوم أتوقّع أن أجدك في المنزل. إنّني بانتظارك.

ورسالة أخرى من محترم إلى مريم:

أشعر بالسعادة وأنا أعطيك إحدى بناتي. أعرف مقدار حزنك لأنك محرومة من الأطفال. أرسل معها الخاتم... تعلمين يا أختي العزيزة أنّ عليك أن تعطيها الخاتم عندما تتزوّج.

عندما توقّفت مريم عن صلواتها سألتها عن الخاتم.

قالت وهي تشير بيدها، "انظري خلف الستارة في تلك الغرفة. وجدته هناك قبل أيام وكنت أعتزم إخراجه لأعطيك إياه".

أحسست بالتردّد في صوتها كأنّ هناك شيئاً مخبّأ في الخاتم.

استأنفت الصلاة وتوجّهت إلى الغرفة. كان هناك ستارة تغطي الكوّة التي كانت مريم تضع فيها الفراش والمخدات والملاءات واللحف. كانت الستارة زرقاء غامقة عليها أزهار الربيع الصفراء، ربما تعود لقماش متخلّف من فستان. سحبت الستارة جانباً. لم يعد هناك فراش الآن، بل مفردات مختلفة ـ شمعدان نحاسي، وسجادة صلاة، ومسبحة، وعلبة. فتحت العلبة فوجدتها مليئة بالنثريات، مشط مصنوع من درع سلحفاة، ومشابك ذهبية كتلك التي كانت جدتي تضعها، ومحرمة حريرية صفراء. عندما أعدت العلبة

إلى مكانها، لمست شيئاً بيدي. كان قطعة قماش مخملية ملفوفة ومربوطة بشريط أبيض. حللت الشريط ووجدت الداخل علبة كرتونية ذهبية مزيّنة بنقوش زهرية. وفي داخل العلبة خاتم ذهبي مطعّم بكسور الألماس.

لبسته إلى جانب خاتم زواجي. فكان حجمه مناسباً تماماً. عندما فرغت مريم من الصلاة، أريتها الخاتم في إصبعي.

فكّرت في القصص التي نسجتها عن العلاقة بين محترم والصائغ.

في البداية، عندما كان يمرّ كل منهما قرب الآخر، كانا يتبادلان النظرات.

أيمكن أن يكون ذلك صحيحاً؟ كان موضوعاً محرّماً لا أستطيع البتة بحثه مع مريم أو محترم.

قالت مريم، "إنّني سعيدة لأنّك حصلت عليه الآن"، لكن بدت على وجهها مسحة حزن. "تصوّرت أنّك ستعيشين قربي عندما تتزوّجين". ثم كرّرت ما قالته عندما زارتني في كمبريدج، "لكنّ ذلك ليس قدرنا".

الخاتمة

بدأت أزور مريم بانتظام بعد ذلك. وعندما توفي الخميني في سنة 1989، لم تعد الأمور متشدّدة كما كانت في عهده. لم يطرأ أي تحسّن على العلاقات الأميركية ـ الإيرانية. وقد سمّى الرئيس بوش، في خطاب حالة الاتحاد في 29 كانون الثاني/يناير 2002، إيران إلى جانب العراق وكوريا الشمالية "محور الشرّ". ويوجد الآن، في تشرين الثاني/نوفمبر 2006، توتّر شديد بشأن الأسلحة النووية التي تصنع في إيران.

أعرف أن الأمور في إيران لم تتحوّل من الخير إلى الشر، وإنّما سيئ إلى ربما ما هو أسوأ. تحت حكم الشاه، كان الشعب محروماً من كل الحقوق تقريباً. وقد شهدت كيف فقدت شقيقتي حضانة ابنها عندما تركت زوجاً مسيئاً. وفي ولايتي رئاسة الدكتور محمد خاتمي (1997 ـ 2005)، شهدت إيران فترة من الإصلاح النسبي. ويرجع جزء من ذلك إلى أنّ خاتمي منح أعداداً كبيرة من الإيرانيين فرصة الوصول إلى الإنترنت. فصارت النساء يتردّدن على مئات مقاهي الإنترنت في المدن الكبيرة في إيران ويشتركن في المنتديات ويتعرّفن إلى أنماط حياة مختلفة. وتفوق اليوم أعداد الإناث الملتحقات بالجامعات أعداد الذكور، وكثير من الفتيات يعملن.

لكن القوانين في إيران في تغيّر دائم ويتعيّن عليّ أن أقيّم المناخ السياسي كلما زرتها. في بعض الأحيان وجدتني مضطرة إلى إخفاء جواز سفري الأميركي في بطانة ثيابي أو تركته لدى القنصلية الأميركية في اسطنبول؛ وفي أحيان أخرى تمكّنت من إظهاره دونما مشاكل. وفي بعض

الأحيان كنت بحاجة إلى رسالة من زوجي تأذن لي بالتوجّه إلى إيران، ولم أكن بحاجة إليها في أحيان أخرى.

جرياً على عادة الحياة غير المتوقّعة التي أعيشها أنا وعائلتي، وجدت في بعض الزيارات أنّ مريم ومحترم تعيشان معاً. فقد أجّرت مريم بيتها وانتقلت للعيش مع محترم وفارزين التي تطلّقت. كنّ يعشن في شقة في الدور الأخير من مبنى مكوّن من ثلاثة أدوار اشترته محترم في طهران. أثار اهتمامي كيف أنّ تلك الشقة تستوعب احتياجاتهن الفردية التي تجمع بين العناصر العصرية والقديمة. يوجد فيها مطبخ وحمام حديثان، لكنّها قائمة في ساحة ذات جدران عالية على الطريقة الإسلامية القديمة. ومن شرفتها يمكن رؤية القبّة الفيروزية لأحد المساجد. كانت مفروشة بالأرائك والطاولات والكراسي، والسجاد السميك. ويقع المبنى في شارع هادئ تحفّ به الأشجار، لكنّه لا يبعد كثيراً عن جادّة الولي أسر المزدحمة ذات المتاجر التي توجد فيها بضائع تقليدية وعصرية. كانت مريم تحب قضاء الوقت على الشرفة. قالت لي، "أشعة الشمس تلطف الألم في ركبتيّ".

لاحظت أنّ العلاقة بين محترم ومريم أوثق من علاقتهما بأي منّا نحن الأبناء. ربما خذلناهما بطريقة ما. فأنا أعيش بعيداً جداً عن مريم، محطمة آمالها بأن أشاطرها الحياة ذات يوم. ربما أصبحت فكرة القدر تجريدية بالنسبة إليها في بعض الأحيان عندما تواجه الواقع. وليس لدى شقيقيّ النية للعودة إلى الوطن. كما أنّ محترم شعرت بالألم من لوم مانيجة لها على تعاستها في زواجها الأول، وإن كان ذلك على شكل احتجاج خفيف. وتزوّجت فارزانة وأنجبت طفلتين وتعيش بعيدة خارج البلاد. أما فارزين فإنّها تعيش "في عالمها". ولم تعد باري موجودة بالطبع.

قالت لي محترم، "كانت باري، ابنتي الحبيبة الأولى، محطّ كل اهتمامي إلى أن ولدت مانيجة. لكن مانيجة كانت ضعيفة وتحتاج إلى اهتمام. فأهملت باري كثيراً". بدأت تبكي بحرقة وتجدّد حزنها. "آه يا ابنتي الحبيبة باري، لم أكن موجودة بقربك عندما كنت بحاجة إلي". كان ندمها وحزنها عميقين وحقيقيين.

بل إنّ مريم تنام بالقرب من شقيقتها على فراش في غرفة نوم محترم. وقد تبنّت محترم بعض قيم مريم، وهي تواظب على الصلاة الآن. لم يكن ذلك نتيجة ضغط من النظام بل لأنّ محترم تريد أن تكون قريبة من أختها.

في آخر زيارة إلى إيران، كانت مريم ومحترم بحاجة إلى رعاية. فقد أصبح التهاب مفاصل مريم شديداً ولا تستطيع المشي إلا بمساعدة عصا. وكانت محترم تمشي بصعوبة، دون أن يتضح سبب ذلك ـ قال الأطباء إنّ ذلك قد يكون ناتجاً عن شلل جزئي من سكتة صغرى.

من المفاجئ أنّ مانيجة انتقلت إلى الدور الثاني من مبنى محترم. فقد تطلّقت من زوجها الثاني، كان ابناها في أميركا مقيمين عند أقارب والدهما. كرّست مانيجة نفسها لرعاية محترم وفارزين ومريم. وكانت تحرص على تلبية كل حاجاتهن بسلاسة وانتظام، وتشرف على شؤونهن اليومية وتحل المشاكل عندما تطرأ. وقد وجدت عائلة، نسرين وزوجها وطفليها، لتولي الطهي والتسوّق والتنظيف، والاهتمام بالأزهار والبركة في الفناء. وفي مقابل ذلك يقيمون في الشقة في الدور الأول ويحصلون على أجر صغير. كان خادمنا القديم، علي، قد ترك منزلنا منذ سنوات ويعمل الآن في بستان تملكه أسرة زوجته.

في يوم إجازة نسرين، تقوم مانيجة بالتسوّق والطهي وتساعد أمي وخالتي وأختي في الاستحمام. كانت تخرج وتعود محمّلة بأكياس مليئة بالخضر الطازجة واللحم والخبز والمعجّنات. بدت سعيدة وهي تساعدهن. ولم أكن أتوقّع أن تكون مانيجة قادرة على تقديم كل هذا الاهتمام ونكران الذات.

كانت صور حبّ محترم القديم لمانيجة لا تزال تراودني: عندما طوّقت محترم مانيجة بذراعها وقالت، "أليست ملاكاً"؟ وعندما وضعت محترم زهرة في شعر مانيجة وقالت، "إنّها تشبه الزهرة". ومن العدل الآن، بطريقة ما، أن تكون مانيجة الآن راعية محترم.

ذات يوم أتيحت لي الفرصة لأكون بمفردي مع مانيجة. كان عصر يوم لطيف ومشمس وأنا أجلس على الشرفة.

شعرت بالضيق القديم الذي كان ينتابني عندما خرجت مانيجة إلى الشرفة وجلست على كرسي. لم نكن نتحدّث معاً إلا لماماً في هذه الزيارة.

قالت، "مضى زمن طويل وحدثت أمور كثيرة منذ تلك الأيام التي كنّا فيها في البيت معاً".

"أجل، تبدو بعيدة جداً ومع ذلك قريبة جداً. أفكّر في تلك الأيام طوال الوقت".

قالت، "ليتني تصرّفت بطريقة مختلفة عندما جئت إلى البيت. كنت أشعر بانعدام الأمان والغيرة. لم أسامح نفسي لأنّني اتهمتك بأنّك السبب وراء إقدام جواد على فسخ خطوبتنا".

ذُهلت من سماع ذلك وهززت رأسي بطريقة غامضة.

تابعت مانيجة، "الحقيقة أنّه كان مغرماً بامرأة أخرى. كان هناك أسباب كثيرة لما حدث". بدت على وجهها الذي استعاد جماله مسحة مرارة جعلتها تبدو أكبر سنّاً. وغرقت في أفكارها.

قالت بعد أن تماسكت، "لم أرَ باري منذ سنين. ليتنا كنا قادرتين على التواصل معاً".

"ليتها كانت موجودة معنا الآن".

"نعم، من الصعب تصديق ما حدث وكيف حدث، عندما كنت ألتقي بها في البيت أحياناً، كانت تبدو عليها التعاسة، وتستخدم كلمات قوية. ذات مرة بعد مناقشة مع والدي قالت قبل أن تغادر الغرفة، 'أفضل القفز عن جسر على البقاء مع طاهري'. وفي مرة أخرى قالت، 'ليتني مت'. لكنّها في أوقات أخرى كانت تبدو سعيدة. كانت مهتمة في بعض البرامج في المدرسة الثانوية. واحتفظت بأملها في أن تحصل على حضانة جزئية لبيجان، وهو ما لم يحدث بالطبع. لقد عاش كلينا في عالم من الأحلام، هي تأمل في استعادة ابنها ومتابعة التمثيل. وأنا أفكّر في أنّني سأفوز بقلب زوجي وأسترجعه من تلك المرأة".

اتخذت الجبال خلفية زرقاء مائلة إلى الرمادي. ورأيت مصابيح الشارع

تنير خلف جدار الفناء والأولاد الذين كانوا يلعبون على الرصيف يعودون إلى بيوتهم. ورأيت رجالاً يركبون الدراجات حاملين الخبز وأكياس الفطائر والفاكهة.

قالت مانيجة، "حان وقت إعداد العشاء".

نهضنا ودخلنا. دهشت ثانية كيف أنّ مرور الوقت وكل التجارب الجديدة قد طمس بعض المشاعر وحتى المفاهيم. ذابت المشاعر التي كنا نعبّر عنها بالصراخ، "أكرهك". أصبحنا الآن في منتصف العمر. وقد شهدنا الخسائر والصدمات الكبيرة التي، وإن اختلفت طبيعتها، ألغت كل الشكاوي القديمة.

أشعر بالسعادة كلما فكرت في وثاقة العلاقة بين مريم ومحترم في هذه المرحلة من العمر. وعلى الرغم من أنّني ما زلت أعتبر مريم أمي وأخاطبها "أمي"، فإنّني غفرت لمحترم وأحببتها. وأنا شاكرة لها لأنّها احتضنت مريم. وأدرك الآن أكثر من أي وقت مضى مقدار صعوبة حياتها - تزوّجت في التاسعة إلى رجل كبير، وحملت في الرابعة عشرة حيث أنجبت عشرة أطفال وفقدت بعضهم. أتصوّرها هي وأبي في الفراش في ليلة الزواج، هو الخبير في شؤون النساء، وهي الفتاة البريئة تماماً التي لم يبرز ثدياها أو شعر عانتها. طفلة بجوار رجل. وأحب مانيجة الآن أيضاً لأنّها تكرّس نفسها لمحترم، وتستفيد مريم وفارزين من ذلك أيضاً.

لكن فقدان باري ترك ثقباً في وجودي، زاده عمقاً ودكنة عدم اليقين الذي يكتنف ما حدث وكيف حدث. حاولت معرفة مكان ابنها لكنّني لم أفلح بعد رغم كل تلك السنين. عندما أنظر إلى صورة باري على مكتبي، بابتسامتها المتفائلة، تتسارع الصور في ذهني: كيف تلاشت وحدتي لحظة دخولها بيتنا في الأهواز، وهي تلعب دور لورا على المسرح، وأحلامي بكتابة مسرحية لها، وقولها لي وأنا أقرأ لها إحدى قصصي، "أنت ممتازة". عندئذ أشعر أنّها هنا معي، جالسة بقربي.

أجل يا عزيزتي باري، لأعيدك إلى الحياة كتبت هذا الكتاب.

بنات إيران

سيرة ذاتية للروائية "ناهيد رشلان" تسرد فيها قصة أسرة إيرانية وترفع النقاب عن التعقيدات التي ترافق كل امرأة تترعرع في مجتمع ذكوري.
حزن "رشلان" منعها على مر السنين من سرد سيرتها الذاتية لتخبر كيف اختلفت حياتها عن حياة "باري"، شقيقتها الحميمة. في عمر المراهقة، رفضتا التقيّد بالأعراف السائدة وحلمتا بخوض غمار الأدب والمسرح، فكانتا تقرآن سراً الكتب الممنوعة وتمثّلان قصصاً رومنسية. وفجأة انقلبت حياتهما، حين أُجبرت "باري" على الزواج من رجل ثري وقاس جعل منها أسيرة منزلها. تفادت "ناهيد" الاقتران بشخص يختاره والداها، فطلبت من والدها متابعة دراستها في أميركا.
بعد أن اشتهر اسم "ناهيد" في مجال الأدب في الولايات المتحدة وتحررت من قيود عائلتها، تلاشت أحلام "باري"... فقد قضى زوجها على آمالها وطموحاتها. وحين تلقّت "ناهيد" خبر وفاة "باري"، عادت إلى إيران، التي أصبحت تحت حكم نظام إسلامي، لتعرف ما حدث مع شقيقتها العزيزة، وتواجه ماضيها، وتقيّم ما يخبّئه المستقبل لمنسحقات القلوب.
كتاب "بنات إيران" لا يحكي قصة "ناهيد" فحسب، بل يجمع حياة كل من خالتها ووالدتها وشقيقاتها في رواية تتناول موضوع الحزن والرابط الأخوي... والأمل

علي مولا

9 789953 278018